
محمد حسنين هيكل
المفاوضات السرية
بين العرب وإسرائيل
الكتاب
الأول
الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية

محمد حسنين هيكل

المفاوضات السرّيّة بين العرب وإسرائيل

١

دار الشروق

الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
٢٢ مارس ١٩٩٦	٢٦ مارس ١٩٩٦
الطبعة الثالثة	الطبعة الرابعة
٢ إبريل ١٩٩٦	١٠ إبريل ١٩٩٦
الطبعة الخامسة	الطبعة السادسة
١٠ مايو ١٩٩٦	١٠ نوفمبر ١٩٩٦
الطبعة السابعة	الطبعة الثامنة
١٦ يناير ١٩٩٧	٢٦ يناير ١٩٩٩
الطبعة التاسعة	الطبعة العاشرة
٢٠ يناير ٢٠٠٠	نوفمبر ٢٠٠١

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٦٢٣٣٩٨ ـ ٢٦٢٣٥٤٨ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مُحمّد حسَنين هيكل

المفاوضات السّرّيّة بين العرب وإسرائيل



الأسطورة والإمبراطوريّة والدّولة اليهوديّة

□ لماذا لم يفاوض العرب ؟

□ كيف فاوضوا ؟

محتويات
الكتـــــاب الأول

التاريخ يسافر إلى المستقبل

الفصل الأول : القوة والحق!

الفصل الثانى : خريطة تبحث عن أرضها!

الفصل الثالث : "الساحل" و"الداخل"

الفصل الرابع : مصر تعود إلى الساحة

الفصل الخامس : من يملك القوة؟!

المقدمـــــــــــة

هذه الطبعة من هذا الكتاب عن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" واجهت ظروفا غير مألوفة ، أو على الأقل غير عادية ، وكان من نتيجة هذه الظروف أن الطبعة الإنجليزية الأصلية من هذا الكتاب صدرت فى لندن يوم ٨ يناير ١٩٩٦ ، بينما تأخرت الطبعة العربية ، وكان المقرر لها أن تسبق ، وذلك تقليد حرصت عليه منذ أن سمح لكتبى أن تطبع وتصدر من القاهرة بعد قرابة عشر سنوات من المنع والحظر كنت فيها أمارس عملى من وطنى دون وسيلة لنشره فى هذا الوطن .

وطوال تلك السنوات من المنع والحظر كانت كتبى تطبع وتصدر من لندن ونيويورك ، ومن باريس وطوكيو ، ومن مدريد وروما ، وغيرها عبر القارات ــ وفى نفس الوقت كانت هناك طبعة عربية لهذه الكتب تخرج إلى طلابها من خارج القاهرة ، كذلك فإن ترجمة هذه الطبعة وتقديمها إلى القارئ العربى كان يقوم بهما غيرى ، وكنت أقول لنفسى وللسائلين "إنه يصعب علىّ أن أكتب الكتاب مرتين" ، مرة باللغة الإنجليزية للنشر الدولى ومرة باللغة العربية ، خصوصا وقد وجدت أننى عندما أتعرض لترجمة أعمالى إلى العربية لا أكتفى بالترجمة وإنما تدفعنى اهتمامات القارئ العربى إلى الأبعد بالزيادة ، وإلى الأوسع بالتفصيل، وذلك يجعل الكتاب الواحد بالفعل كتابين .

ولقد شجعنى على ترك مهمة الترجمة إلى العربية لغيرى ، أن مترجمين مقتدرين تفضلوا وأعطوا لأعمالى من جهدهم ما يكفيها وأكثر ، وعلى سبيل المثال فقد قام الأستاذ محمد حقى، زميلى فى "الأهرام" وقتها ، على ترجمة كتاب "وثائق القاهرة" ، كما قام الصحفى اللبنانى الكفء الأستاذ سمير عطا الله على ترجمة كتاب "الطريق إلى رمضان" ، ثم قام الصديق العالم الدكتور عبدالوهاب المسيرى على ترجمة كتاب "مدافع آية الله" ... وهكذا. وكانت تلك أفضالا ومكرمات سعدت بها وعرفت لها قدرها . وظل الأمر على هذا النحو حتىٰ جاء كتاب "خريف الغضب" ، ونظرا لحساسية موضوعه فقد آثرت ترجمته لنفسى وبنفسى إلى اللغة العربية ، ولم يخطر ببالى أننى بذلك أرسيت سابقة لم أعد أستطيع التخلى عنها أمام القارئ العربى . وأغرانى على ذلك أكثر أن كتبى رفع عنها المنع والحظر فى مصر وأصبحت مطبوعة منشورة فيها بداية من سنة ١٩٨٥ .

ومنذ ذلك الوقت صدرت لى كتب عديدة كان كل واحد منها فى واقع الأمر كتابين : طبعة إنجليزية هى الأصل لكل الترجمات ، وطبعة عربية أقوم عليها بنفسى ، ويتسع مجالها وتزيد تفاصيلها ، وتلتحق بها وثائقها ، حتى يكاد الكتاب العربى أن يصبح بالفعل شيئا مختلفا عن الأصل الإنجليزى ، وإن بقى الجوهر والسياق والاتجاه واحدا فى الحالتين.

□

وفى هذا الكتاب عن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" تصرفت كما جرت عليه العادة منذ سنة ١٩٨٥ وحتى الآن .

تقدم "الأهرام" مبادرا بطلب الحقوق العربية كلها ، سواء للنشر الصحفى أو على شكل كتاب . وتحمست حتى من قبل أن تجىء موافقة دار "هاربر كولينز" التى تملك التصرف فى أى تعاقد . وكنت واثقا على أى حال أنهم يعرفون من تجارب سلفت أنه حين يكون الأمر متعلقا بـ "الأهرام" فإن الموافقة تسبق التفاصيل بصرف النظر عما تقول به أصول صياغة العقود.

واستعدت الطبعة الإنجليزية من الكتاب للصدور من دار "هاربر كولينز" ، ومعها الطبعة اليابانية فى نفس الوقت ، لكن الطبعة العربية التى ترجمت نصوصها بنفسى وتوسعت فيها وزدت عليها وألحقت بها وثائقها ـ واجهت ما أشرت إليه من ظروف غير مألوفة ، أو على الأقل غير عادية ، وحاولت تقدير الدواعى وأظننى فعلت مستجيبا لمشاعر وولاءات تعلو فوق الحقوق والعقود ، وحافظا لصلات وصداقات تسبق فى حسابى أى حساب.

وقد أضيف إلى ذلك أننى لم أطلب تفسيرا ولا تفصيلا ، وبدا لى أن الطلب قد يحمل شبهة إلحاح لا أحتاجه أو شبهة ضغط لا أبتغيه .

□

ولعدة أيام كان أمامى عرض لإصدار هذه الطبعة العربية من بيروت ، وعاودتنى ذكريات أزمنة المنع والحظر ، وأظن أن ذلك جعلنى أتردد.

إن بيروت كانت وما زالت كريمة مع ما أكتب ، حفية به وحانية عليه ، وهى تظل فى كل الأوقات مركز إشعاع عربى يساير مركز القاهرة ويضاهيه . لكن الأمر هذه المرة تخالطه اعتبارات نفسية من نوع آخر .

لم تكن اعتباراتى النفسية تتعلق ببيروت ، من حيث هى بيروت ، وإنما كانت تتعلق بإحساس يخشى مظنة قبول طوعى بما يمكن أن يتبدى ولو بالرمز أو بالشكل درجة من درجات المنع والحظر على عمل يكتب فى القاهرة ثم يصدر وينشر خارجها كما حدث من قبل .

ولعل من هذه النقطة بالذات ، أننى رحبت وسعدت بعرض من "دار الشروق" لطبع الكتاب ونشره فى مصر ، ومنها إلى بقية الوطن العربى ، الذى لا أفرق فيه بين بلد وآخر عن إيمان عميق بأمة واحدة لها كل خصائص الأمة الواحدة ، بما فيها ذلك التنوع الخلاق الذى يميز الأمم العظيمة .

ويتداعى إلى فكرى ـ دون ضرورة لرسم مسار التداعى هنا ـ سؤال كثيرا ما يواجهنى به أصدقاء فى الفكرة والكلمة ، يسألوننى : "لماذا لا أكتب بانتظام فى الشئون الجارية ؟" وفى العادة فإن ردى يقتصر على عبارة عامة مرسلة لأن واقع المشكلة التى تواجهنى فى الكتابة بانتظام عن الشئون الجارية فى مصر معقد بأكثر مما يظهر على السطح . ذلك أن الصحف التى تصدر فى مصر الآن نوعان : نوع يسمى بالصحف القومية ، ونوع يعرف كصحف حزبية .

وأشعر على نحو ما أن كتابتى بانتظام ـ أو بغير انتظام ـ فى الصحف القومية قد تكون مسئولية ومخاطرة بالنسبة للقائمين على أمورها ، وذلك ليس من مطالبى . ثم إن الكتابة بانتظام فى الصحف الحزبية تبدو لى استعارة لهوية ليست لى ، وذلك ليس من حقوقى .

وفوق ذلك ـ وربما قبله ـ فإنه يخطر لى أننى كتبت كثيرا وما زلت أكتب أحيانا ـ وتكلمت طويلا وما زلت أتكلم مرات ـ وقد يكون مناسبا أن أترك المجال لآخرين وأن أقرأ مع القارئين وأن أصغى مع السامعين . ولعله يرضينى أن يسأل أحد : "لماذا لا يكتب هذا الرجل بانتظام؟" خير من أن يُسأل أحد : "لماذايكتب هذا الرجل بانتظام؟"!

أكرر ذلك برضى كامل ، ومودة خالصة مع الزمن وناسه ، فلقد قلت كلمتى فى كل العصور والظروف ، وفى كل الأحوال فإن العالم مفتوح أمامى وسماواته فسيحة ورحبة .

□

أنتقل من هذه المقدمة التوضيحية إلى هذا الكتاب نفسه : "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" ، فأقول إن موضوعه كما هو باد من أول نظرة ومن مجرد العنوان صعب وعسير ، لكن قصته يجب أن تروى وأن تقع روايتها الآن وعند هذا المنعطف من التاريخ العربى ،

وخشيتى أن عواصف الحرب والسلام أخذت الأمة من خناقها وسحبتها إلى بعيد بحيث اختلطت الحقـــائق بالأوهام والوقائع بالخيال ، وضاع المعنى أو لعله انتحر كما ذكرت مرة!

وعلى نحو ما فقد قدرت أنه ربما كان مفيدا ، وقبل أن تتحرك القوافل على الدروب ، أن تطل الأمة على مشهد كامل للمواقع التى تقف قرب تخومه اليوم وتتبين كيف وصلت بها الحوادث إلى هذه التخوم ، ذلك أنه من الضرورى للأمم أن تعرف عند كل موضع من مواضع تاريخها كيف وصلت إليه ، ولا بأس بعدها من أن تواصل سيرها على الدروب طالما أنها تعرف من أين هى قادمة وإلى أين هى قاصدة ؟

ولعل هذا الكتاب فى تركيبته العامة أن يكون نوعا مما يسميه العسكريون بـــ : "تختة الرمـــل" ، وهى نموذج مجسم (ماكيت) بالكتل والفراغات لميادين الصراع التى يخوضونها بحيث تظهر أمامهم - وإن بحجم مصغر - تضاريس أرض الواقع الذى تجرى حركتهم عليه ، ومن ثم يتعرفون بوسائل النظر والقياس واللمس على كل المجالات المتاحة على الساحة ، ومن أين المداخل والمخارج ، ومن أين التقدم والالتفاف ، أو التراجع والانسحاب إذا طرأ ما يدعو إليهما .

إن الفصول الأولى من الكتاب هى بالفعل أشـــبه ما تكون بـ " تختة الرمل" ــ نموذج مجسم (ماكيت) للميادين التى جرت عليها "قصة المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل".

ثم إن نفس هذه الفصول الأولى تتعرض أيضا لنقطة هامة ، إذ تجيب على سؤال كامن فى عنوان الكتاب ذاته ، وهو : "لماذا كان مطلوبا أن تجرى أية اتصالات أو مفاوضات بين العرب وإسرائيل من وراء حجب وأستار؟"

ومن الإجابة على هذا السؤال عن حتمية السرية وضروراتها ، يصبح ممكنا أن تبدأ وتتصل وتتداعى فصول القصة من أولها ، إلى العقد المستحكمة فيها ، إلى النهايات المقدرة لها ، فى سياق متصل يحاول أن يصل إلى الحقيقة أو يقاربها - مدركا أن هذه الحقيقة ملك الناس لأنها وسيلتهم إلى المعرفة ، على أساس أن المعرفة هى أهم عناصر الإرادة التاريخية لدى الشعوب والأمم .

□

أنتقل إلى نقطة تالية لأقول إن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" قصة واحدة، لكنها قصة طويلة ، والأبطال - إذا صدق وصف البطولة! - كُثُر .

والواقع أن الظروف والأجواء التى أحاطت بالقصة ، امتدت عبر سنوات طويلة تعاقبت عليها قوى ودول ، وأحيانا قبائل وأسر حاكمة أو مطالبة بعروش .

فى وقت من الأوقات كانت المفاوضات السرية بين بريطانيا وبين الحركة الصهيونية . وفى وقت آخر كان التفاوض بين الإمبراطورية العثمانية وبين الحركة الصهيونية . وفى وقت تال كانت المفاوضات بين الهاشميين وبين الحركة الصهيونية . ثم اتسعت الدائرة فدخلت فيها مصر مع المرحلة الأخيرة من العصر الملكى .

ثم جاء وقت وقعت فيه المسئولية ـ أو معظمها ـ على مصر ، وكان ذلك بالدرجة الأولى فى أعقاب ثورة ١٩٥٢ . وكانت هذه المرحلة المصرية حقبتين ، حقبة قادها "جمال عبدالناصر" ، وأثناءها جرت محاولات لكن الاتصالات والمفاوضات السرية استحالت لأن مصر فى ذلك الوقت كان لها دورها فى قيادة حركة قومية عامة شملت قضية فلسطين ، وغيرها من قضايا العمل القومى العام . وفى هذه الحقبة لم يكن فى استطاعة مصر أن تتصل أو تتفاوض لأسباب كثيرة أولها موقف مبدئى يرى التناقض التاريخى بين المطالب المتصارعة ويحاول جاهدا أن يلائم حركة موازين القوة لصالحه ، رغم المحاذير والمخاطر . وثانيها أن الحركة القومية العامة فرضت أحلامها وطموحاتها ، وهى أحلام وطموحات كان من الصعب على مصر حيالها أن تقدم على شىء من وراء ظهر جماهيرعريضة تعبّر مصر عنها وتقودها من حيث هى تعبّر عنها . وثالثها أن هذه الحركة القومية العامة دخلت فى نزاع مع القوى الإمبراطورية ، وكان هذا الصراع شاملا وعنيفا ، وكانت إسرائيل موجودة فى خطوط الجانب الإمبراطورى من النزاع وطرفا فى عملياته ، وبالتالى فإن الخطوط كانت قاطعة .

كان هناك التزام مبدئى ، وكان تأييد الجماهير الواسعة من المحيط إلى الخليج ضامنا إضافيا لهذا الالتزام .

ولقد تلت ذلك حقبة مصرية قادها الرئيس "أنور السادات" ، وقد تصرف ، ومعه آخرون، بظن أو وهم أنه "سلام" ، وبظن أو وهم أنه "صالح القضية المركزية لكل العرب" ، وبظن أو وهم أن "زعامة مصر للعالم العربى" تعطيه الحق فى أن يتصرف . واعتقادى ــ وقد يكون لغيرى رأى مخالف ـ أن هذه الظنون والأوهام كانت هواه ، لكنها فى نفس الوقت كانت تحريضا وغواية من رفاق له خطر ببالهم أن الصراع العربى الإسرائيلى سبب سهرهم وأرقهم ، وقد آن لهم أن يناموا مستريحين وأن يستيقظوا هانئين!

وفيما يظهر من فصول القصة فليس مؤكدا أن ما جاء فى النهاية "سلام" . كذلك ليس مؤكدا أن القضية المركزية لكل العرب استفادت كثيرا من كل ما جرى ، بل إن ما تنازلت إليه القضية المركزية لكل العرب يمد تأثيره الآن إلى صميم الروابط التى يمكن أن تشكل جامعا لإرادة الأمة إزاء قضاياها ، بل إزاء مصائرها!

وكذلك فليس مؤكدا أن مصر فيما تصرفت فيه أدت دورها العربى بما يحفز مقوماته . والحاصل ـ فى هذا الشأن ـ أنه عندما تكون سياسة مصر أن تقود العالم العربى إلى صلح كيفما كان وكيفما اتفق مع إسرائيل ـ فإن سطوة الولايات المتحدة تستطيع أن تسوق الدول العربية إلى هذه السياسة بطريقة أسرع وأكفأ لا تحتاج إلى مصر دورا أو زعامة!

وعندما مشت مصر على طريق الاتصالات والمفاوضات السرية مع إسرائيل ، وتوصلت إلى ما توصلت إليه ، فإن العالم العربى الذى انفك جامعه ، لم يترك للفلسطينيين خيارا غير أن يجربوا بأنفسهم وفى أسوأ الظروف . وجرّبوا فعلا ووصلوا إلى أوسلو وتوابعها فى القاهرة وواشنطن مرورا بهزات وقعت لهم على مساحات شاسعة فى المنطقة ما بين بيروت وتونس ، وطهران والجزائر ، واستكهولم وجنيف ، وغيرها !

□

وفى قصة طويلة ومتواصلة من هذا النوع ، ومعقدة بالخفايا والخبايا على هذا النحو ، وتدقيقها وتوثيقها مطلوبان وضروريان إلى هذه الدرجة ـ فإن قصة "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" اتسعت بحيث يمكن أن تصبح حملا ثقيلا على اهتمام قارئها وعلى أعصابه أيضا . وكان الحل الوحيد لهذا الحمل الثقيل تقسيم الكتاب إلى أجزاء تصدر متوالية. ومن حسن الحظ أن سياق القصة نفسه كان يوحى بثلاثة أجزاء منفصلة متصلة من القصة :

١ ـ جزء يبدأ من دواعى السرية ، ويتابع تداخل الأساطير مع الإمبراطورية ، واختلاط الديانات مع السياسات ، وصراع المحرمات مع المقدسات ، وصدام الحقوق مع الأسلحة ، بحيث تظهر مقدمات وأرضيات وخلفيات الساحة العامة التى جرت وتجرى عليها المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل .

٢ ـ جزء يركز على الحقبة المصرية : عصر "جمال عبدالناصر" والمحاولات التى جرت فيه لاختبار درجة حرارة المياه وقياس سرعة تياراتها ـ وعصر "أنور السادات" حيث جرت تجربة القفز والسباحة مع التيار أو ضد التيار .

٣ ـ جزء يصل بالقصة إلى مرحلتها الفلسطينية التى توهجت فجأة مثل شهاب ظهر بسرعة وسط ضباب الشمال فى "أوسلو" ، ثم انفجر وراحت شظاياه وما زالت حتى الآن تتدحرج على ساحة عربية وإقليمية ودولية جياشة بالعنف والفوضى .

وتقسيم كتاب واحد إلى أجزاء متعددة ليس جديدا على المكتبة العربية ، خصوصا حينما تدعو إليه وتفرضه حقائق عملية . فالطبعة الإنجليزية من "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" صدرت فى ٥٧٢ صفحة ، ولكن الطبعة العربية تصل بالكتاب فى مجمله إلى أكثر

من ١٢٠٠ صفحة تضاف إليها مجموعة الوثائق التى أريد أن أضعها تحت نظر القارئ العربى، بينما الطبعة الإنجليزية ـ وغيرها من الطبعات الأجنبية ـ لا تحتاجها .

هكذا قرّ قرارنا على ثلاثة أجزاء متتالية يصدر أولها هذا الربيع من سنة١٩٩٦ ، ويصدر آخرها قبل الخريف من نفس السنة .

وكل رجائى أن يتسع صدر القارئين وصبرهم لهذا الترتيب الذى لم يكن منه بد .

□

بقى أن أتقدم بالشكر والعرفان لكثيرين لهم عندى ما أشكرهم عليه ، وأعترف بفضلهم فيه ، وبينهم كثيرون من الساسة وصناع القرار فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، لم يبخلوا بوقت طلبته منهم ، وأخص بالذكر واحدا منهم كان بودّى أن أهديه النسخة الأولى من الطبعة الفرنسية للكتاب حين تظهر ، لكنه لسوء الحظ أراد أن يغادر دنيانا مسرعا فى مشهد مأساوى يجمع بين نقيضين : إرادة الحياة وإرادة الموت ـ قبل صدورها ، وأعنى به الرئيس الفرنسى الراحل "فرانسوا ميتران" . وكان "ميتران" قبل رحيله قد أهدانى آخر جزء أتمه من مذكراته كاتبا بخط يده على الصفحة الأولى بعد الغلاف كلمات رقيقة ودافئة(*) . وكان مناى أن أبادله كتابا بكتاب ـ كما حدث مرات من قبل ـ لكن المقادير حكمت فوق كل الأمانى وسبقت .

كان هناك أيضا كثيرون من الرؤساء والساسة العرب والمصريين وصل كرمهم معى إلى منتهاه ، ذلك أن بعضهم لم يكتف بأن يفسح لى من وقته ، وإنما أضاف إلى ذلك أن أتاح لى أوراقه الرسمية والخاصة دون قيد غير ما أرتضيه باقتناعى مراعاة للظروف .

هناك أيضا تقدير ضرورى أريد إضافته وهو موجه إلى قسم المعلومات بمؤسسة الأهرام : رئيسه الأستاذ أبو السعود إبراهيم وكل مساعديه بغير استثناء . فعندما كنت أريد مراجعة مناسبة أو تاريخ أو اسم كانت استجابة الجميع رجع صدى لا يتلكأ ولا يتأخر .

(*) كتب الرئيس "فرانسوا ميتران" إهداء بخط يده وتوقيعه على آخر جزء صدر من مذكراته قال فيه ما ترجمته الحرفية :

" إلى محمد هيكل تعبيرا عن الصداقة والاحترام أقدم لك هذا الكتاب آملا أن تجد فيه مجالات لقاءات مشتركة بيننا

فرانسوا ميتران "

Pour Mohamed Heykal
en amical hommage
ce livre qui recoupera, je l'espère
des itinéraires communs
François Mitterrand

هناك كذلك شكر من نوع خاص أوجهه إلى أصدقاء وزمـلاء فـي واشـنطن أتـاحوا لى مـرة أخرى فرصة استخدام قانون حرية المعلومات فى الولايات المتحدة . وفى هذه المرة فقـد أمكـن الحصول على وثائق كثيرة عربية وإسرائيلية ، فضلا عن الوثائق الأمريكية ، وكان بعضها مـن وثائق وكالة المخابرات المركزية . والذين يعرفون درجة السرية التى تتعـامل بهـا الوكالـة مع وثائقها يدركون أى حجم من الجهد كان لازما للوصول إلى المخابئ والمكامن .

يبقى أن أعبر أخيرا عن امتنانى وإعجابى بكل هؤلاء الذين أعطوا جهدهم بإخلاص لنشر الكتاب بسرعة وكفاءة ، صادرا عن القاهرة ، وذلك بالنسبة لى مطلـب غـال وعزيـز مـع ثقتـى وإيمانى واعتزازى بكل مركـز مـن مراكـز الفكـر والتنويـر علـى السـاحة الواسـعة لهـذه الأمـة الواحـدة...

محمـــد حســـنين هيـــكل

مدخـــــــل

هذا الكتاب محاولة واسعة للرد على سـؤال مـن بـين الأسـئلة التى أحاطت بالصراع العربى ـ الإسـرائيلى مـن بداياتـه ، ورافقتـه فى مختلف مراحل تطوره ، وتداعت منه ، ولا تزال .

والسؤال الذى يتعرض هذا الكتاب لمحاولة الرد عليه هو :

لماذا كانت الحرب قريبة ؟ وظل السلام بعيدا طـوال قـرن مـن الزمان ؟ .. ولماذا جاء السلام ـ إذا كان ما جاء سـلاما ــ فـى هـذه الظروف ؟ وبهذا الشكل ؟ وبهذه الوسائل ؟ .. ولماذا كان يجب أن تكـون المحـاولات مـن أجـل السـلام فـى الخفـاء ، وتحـت سـاتر الظلام، فى حين أن السلام بالطبيعة أمل يتمنـاه النـاس ، والأمـل بالطبيعة نور وضياء .

هـذا هـو السـؤال . وأمـا الإجابـة عليـه فهـى محاولـة مقدمـة باحترام وحب واعتزاز ، إلى أجيال جديدة مـن شـباب هـذه الأمـة العربية ، وبالذات فى مصر . وهى مرفقة فى النهاية بكلمة اعتـذار إليهم جميعا ، ذلك أن الكثير مما تحويه هذه الصفحات ، يصعب تقديمه إليهم باستعارة عبـارة "ونسـتون تشرشـل" المـأثورة : "لقـد كانت تلك أروع لحظات عمرنا"!

لكن الأمل غالب على اليأس ، وهذه منة الخـالق علـى خلقـه حينما أعطاهم نعمة الحياة بما فيها الإرادة ، ونعمة العقل بما فيـه الذاكرة!

محمـــد حســـنين هيـــكل

"التاريخ يسافر إلى المستقبل"

"يا أخت أندلس عليك سلام
هوت الخلافة عنك والإسلام"

(أحمد شوقى)

هذه محاولة لقراءة التاريخ وليس لكتابته. وهى رحلة سريعة مع روايات ووقائع وأحداث ورجال فترة تزيد على قرن من الزمان ، ثم هى نظرة بعرض الأفق تعلمت واستفادت من مصادر ومراجع وسجلات لها فضل السبق . ومن الحق التنبيه إلى أن رحلة التاريخ، مثل أى رحلة غيرها ، تبدأ من موقف معين وتمشى منه نحو تصور مفترض يصح أو يختلف . وتلك هى طبيعة أى مغامرة فى طلب المعرفة . (وربما نلاحظ أن هذه المحاولة لقراءة التاريخ متصلة بصميم موضوع هذا الكتاب ، وهو الاتصالات بين العرب واليهود ، من قبل إنشاء الدولة ، وأثناء الإعداد لإنشائها ، وبعده بقليل. ففى هذه الأوقات أصبحت الاتصالات جزءا من نسيج التاريخ وتلك طبائع الأمور.)

الفصـــــــل الأول

القـــوة والحـــق !

الاهتمـام بالسياسـة فكـرا أو عمـلا يقتضـى قـراءة التاريـخ أولا ــ لأن الذين لا يعرفـون ما حـدث قبـل أن يولـدوا ، محكــوم عليـهم أن يظلــوا أطفــالا طــــول عمرهــم !

١

"مقدســـات : محــرمـــــات"

" سؤال :

هـل كان قرنا عربيا كاملا من الجنون أو الوهـــم
أو أحــلام المغامريـن ؟ "

فى حياة كل جماعة بشريـة ، وعنــد أسـاس كـل حضـارة إنسـانية ، تنشأ وتترسـخ ــ بالطبيعة والمعايشة ومطالب الأمان النفسـى والمـادى ــ محرمـات يمتنـع النـاس عـن مقاربتهـا وينأون عن محظوراتها ، ويعتبرون العبث أو الإخــلال بهـا مجلبـة للعنـة تحيـق بالمجـترئين وتلحق بهم شؤما وعارا يصعب عليهم الخلاص منهما أو التكفير عنهما .

وهذه المحرمات المحظورات فى حياة الجماعات أو الحضارات ليسـت أشـباحا مخلوقـة من الوهم والخرافة ، وإنما هى فى الأصل تعبيرات عن ضرورات وحدود وأصول ، وقيم تـنزع الفطرة السليمة إلى تأسيسها وتحصينها فى أعماق كل نفس ، وتوفـر لهـا نوعـا مـن الحمايـة الذاتية تلامـس حـدود "القداسـة" التى تفرض أحكامهـا بالروادع الداخليـة حتى تلحـق بهـا أسبـاب القـوة أو أسبـاب القانـون .

وحتى من قبل أن تتنزل رسالات السماء فإن المجتمعات والحضارات صــادفت وتعـاملت مع "مقدسـات : محرمـات" ظهرت أصلا فى إطار العائلة وهى ما زالــت فـى حضـن الكهـف وظلمته ، ثم سـرت فى ضمائر مجتمعات وحضارات نمـت وازدهرت بــالعمران وكـانت عصمـة لـه ، ومن ذلك مثلا تحريم الأم على ابنها والبنت على أبيهــا والأخ علـى أختـه ، ومـن ذلـك أيضا حرمة الدم ، وحرمة الحق ، وحرمة العهد ، وحرمـة المكـان ، وحرمـة القريـب والجـار وحتى حرمة الوثن !

وفى واقع الأمر ، فإن هــذه "المقدسـات : المحرمـات" كـانت أول تقنـين إنسـانى سـبق بالإحساس والضمير والاعتقاد ما أكدتـه فيما بعد شرائـع السماء وولاية الدول وكتابة القوانين.

ولعل ذلك هو الذى أكسب هـذه "المقدسـات : المحرمـات" ، سلطانها الغلاب حتى فيما ترجئ الشرائع أمره إلى يوم الحساب ، وحتى فيما لا تراه عيـون الدول ولا تطوله مجالس القضاء !

إن اللغـة العربيـة ـ لسوء الحـظ ـ لم تنحت كلمـة لوصـف هـذه "المقدسـات : المحرمات"، تتسع للدلالات التى تحملها كلمـة "تابـو" "Taboo" ، وربما أن لغات غير العربيـة لم تنجح هـى الأخرى فى النحت ، ولهذا فإن الكلمة الإنجليزيـة ـ "تابـو" ـ "Taboo" ذاعت وشاع استعمالها حتى أصبحت وصفا عالميا دالا ومقبـولا فـى عديد من لغات الأرض لوصف حالة إنسانية مركبة غائرة فى أعماق تجربة المجتمعات والحضـارات ، وفاعلة مؤثرة فى وجدان البشر وضمائرهم ، مسـتقرة فى لا وعيهـم ، حاكمـة ذات الوقت على فعلهـم الواعـى وعلى توجهاتهم .

وبالطبع فإن حركة التقدم واتساع المعرفةتملكان أن تبيحا يوما ما كان مـن قبل محـرما ، كما أنهما تستطيعان نزع القداسـة عما كان مسيطرا بغير مساءلة فى زمن من الأزمـان . وقد حدث بالفعل أن العقل أبطل الخرافة ، والحكمة أزاحت الكهانـة ، كما أن رسالة التوحيد نزعت ألوهيـة الصـنم ، لكن ذلك احتاج إلى فكـر متوهج و إلى تنزيل علـوى ، وأكثر من ذلك احـتاج إلى صـراع حافـل وهائـل حتى ظهـر الحـق واتبع النـاس طريقه على بينـة ونـور .

□

ولقرابة قرن من الزمان ، من الثلث الأول للقرن التاسع عشـر وحتـى الثلث الأخير من القرن العشرين ، كانت الأمـة العربيـة تواجه الصهيونية ـ وحلـم دولتها فىفلسطين ـ على ساحة شائكة محفوفة فى كثير من جوانبها بنوع من ذلك الادراك الذى تختلط فيه "المقدسـات : المحرمات" صانعة الممنوع أو المحظور الذى يسمونه : "Taboo" . وقـد وصلت المواجهـة إلى موقف رفض "للآخر" تجاوز حدود المعقول فى بعض الأحيان .

ولم يكن ذلك الرفض ناشئا عن عـرض جنـون ، أو وسـواس وهـم ، أو جنـوح فئـات أو أفراد خطر بأحلامهم أن يبنوا لأنفسـهم مجـدا باستغلال غرائـز أو مخـاوف جماهـير طغـى عليها الإحباط ، فاندفعت تبحث عـن عـدو تحاربـه وتنفث فـى وجهـه لهـب المحبـوس والمكبوت فى صدرها !

فالأمة العربية ـ على تعدد شعوبها ـ كانت سواء فيما اتخذت من مواقف ، ومن الصعب تصور أمة بأسرها يطيح بها الجنون .

كذلك يصعب تصور أمـة بأسرها تستسلم لوسواس الوهـم مائـة عـام .

ثم إن موقف الرفض لم يكن وحى أو هوى جماعة أو فرد فى عمر مـن الزمن معين ، أو رقعة من المكان محصورة . فالأسر المالكة الثلاث فى العـالم العربـى : أسـرة محمـد علـى فـى مصر، والهاشميين خصوصا فى بغداد ، والسعوديين فى الريـاض ، وجـدوا أنفسـهم ــ علـى الرغـم منهم أحيانا ـ فى موقف الرفض ، وكذلك فعلت كـل القـوى والأحـزاب التـى تولـت الحكـم ـ أو تولت المعارضة ـ فى مرحلة طلب الاستقلال وبعده ، فى سـوريا ومصـر والعـراق ولبنان والسودان والمغرب والجزائر وتونـس ، إلى جانب سلطنات وإمارات ومشيخات فى شبه الجزيـرة العربيـة ، والخليـج . وفـى هـذا "الموقـف" ، كـانت الشـعوب أسـبق مـن ملوكهـا وسلاطينها ومشايخها وقادتها السياسيين . ثم إن الأقليـات العرقيـة والدينيـة والطائفيـة فـى العالم العربى كانت تزاحم الأغلبية وتسابقها إلى نفـس "الموقـف" .

وفى رفقة هذا الحشد الضخم : فى قصور الملـوك والسـلاطين والشـيوخ ، وفـى سـاحات السياسة والسلطة والحكم ، وفى المدن والأرياف والصحـارى ، كـانت ملكـات الأمـة الفكريـة والأدبيـة والفنية حـرفا وقصيدا ، مشهدا ونغما ، لونا وظـلا ـ كلها وبغـير اسـتثناء ــ معـبرة بحرية وإبداع عن هذا "الموقـف" .

وعندما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال فى الخمسينات ، وبرزت طلائع الثورة القوميـة فى مصر واكتسحت موجاتها منطقة ما بين المحيط إلى الخليج ، فإن أشياء كثيرة انجرفـت أو ازيحت إلا ذلك "الموقف" من الصهيونية وإسرائيل ، بل لعـل "الموقـف" زاد صلابـة وقـوة إلى درجة أنه امـتزج عضويا بآمال التحـرر والوحـدة والتنمية الشاملة .

ولم يكن ذلك فى عهود التقليد ـ أو عهود التجديـد ــ جنوحـا إلى الحـرب ، وإنمـا كـان بالدرجة الأولى طلبا للسـلام .

وكانت هناك أغلبية فى العالم ـ شعوبه ودوله ــ فـى آسـيا وأفريقيـا وأمريكـا الجنوبيـة ، وحتى فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، تتفهم وتؤيد "موقف" العرب فـى رفـض أمـر واقـع يـراد فرضه عليهم، وتتفهم وتؤيد أيضا مطلبهم فى سلام عادل ، وانعكس ذلك بوضوح على قرارات للمجتمع الدولى ممثلا فى الأمم المتحدة ، وممثلا فى حركة عدم الانحياز ، وممثلا فى منظمـة الوحدة الأفريقية. وقد صدرت هذه القرارات ـ واحدا بعد الآخر ـ بانتظام تسـتحيل نسـبته إلى المجاملات ، وأكثر من ذلك فإن قـوى كبيرة وقتها لـم تتفهـم وتؤيـد فقـط ، وإنمـا أتبعـت القول بالفعل فانحازت عمليا إلى "الموقـف" ، وقـاطعت "الآخـر" ولم تتعـامل معـه ، وأدانـت تصرفاته كثيرا وناوشتـه بالسلاح أحيانا مـددا "للموقـف" ودعمـا .

ولم يكن ذلك بدوره عرض جنون أو وسواس وهم أو جنوح مغامرة ، وإنما كان استجابة "المقدسات : محرمات" لها أسباب ودواع حقيقية : تاريخية وإنسانية ، كامنة وظاهرة محسوسة وملموسة، مؤثرة على عصرها وعالمها كما هى مؤثرة على أهلها وأصحابها .

□

إن مراجعة سريعة وجزئية لحجم وقيمة التكاليف التى اقتضتها "المقدسات: المحرمات" ، تقطع بأن الأمة كانت مقدرة لما تفعله عارفة بمسئولياته ، وإلا فلم يكن هناك مبرر لهذه التضحيات المتواصلة على امتداد أزمنة حرجة وخطرة شهدت قيام حربين عالميتين: الأولى والثانية . وشهدت ارتفاع وهبوط ثلاث إمبراطوريات : البريطانية والفرنسية والسوفيتية . وشهدت ظهور وتراجع أربع ظواهر مرهقة هى : الاستعمار ، والتمييز العنصرى ، والفاشية ، والشيوعية .

وكانت أزمنة الحرج والخطر ـ فى نفس الوقت ـ أزمنة فتوح ووعود كبرى ، تلاحقت فيها خمسة عصور هى : عصر الكهرباء ، وعصر الطاقة النووية ، وعصر الإليكترونيات ، وعصر الفضاء ، وعصر ثورة المعلومات .

ولم تكن الأزمنة الحرجة والخطرة غائبة عن بال الأمة وهى تتخذ لنفسها "موقفها"، ولا كانت غائبة عنها فتوح ووعود العصور الراكضة إلى قلب المستقبل . والذى حدث هو أن الأمة حملت الخطر والوعد كليهما ، وحاولت بكل جهدها أن تتوقى ، وفى نفس الوقت تتحرك ، وإنما فى إطار الحرص على "المقدسات : المحرمات" ، آملة فى الحالتين أن يجىء الخطر وأن تجىء الفتوح والوعود بمعادلات مختلفة . وكان تقدير الأمة فى مجمله متوازنا قدر ما سمحت به الظروف . فهى لم تبدأ بقتال ، وإنما آثرت أن يكون التزامها فاهما ومفهوما إزاء "المقدسات : المحرمات" . تمتنع عن الأولى وتتمسك بالثانية .

ولم تبدأ الأمة بالقتال سنة ١٩٤٨ ، وإنما تقدمت جيوشها بما لا يتعدى خطوط التقسيم الذى طلبته الأمم المتحدة لفلسطين سنة ١٩٤٧ .

ولم تبدأ بالقتال سنة ١٩٥٦ . ولم تبدأ بالقتال سنة ١٩٦٧ . وإنما كانت حربها دفاعية فى المرتين، ونجحت مرة ، ولم تنجح مرة أخرى .

ولأنها لم تنجح سنة ١٩٦٧ ، فقد أصبح فرضا عليها أن تأخذ المبادأة وتقدم على القتال بمشروعية حق الدفاع عن النفس ، وقد فعلت ذلك فى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ ، ثم تصاعدت بممارسة حق الدفاع عن النفس حتى بلغت به ذروته فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وخلال تلك المواجهات التى تمسكت فيها الأمة "بالمقدسات : المحرمات" ، والتزمت فيها حدود الدفاع عن النفس كان حجم التكاليف وحساباتها قاطعا فى نفيه للجنون والوهم والمغامرة ، ويمكن الاكتفاء هنا بثلاث جبهات تتوافر الحقائق الكافية عن حجم تضحياتها :

● ما بين بداية المقاومة على أرض فلسطين ذاتها ، وهى البؤرة الساخنة للمواجهة ، وحتى سنة ١٩٩٣ ، قدم الشعب الفلسطينى :

٢٦١ر٠٠٠ شهيد

١٨٦ر٠٠٠ جريح

١٦١ر٠٠٠ معوق

كما أن قرابة مليونين من الفلسطينيين اضطروا إلى الخروج من وطنهم وتحولوا بعائلاتهم إلى لاجئين . وهؤلاء الذين خرجوا ـ وهم مليونان ـ أصبحوا الآن أكثر من خمسة ملايين ، وبالضبط خمسة ملايين وأربعمائة ألف نسمة .

● وما بين سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٩٣ كانت التكاليف فادحة على أصغر بلد عربى وهو لبنان ، فقد وصلت به مضاعفات الصراع العربى الإسرائيلى إلى حد الحرب الأهلية ، وخرج منها وقد قدم :

٩٠ر٠٠٠ شهيد

١١٥ر٠٠٠ جريح

٩ر٦٢٧ معوق

واضطر ٨٧٥ر٠٠٠ من مواطنيه إلى الهجرة خارج بلدهم .

● وما بين سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٧٣ فإن أكبر البلاد العربية مصر وهو الذى تحمل عبء قيادة الجهد العربى الشامل ، قدم :

٣٩ر٠٠٠ شهيد

٧٣ر٠٠٠ جريح

٦١ر٠٠٠ معوق

ثم إن أكثر من مليونى مواطن مصرى من منطقة قناة السويس اضطروا إلى الهجرة من بيوتهم ـ وإن بقيت هجرتهم داخل وطنهم ـ مرتين : سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ .

وهناك بالتأكيد تكاليف كبيرة وقعت على بلاد عربية أخرى مثل سوريا والعراق، لكن الأرقام الدقيقة ليست متوفرة . وربما أن التكاليف المعروفة بالنسبة لفلسطين (بؤرة الصراع) ، وللبنان (أصغر بلد بين أطرافه) ، ولمصر (أكبر هذه الأطراف) تعطى على نحو ما ، فكرة يقاس عليها حيث لا تتوافر المعلومات .

وكانت هناك تكاليف أخرى للموقف من "المقدسات : المحرمات" ، ومع ذلك فإن تكاليف الدم تبقى أغلى فى كل الأحوال من أى تكاليف يكون حسابها بالوقت أو بالأعصاب أو بالأموال !

□

إن المعايير اختلفت ابتداء من سنة ١٩٧٤ .

وعندما جاءت سنة ١٩٩٤ كانت العجلة قد دارت دورة كاملة .

سقطت موانع التحريم ، كما زالت دواعى القداسة . لكن وجه الغرابة أن مجموعات الحقائق والقيم لم تكن تغيرت ، ولا كان سبب الانقلاب نور عقل سطع فجأة ، أو حكمة تجلت ، أو تنزيلا علويا جاء إلى الناس بشرع جديد .

وكانت ذرائع الانقلاب ـ (إضافة إلى اتهام "الموقف" الأصلى بالجنون ، والوهم ، والمغامرة) هى الدفع بتغير الظروف . وكانت الظروف بالفعل تتغير ، وهى باستمرار ـ على اتساع الدنيا وتواصل العصور ـ فى حالة تغيير لا يتوقف ، وإنما كله فى إطار التاريخ الإنسانى وحركته من عتمة الكهف إلى سطح القمر .

ومن المفارقات أن "الآخر" كان أكثر وعيا وعلما ، فقد ظل فى مكانه على أرض التاريخ الإنسانى ـ بل والأسطورى غالبا ـ وبقى ثابتا على "مقدساته" وعلى "محرماته" .

فهى ـ بعد ادعاء بغياب ألفى سنة ـ ما زالت : "أرض إسرائيل" ، و"شعب الله المختار"، و"مملكة داود"، و"التلمود" ، و"أورشليم" ، و"يهودا" ، و"السامرة" ، و"هيكل سليمان" ، و"حائط المبكى" ، و"التيه" ، وال "هولوكوست" ، وهاجس الأمن الذى لا سبيل إلى طمأنته والشىء الوحيد الذى جد بمتغيرات الزمن والظروف هو مائتا قنبلة نووية !

٢

نـــابـلـيــــــون

" أيها الإسرائيليون : انهضوا فهذه هي اللحظة المناسبة "

(نابليون بونابرت فى نداء موجه ليهود العالم)

تنشأ "المقدسات : المحرمات" فى حياة الأمم والدول ـ كما فى حالة المجتمعات والأفراد ـ لأسباب قوية ، لها دواع حقيقية ترسخ فى العقول والقلوب ، وربما تغيب الأسباب عدا وحصرا فى ضباب الزمن مع كر السنين . لكن الأثر الذى تتركه هذه الأسباب يغوص ويسكن فى أعماق ما يمكن تسميته بالوجدان ، سواء على المستوى الفردى للناس أو على المستوى الجماعى للأوطان . وهم يطيعون نداءه الخفى والمستتر واثقين بشكل ما أنهم على حق ، موقنين بطريقة أو بأخرى أنه سلامتهم وسلامهم .

إن بذور "المقدسات : المحرمات" العربية تجاه الصهيونية وإسرائيل تعود فى بداياتها وأصولها إلى القرن التاسع عشر . وهو ـ من أوله إلى منتهاه ـ واحد من أهم قرون التاريخ سطوة ونفوذا على العصور الحديثة اللاحقة له ...

وطوال القرن التاسع عشر ـ هذا القرن الأكبر والأخطر من كل ما سبقه فى التاريخ ـ كان العالم مشغولا ـ (إلى جانب الاختراقات الكبرى فى العلوم الطبيعية والإنسانية) ـ بأربع قضايا محددة استحوذت على اهتمامه وتنازعته فيما بينها :

١ ـ ظاهرة الوطنية وقد برزت نتيجة للثورة الفرنسية ودفعت شعوب الأرض جميعها إلى البحث عن هويتها ، وحقها فى تقرير مصيرها ، وطلب الحرية والنهوض الاجتماعى .

٢ ـ ظاهرة التسابق إلى المستعمرات والتنافس عليها بين القوى الأوروبية ، وقد علت منها فى ذلك الوقت ثلاث هى : الإمبراطورية البريطانية ، والإمبراطورية الفرنسية ، والإمبراطورية الروسية التى راحت توجه جيوشها وأساطيلها ، وشركاتها المالية أو

بعثاتها التبشيرية ، إلى قارات الأرض ، ترفع أعلامها على مصالح أرادتها لنفسها أو شاءت حرمان الآخرين منها .

٣ ـ المسألة الشرقية ، وقد تمثلت بالدرجة الأولى فى عملية التربص بإرث الخلافة العثمانية ، التى كانت إمبراطورية شاسعة تمركزت فى قلب العالم من شواطئ بحر قزوين إلى شواطئ المحيط الأطلسى ، وضمت أقطارا كثيرة من جنوب أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا . لكن الوهن أصابها ومرضت وعجزت ، وتهيأت كل ممتلكاتها الأوروبية والآسيوية والأفريقية لتكون ميراثا للغالبين الأصحاء القادرين . لكن هؤلاء لم يكونوا توصلوا بعد إلى اتفاق على تقسيم الإرث رغم نفاذهم إلى الأقاليم والقبائل والعشائر والطوائف فى أملاك الخلافة ومن وراء ظهرها . وبالتالى فقد كان قرار الغالبين المستتر هو تأجيل إعلان وفاة رجل أوروبا المريض ـ حسب التعبير الشائع فى وصف دولة العثمانيين وقتها ـ حتى يرتب كل واحد منهم نفسه للغنيمة يرثها بأكملها ، أو يحصل لنفسه على حصة الأسد فيها . وبهذا الشكل بقيت الخلافة كيانا لا يسمح له بالموت ، ولا يسمح له بالحياة ، إلى حين تستقر حركة موازين القوة فى أوروبا وبالتالى يطلب كل طرف بين الغالبين نصيبه فى القسمة والإرث .

٤ ـ المسألة اليهودية ، وهى قضية ديانة توزع أتباعها فى أنحاء الأرض . ثم إنهم كانوا هدف عداء استفحل خصوصا حول مواضع كثافة التواجد اليهودى فى شرق أوروبا وروسيا ، ووقتها كان ٩٠ ٪ من يهود العالم (وعددهم الإجمالى ١٢ مليونا) يعيشون على تخوم ما بين روسيا وبولندا ، ويتعرضون بين الحين والآخر لغارات دموية تولدها احتكاكات دينية واجتماعية وفكرية اشتهرت باسم الـ Pogrom ، وهى كلمة روسية الأصل تعنى "التدمير المنظم لطبقة أو لجماعة" ، وقد التصق استعمالها بتاريخ اليهود فى شرق أوروبا ، وأصبحت من أشهر الكلمات ترددا فى الصحف العالمية طوال القرن التاسع عشر عندما تكررت مذابح اليهود فى روسيا وبولندا .

□

وكان الفكر الإستراتيجى الأوروبى ـ النافذ وقتها ـ هو الذى اجتهد فى محاولة الربط بين هذه العناصر الظاهرة فى القرن التاسع عشر ، وخلط توليفة لمتناقضاتها ، يمكن استغلالها فى البحث عن مخارج سياسية تناسب مصالح ومقاصد القوى والأطراف .

وكان "نابليون بونابرت" ـ نجم ذلك الزمن من التاريخ العالمى وأزمان بعده طويلة ـ هو المبادر والسباق إلى الربط والتوليف بين : الوطنية ، والسباق الاستعمارى ، والمسألة الشرقية ، والمسألة اليهودية ، مجتمعة كلها معا فى خدمة استراتيجية سياسية واحدة .

وقد التقط فى البداية آخرها ، وهى المسألة اليهودية .

والحاصل أنه قبل "نابليون" كان يهود العالم ـ ومنذ مأساة الخروج مع المسلمين من الأندلس ـ موزعين بين أوروبا وشمال أفريقيا . وفى تلك الأيام كان الكلام عن العودة إلى فلسطين نداء يتردد على لسان أحد الحاخامات بين حقبة وأخرى ، وربما مرة كل ثلاثين أو أربعين سنة ، ولم يكن هناك من يأخذ هذا النداء جدا ، أو يعلق عليه بأكثر من أنه حنين يجتر الوهم ، لأن العودة خلط متعسف للأسطورة بالتاريخ ، ثم إنها حتى فى الأساطير مرهونة بإشارات وعلامات لم تظهر بعد على أى أفق .

وفى كل الأحوال فإن "نداء الأسطورة" كان قضية مختلفة عن "المسألة اليهودية" .

فالنداء الأسطورى كان فى حيز الأشواق . أما المسألة اليهودية فكانت فى حيز الواقعين الاقتصادى والاجتماعى ، لأن المسألة اليهودية كانت فى صميمها ذلك الاضطهاد الواقع على اليهود فى أوروبا ، سواء هؤلاء الذين استقروا فى الغرب من قديم ، أو هؤلاء الذين تدفع بهم موجات الهجرة بين وقت وآخر هاربين من الشرق لاجئين إلى الغرب .

وكانت موجات الهجرة من الشرق هى النقطة الحرجة فى المسألة اليهودية ، لأن أحدا لم يكن يريد هؤلاء اليهود القادمين هاربين لاجئين من الشرق إلى الغرب . فلا مسيحيو الغرب يريدونهم لأن صدرهم ضيق بالفعل من اليهود فى بلادهم ، كما أن يهود الغرب أنفسهم لا يريدونهم بنفس المقدار وربما أشد ، لأن يهود الغرب استقروا حيث هم ، وقد نجحوا بالكاد فى صرف الأنظار عن وجودهم ، فإذا ظهر من يعتبرونهم "أجلافا" من مهاجرى الشرق اليهود ، أحسوا بالانزعاج من أثر التضارب بين ولائهم لأبناء دينهم ، وبين حساسيتهم لأوضاعهم فى المجتمعات المسيحية التى يعيشون وسطها والتى يحاولون الاندماج فيها بأى شكل ووسيلة .

وكانت فكرة نابليون "العبقرية" ـ ! ـ فى ربط وتوليف واستغلال الظواهر البادية مع مقدمات القرن التاسع عشر تتمثل فى عدة خطوات :

١ ـ استعمال ظاهرة الوطنية فى إيقاظ وعى يهودى يلتقط فكرة حق تقرير المصير ، ويطالب بوطن قومى لليهود ينقذهم من الشتات ويريحهم ـ ويريح أوروبا أكثر ـ من عبء موجات الهجرة المتدفقة من يهود الشرق .

٢ ـ اللعب على الوتر الدينى اليهودى ، وأساطيره ، لتكون فلسطين ـ وهى وقتئذ من أملاك الخلافة العثمانية التى يتسابق الكل على إرثها ـ وطن اليهود الموعود والمختار .

٣ ـ فإذا نشأت دولة يهودية برعاية فرنسا فى فلسطين ، فتلك إذن نقطة بداية مهمة لخططها الإمبراطورية فى قلب أملاك الخلافة العثمانية .

٤ ـ وإذا نجحت هذه التوجهات فإن فرنسا تكون قد بدأت عملية إرث الخلافة ، وتكون حصلت على النصيب الأكبر من التركة قبل أن تتنبه القوى الأخرى وتتحرك . وحتى إذا تحركت فإن فرنسا سوف تكون بالفعل هناك قبل الكل وفى موقع أقوى وأفضل .

□

إن ملامح الصورة الدولية العامة يومئذ معروفة :

- الصراع الإمبراطورى على أشده بين قوتين اندفعتا إلى البحر الأبيض المتوسط و إلى المحيط الأطلنطى و إلى المحيط الهندى ـ وهما بريطانيا وفرنسا ـ بينما القوة الإمبراطورية الثالثة ـ وهى روسيا ـ مشغولة بالتمدد فى آسيا ، وفى مناها أن تصل إلى بحر الصين ، وهو مفتوح على المحيط الهادى .

- إن فرنسا تراجعت فى السباق مع بريطانيا بعد عصر "الملك الشمس" ـ "لويس الرابع عشر" ـ لأن خليفتيه "لويس الخامس عشر" و"لويس السادس عشر" شغلا عن التوسع كل منهما لأسبابه . أولهما ألهته مباهج قصر "فرساى" ومغانيه وترفه ، والثانى حاصرته عواصف الثورة الفرنسية التى حملت ألوية الحرية والإخاء والمساواة ، وسحبت ملوك وأمراء البوربون إلى المقصلة .

- إن جنرال الثورة العبقرى عاد مرة أخرى مستأنفا حلم "لويس الرابع عشر"، وآخذا على نفسه مسئولية التوسع الإمبراطورى الفرنسى ، حتى وان اصطدم بالسلاح مع بريطانيا . وكانت الحملة الشهيرة على مصر ـ "حملة النيل" كما سماها "بونابرت" ـ تستهدف غرضين فى نفس الوقت :

◊ احتلال مصر كبداية لعملية إرث الخلافة ، والزحف منها إلى فلسطين والشام .

◊ ثم العمل على قطع طريق المواصلات البريطانية ، وهو يومئذ عقد من اللآلئ حبة بعد حبة ، وآخرها أغلى الجواهر فى التاج البريطانى وهى الهند .

وفى سبيل تحقيق أغراضه لم يتردد "نابليون" أمام الموانع والذرائع .

فعند غزو مصر كان ادعاؤه أنه الصديق الصدوق لخليفة المسلمين العثمانى ، وأنه الحريص على تثبيت سلطانه المهدد من المماليك فى الداخل أو الملوك المسيحيين فى الخارج . ووصل "نابليون" إلى حد ادعاء الإسلام إيمانا ـ كما قال ! ـ بصدق وصفاء تعاليمه .

وعندما بدأ "نابليون" زحفه من مصر إلى الشام داخلا من فلسطين ، توقفت جيوشه عند أسوار القدس وعكا ويافا ، وغيرها من حصون المسلمين . وهنا أزاح "نابليون" ورقته الإسلامية وأخرج ورقة ثانية يهودية !

إن ورقة "نابليون" الإسلامية ـ وهي منشوره إلى المصريين عن صداقته للخليفة وعن اعتناقه للإسلام ـ كانت جاهزة مطبوعة من قبل أن تقلع الحملة الفرنسية من موانيها . وأما ورقة "نابليون" اليهودية فليس واضحا متى بدأ التفكير فيها والإعداد لها . ومن المحتمل أن "نابليون" رتب لها قبل مغادرته لفرنسا ، ولم يشأ أن يعلن عنها كي لا تؤثر على ورقته الإسلامية . لكنه من المحقق أن بعض علماء الحملة الفرنسية بدءوا مبكرا في الاتصال ببعض حاخامات اليهود في فلسطين ، مثل "موسى موردخاي" و"جاكوب الجازي" ، وربما غيرهما.

وكانت ورقة "نابليون" اليهودية ، التي أظهرها أمام أسوار القدس ، نداء إلى يهود العالم لم يوزع في فلسطين وحدها ، وإنما جرى توزيعه في الوقت نفسه في فرنسا ، وإيطاليا ، والإمارات الألمانية ، وحتى في أسبانيا ، الأمر الذي يشير إلى أن القضية أكبر وأوسع من ظرف محلي واجهه "نابليون" حينما استعصت عليه أسوار القدس .

كان نداء "نابليون" إلى يهود العالم على النحو التالي :

" من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين .

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد ، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي ، وان كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط .

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل اشعياء ويوئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون ، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه . إن أمامكم حربا مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم ... لابد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية ، وذلك الخزي الذي شل إرادتكم لألفي سنة . إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها ، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلي عن حقكم ، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل ، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات ، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز .

إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به ، ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه ، قد اختار القدس مقرا لقيادته ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى استهانت طويلا بمدينة داود وأذلتها .

يا ورثة فلسطين الشرعيين ..

إن الأمة الفرنسية التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها ، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء .

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفا لأسبرطة وروما ، وأن معاملة العبيد التى طالت ألفى سنة لم تفلح فى قتل هذه الشجاعة .

سارعوا ! إن هذه هى اللحظة المناسبة – التى قد لا تتكرر لآلاف السنين ـ للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم ، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم ، وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة إلهكم يهواه ، طبقا لعقيدتكم ، وافعلوا ذلك فى العلن وافعلوه إلى الأبد.

بونابرت "

إن ورقة "نابليون" الإسلامية كانت حيلة سهلة لخداع المصريين ، سواء فى ذلك العامة أو العلماء من مشايخ الأزهر .

ولا بد من الاعتراف ـ لسوء الحظ ـ أن الخدعة جازت على المصريين فى ذلك الوقت بمن فيهم العامة والعلماء ، وربما يغفر لهم جميعا أن ضيقهم بجور الحكام المماليك جعلهم على استعداد لحلف مع الشيطان إذا كان ذلك ضروريا للخلاص من أولئك الذين استبدوا بأقدارهم وأرزاقهم ، وعجزوا فى نفس الوقت عن حماية ديار الإسلام وديارهم .

ولقد جاء الشيطان إليهم يلبس عمامة ، وصدقوه لأنهم كانوا يريدون تصديقه ، ولأنه لم يكن فى مقدورهم ألا يصدقوه .

وعلى أى حال ، فإن ورقة "نابليون" الإسلامية توقفت عند هذا الحد ، ولم تبق منها إلا أوراق وذكريات ، بعضها غريب وبعضها مسل ، تحفل بها ملفات وزارة البحرية فى باريس التى حفظت فيها معظم وثائق الحملة الفرنسية على مصر ، وهى ترسم صورة مدهشة للسياسة وللحياة فى مصر بينما العالم ينتقل من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر[1]، وكلها خليط مثير فيه رؤى استراتيجية بخط "نابليون" ، كما أن ضمنها قصائد

---

(١) كانت هناك باستمرار عملية بحث عن وثائق الحملة الفرنسية على مصر ، ولحقب طويلة بدا وكأن هذا الكنز التاريخى قد ضاع واندثر ، وكان الظن أنه ربما غرق هذا الكنز عندما كانت الصناديق التى تضم أوراقه =

شعر غزل مكشوف كتبه عدد من الشيوخ غراما وصبابة فى بعض ضباط "نابليون" وعيونهم الزرق وشعرهم الذهب !

لكن ورقة "نابليون" اليهودية هى الوثيقة التى تستحق الاهتمام فى السياق التاريخى لأنها الأثر الإستراتيجى الباقى فى المنطقة من تلك الأيام وحتى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين .

□

إن "نابليون بونابرت" لم يكن يهوديا ولا كان مواليا لليهود ، والعكس هو الصحيح ، لكن ورقته اليهودية - المتمثلة فى ندائه ليهود العالم من خارج أسوار القدس - لم تكن أكذوبة كما هو الحال فى ورقته الإسلامية . ذلك أن ورقته الإسلامية كانت موجهة إلى كتلة بشرية من سكان مصر ، عددهم فى ذلك الوقت يفوق المليونين ، وفى استطاعتهم إذا قاوموا أن يجعلوا مصر مصيدة لجيوشه وليس رأس جسر ، وهو لهذا مستعد لخديعتهم بأن يكذب عليهم .

وأما ورقته اليهودية فهى حالة مختلفة ، لأن اليهود فى فلسطين ذلك الوقت لم يزد عددهم على ألفين ، وبالتحديد وطبقا لتقرير مرفوع إلى "نابليون" نفسه من مجموعة ضباط استكشاف سبقت جيشه إلى فلسطين ، هو ١٨٠٠ (منهم ١٣٥ فى مدينة القدس) . وهؤلاء

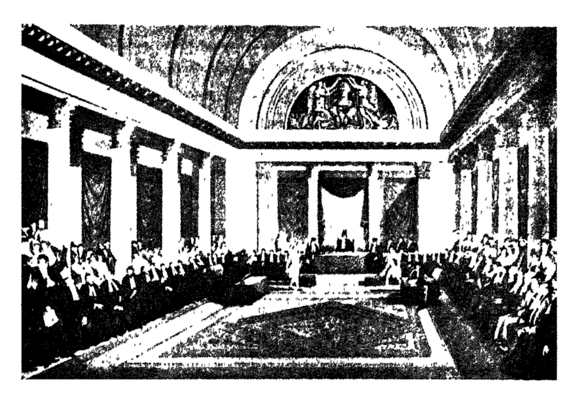
= محمولة على ظهر مركب فرنسى من المراكب التى تسللت عائدة إلى فرنسا بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر . وساعد على ترجيح هذا الاحتمال أن الأسطول البريطانى ، بقيادة الأميرال "نلسون" ، كان يترصد السفن الفرنسية المتسللة عائدة إلى مارسيليا محاولة اختراق طوق الحصار البحرى . ولعل الخطأ الذى وقع فيه كثيرون بين الباحثين والدارسين ، أنهم اتجهوا إلى الخزائن التى كان طبيعيا أن تودع فيها أوراق الحملة الفرنسية ، وهى وزارة الخارجية أو وزارة الحربية أو وزارة المستعمرات . ثم خطر ببال أحد الأساتذة المصريين المدققين ، وهو الدكتور "أحمد حسين الصاوى"، أن يلقى نظرة على محفوظات وزارة البحرية الفرنسية ، وإذا الكنز معظمه موجود فى خزائنها . وقد حاول الرجل أن يستلفت نظر بعض الجهات الرسمية إلى مساعدته فى توثيق فترة من أهم فترات التاريخ المصرى ، ولم يستمع إليه أحد . ثم تكفلت جهود خاصة بمهمة الدعم وتمويل البحث والتصوير ، وبذل الدكتور " الصاوى " جهدا ممتازا ، وأمكن فى النهاية الحصول على أكثر من عشرين ألف وثيقة من وثائق الحملة الفرنسية على مصر تلقى أضواءا كاشفة على الاستراتيجيات للقوى الإمبراطورية فى تلك الفترة ، وكذلك على حياة مصر فى لحظة من لحظات الانتقال الهائلة فى التاريخ .

ليس فى مقدورهم - مهما فعلوا لا أن ينصروه ولا أن يخذلوه . وهكذا فإن ورقة "نابليون" اليهودية تحتاج إلى تفسير آخر غير التفسير الذى يجوز حيال ورقته الاسلامية .

وإذا لم تكن ورقة "نابليون" اليهودية أكذوبة ، وإذا لم تكن خدعة سياسية مثل ورقته الإسلامية ، فماذا تكون إذن؟

إن التفسير الصحيح - والحوادث اللاحقة شاهد - هو أن هذه الورقة كانت "رؤية" .

وهى لم تكن "رؤية نبى" ، وإنما كانت رؤية إمبراطور يملك حسا استراتيجيا نابها وبعيدا .



لوحة مرسومة للمحفل اليهودى الأكبر " سنهدرين " الذى رأسه الإمبراطور "نابليون" بعد عودته من حملة مصر وإعلان نفسه إمبراطورا لفرنسا . وقد طرح فيه "نابليون" مرة أخرى مشروعه لدولة يهودية فى قلب الضلع الذى يضم مصر وسوريا . واللوحة مرسومة سنة ١٨٠٧ (أى سنة انعقاد المحفل) . ومن الواضح أن الفنان الذى رسمها نقلها عن "سكتش" (مسودة) أعده أثناء افتتاح المؤتمر ، ثم عاد إلى مرسمه واستكمل تفاصيلها . ويظهر من المعلومات المتعلقة بهذه اللوحة أنها بيعت بعد انتهاء عصر "نابليون" ، ثم ظهرت فى بعض المجموعات الخاصة . وسنة ١٨٦٠ كانت هذه اللوحة ضمن مجموعة رأسمالى يهودى هو "إسرائيل سولومون" (من أسرة "سولومون" المشهورة) وقد سمح ابنه بنشرها ، وظهرت مطبوعة لأول مرة سنة ١٨٧١ .



بـريـطانـيـــا

" تحدثت إليه عن آلام اليهـود فلم يسمعـنى،
وحدثتـه عـن مصالـح بريطانيـا فـترك كـأس
الـبراندى الـذى كـان فـى يـده ولمعـت عينـاه
وبـدأ يسمعـنى "

(اللورد "شافتسبرى" فى وصف حديث لـه مع
"بالمرستون" رئيس وزراء بريطانيا)

كان "نابليون بونابرت" يعتقد - بدراسة الجغرافيا والتاريخ - أن مصر هى أهم بلد فى العالـم ، وقد أصبح مؤمنـا، بعد دراسته للاستراتيجيات الإمبراطورية بأن الاعتقاد الذى توصل إليه بشأن أهميـة مصـر حقيقـة لا تقبـل الشـك ، وقد كـرر التعبير عن هذا الاعتقاد والإيمان كثيرا فى تقاريره ومذكراته وأحاديثه ، حتى تلك التى أجراها فى المنفى وهو بعيد فى جزيـرة "سانت هيلانـة" معزول بمحيطات وبحار عن السياسـة وعن الحـرب وعن الدنيـا بأسرها .

كان الموقـع المصـرى فى تقديره فريـدا :

- معـبر مطـل على البحـر الأبيض النافـذ من جبـل طـارق إلى الأطلنطـى متناهيـا إلى العالـم الجديد فى أمريكا ، ثم هو مطـل على البحـر الأحمـر الذى يمكن وصله بالبحـر الأبيض فى أحلامه والذى يتدفق بمياهه جنوبـا حتـى يدخـل إلى بحـر العـرب عنـد عـدن ، ويمتـد إلى المحيط الهندى ثم إلى المحيط الهـادى .
- ثم هو بلـد مستقـر قرب رأس أفريقيا مستند فى الوقت نفسه على كتـف آسيـا .
- ثم هو أرض تصلح بطبيعتها السهلة ومواردها الزراعيـة لأن تكـون قـاعدة مأمونـة لجيـش كبير يأكـل ويسكـن ويستعـد فى أمـان .

• وأخيرا ، فإنه موقع حاكم على طرق التوسع الإمبراطورى خصوصا إلى الهند وما حولها وما وراءها ، وبالتالى فالحصول عليه مقدمة ضرورية لأى قوة تريد أن تتصدى لبريطانيا وتريد أن تتحدى سيطرتها على التجارة وعلى البحار .

لكن "نابليون" لم يكن ينظر إلى مصر وحدها ، وإنما كان يراها فى اتصال غير قابل للانفصال مع السهل السورى الذى يشكل معها زاوية قائمة تحيط بالشاطئ الشرقى — الجنوبى للبحر الأبيض ، وهذه الزاوية القائمة بضلعها الجنوبى فى مصر تمد تأثيرها بالعرض إلى كل الساحل الشمالى لأفريقيا ، و بالطول إلى الجنوب حتى منابع النيل ، ثم إنها بضلعها الشمالى فى سوريا تلامس حدود بلاد ما بين النهرين (العراق) وشبه الجزيرة العربية والخليج ، وحتى طرق الاقتراب البرى والبحرى إلى فارس والهند .

وهكذا فإن "نابليون" ـ شأنه شأن من سبقوه من الفاتحين ـ لم يكد يستقر فى مصر حتى راح يمد بصره إلى سوريا ، وحتى تكون الزاوية الجنوبية لشرق البحر الأبيض تحت سيطرته بالكامل . وكان ذلك بالضبط ما فعله فراعنة مصر وأباطرة الإغريق وقياصرة الرومان وأكاسرة الفرس . وهو نفسه ما قام به الخلفاء المسلمون فى أعقاب عصر النبوة ، ثم تواصل بعدهم بأمراء المؤمنين من الأمويين والعباسيين ، ثم حفظ دروسه فيما بعد كل حاكم.تولى أمر مصر ابتداء من "أحمد بن طولون" و"صلاح الدين" وحتى مماليك مصر العظام من أمثال "الظاهر بيبرس" و"قلاوون".

أى أنه وعلى طول العصور كان لا بد أن تكتمل الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض لتدخل فى إطار سياسى واحد يجعل كل ضلع منها تأمينا للضلع الثانى .. ضرورة جغرافيا وعبرة تاريخ !

لكن المعضلة فى ظن "نابليون" أن سوريا قريبة بأكثر مما ينبغى من مقر الخلافة فى تركيا ، وقد يكون ممكنا فى يوم من الأيام – طبقا لتقديراته – أن تتصدى دولة الخلافة لمشروعه وتقاتله فى ولايتها السورية ، وتجد فى ذلك عونا من إمبراطوريات أخرى منافسة له ، كالإمبراطورية البريطانية .

إضافة إلى ذلك فإن "نابليون" ـ مع اعتقاده ويقينه بأهمية الزاوية التى لا بديل عنها ـ كان يخشى إلى جانب الخطر الخارجى من أن الإسلام والعروبة فى كل من مصر وسوريا – ضلعى الزاوية يقدران فى يوم من الأيام ـ كما حدث من قبل خلال الحروب الصليبية ـ على صنع قوة ذاتية تتشجع على الانفلات من قبضته ، وقد تواجهه بما لا يتحسب له أو يريده !

وكان ملفتا أنه على امتداد التاريخ ، كان كل من ضلعى الزاوية الاستراتيجية الحيوية فى حالة بحث مستمر عن الآخر بصرف النظر عن متغيرات الظروف ، وأوصاف العصور وصراعاتها فرعونية أو رومانية ، بيزنطية أو إسلامية ، صليبية أو استعمارية !

ومن هذه الحقائق الجغرافية والتاريخية تبلورت الرؤية الاستراتيجية لـ "نابليون بونابارت"، وتجلت من خلالها "الورقة اليهودية" .

وبذلك فإن أحلام "نابليون" فى غزو العالم تبدت فى أول خطوة لها على النحو التالى :

١ - عليه أن يسيطر على الضلع الجنوبى لزاوية البحر الأبيض الشرقية - وهو مصر - وقد نزلت جيوشه إليها .

٢ - وعليه أن يؤمّن سوريا لتكون زاوية جنوب شرق البحر الأبيض تحت سلطته وهو الآن يزحف عليها .

٣ - ولكى يضمن عدم التقاء الضلعين عربيا وإسلاميا ، فإنه يزرع عند نقطة التقائهما ، أى عند مركز الزاوية ، شيئا آخر لا هو عربى ولا هو إسلامى . لكن هذا الزرع لا يمكن خلقه من العدم ، وإنما يحتاج خلقه إلى بذور حتى وإن كانت من جينات حفريات الأنثروبولوجيا بحيث يمكن غرسها فى التربة ، فإذا جرى ريها وأورق بعضها فحينئذ قد يصعب التمييز بين الأصيل والدخيل ، وبين الطبيعى والهجين .

وهكذا تجىء ورقة "نابليون" اليهودية تصورا للمستقبل ورؤية - ربما لا تتحقق بسرعة - لكنها قابلة للتحقيق فى مستقبل الأيام .. وبها فقد ينشأ وطن يهودى يكون ضمانا إضافيا إذا أمكن ، ويكون عازلا إذا اقتضت الضرورات ! وفى صياغتها فإن صاحبها استخدم مطالب الإمبراطورية ودروس التاريخ وأساطير الأديان القديمة وحوّلها إلى استراتيجية ، والثابت أن "نابليون" لم يتخل عن تقديراته الاستراتيجية-حتى بعد أن اضطر إلى التسلل ليلا من مصر والعودة إلى فرنسا ، وراح يواصل من باريس صراعه للسيطرة على أوروبا ، إلى حيث تحمله جياده وتصل مرامى مدافعه !

وعندما أصبح "نابليون" إمبراطورا لفرنسا فإن مصر كانت لا تزال فى حساباته أهم بلد فى العالم ، وكانت فكرة الوطن اليهودى العازل بعدها مستولية عليه ، وهكذا فإنه دعا سنة ١٨٠٧ إلى عقد مجمع يهودى "سانهردان" يحضره كل يهود أوروبا ممثلين فى رؤساء طوائفهم ، إلى جانب مشاهير حاخاماتهم ، ليلم "شمل الأمة اليهودية" على حد قوله ، ثم كان ملفتا أن يكون القرار الذى يحمل رقم ٣ من قرارات المجمع ، قرارا يتحدث بالنص عن :

- "ضرورة إيقاظ وعى اليهود إلى حاجتهم للتدريب العسكرى لكى يتمكنوا من أداء واجبهم المقدس الذى يحتاج إليه دينهم" .

ولعل ذلك هو الذى أوحى إلى مفكر سياسى شهير مثل "دولاجار" بأن يكتب كتابه اللافت للنظر : "نابليون والعسكرية اليهودية" !

□

إن عجلة التـاريخ لم يتوقـف دورانهـا . واستطاعت بريطانيـا دحـر خطـط "نـابليون" ، وأكمـل الـدوق "ولنجتـون" مـا بـدأه الأمـيرال "نلسـون" ، أولهمـا خـتم بتدمـير جيـوش الإمبراطور "نابليـون" علـى سـهول بلجيكـا (معركـة "واترلـو") ، وثانيهمـا استفتح بتدمـير أسطـول الجنرال "نابليون" عند مصب النيـل (معركة "أبو قـير") . لكن الـرؤى الاسـتراتيجية الواسعة للفاتحين الكبار لا تمـوت بموتهـم ، وإنما تبقـى فـى حافظـة التـاريخ بعدهـم تنتظـر غيرهم ممن يجدون الجـرأة والجسارة على استعادتها من جديد جزئيا أو كليـا .

وهكذا فإنه بعد سنوات قليلة من الفوضى والارتباك اسـتقر حلـم جمـع الزاويـة الشـرقية الجنوبية للبحر الأبيـض بضلعيهـا المصـرى والسـورى فـى يـد "محمـد علـى" والى مصـر الكبـير . والظاهر أن "محمد على" ـ بعد استقـرار الأمـر لـه فى مصـر ـ توصـل بحسـه إلى الضرورات التي تجمع بينها وبين سوريـا ، ومـن المحتمـل أن الفكـرة وصلـت إليـه بوحـى مباشـر أو غير مباشر من "سليمان باشا الفرنساوى" الذى كان أحد ضباط "نابليون" ثـم أصبح فيما بعد رئيسا لأركان حرب "ابراهيم" (باشا) ، ابن "محمد علـى" وقائد جيوشـه !

وربما أن الـذى أضافتـه تجربـة "محمـد علـى" إلى الرؤيـة الاسـتراتيجية العامـة للزاويـة الحيويـة ـ مصـر وسوريا ـ هى أن "محمد علـى" نجـح فى تأسيـس دولـة عصريـة مصريـة وعربيـة قادرة على أسباب القـوة ، وقادرة على أسباب الوحـدة فى العالـم العربـى .

والواقع أن "محمد علـى" لم يدخل سوريـا غازيـا ، وإنما دخلها وسـط علامـات نهضـة وطنيـة سوريـة تلاقت طموحاتها مع نموذج "محمد علـى" ، ودفعتها قـوة الأشـياء ـ وبينهـا التاريخ ـ إلى وضـع العلاقة بين مصر وسوريا فى وضـع متميز . وربمـا أن عصـر الوطنيـة ـ الذى حاول "نابليـون" أن يستغلـه لحـل المسألة الشرقيـة بالمسألة اليهودية ـ كان فاعـلا على الناحية الإسلامية العربيـة دون حاجة إلى تلفيقـات إمـبراطور فرنسـى يقـود جيوشـا غريبـة توجـهها خطـط إمبراطورية مسلحـة .

□

لقد أخـذ رئيس وزراء بريطانيا اللورد "بالمرستـون" عن إمبراطور فرنسـا "نابليون" وتعلـم منه ، وكانت تلك دائما مـيزة بريطانيـا فـى فـترة صعودهـا .. تحفـظ الـدرس مـن أعدائهـا وتطبـق ثقافتـهم بأفضـل منهم .

كانت البرتغال هى السابقة على الطرق البحرية بين القارات ، وجـرت بريطانيـا وراءهـا ولحقتها وسبقتها . وكانت أسبانيا هى السابقة إلى استعمار العالم الجديد فى أمريكا ، وجرت بريطانيا وراءها ولحقتها وسبقتها . وكانت فرنسا ـ "نابليون" ـ هى السابقة نحو مصر والواعية ـ فى العصر الاستعمارى ـ بأهمية الزاوية الاستراتيجية التى تجمعهـا مـع سوريـا ، وجـرت بريطانيا وراءها ولحقتهـا وسبقتهـا !

ويمكن القول إن "بالمرستون" تبنى بالكامل رؤى "نابليون" ، وأمسك أكـثر بإمكانياتهـا ، وراح يمهـد الأرض لتحقيقها لاحقـا بالعـدو الفرنسـى وسابقا لـه .

كان "بالمرستون" ـ شأنه شأن ساسة جيله فى ذلك الوقت ـ يعـرف مـا فيـه الكفايـة عـن المسألة اليهودية . وبالطبع فإنه كوزيـر لخارجيـة بريطانيـا ثـم رئيـس لوزرائهـا كـان مشـغولا بالمسألة الشرقية ، لكن أوراقه لا تظهر أنه ربـط بين المسألتين إلا بعد أن قام به "نابليون" .

ويبدو أن "بالمرستون" اكتفى ذلك الوقت بهزيمة الخطط الفرنسـية واطمـأن ، وإن كـانت فكرة الوطن القومى لليهود قد طرحت عليه من بعـض البروتستانـت الذيـن رأوا فيهـا تحقيقـا لنبـوءة العهـد القديـم .

وإذا كانت هذه الدعاوى التبشيرية قد وصلت إلى سمع "بالمرستون" ، فليس مؤكـدا أنهـا وصلت إلى عقلـه . وكانت تلك هى المهمـة التـى يجـب أن يتولاهـا أحـد ، وبـالفعل تولاهـا اللورد "شافتسـبرى" .

كان اللورد "شافتسـبرى" صهـرا قريبا لـ "بالمرستون" ، وفى الوقت ذاته صديقـا مقربـا من اللورد "روتشيلد" وعائلته ـ وهـم بين أكثر يهـود الغـرب الأغنيـاء والمـأزومين مـن موجـات هجرة يهود الشرق إلى غرب أوروبا ، وأشدهم حماسة فى العمـل على "تصدير الفائـض" منهـم إلى فلسطـين ـ وقد بـدأ "شافتسبرى" محاولاتـه لإقنـاع "بالمرسـتون" بالدعـاوى المقدسـة ، ثـم وجـد أن الأساطير القديمة عاجزة فبـدأ يضيـف إليهـا ذرائـع سياسـية يسـتطيع رئيـس وزراء بريطانيا أن يتفهمها ويستوعبها .

وكتـب "شافتسـبرى" فى يومياتـه ـ ١٤ يونيـو ١٨٣٨ ـ ما نصـه :

" أمس تناولت العشاء مع بالمرسـتون ، ورحـت بعـد العشـاء أحدثـه عـن مأسـاة اليهود وعذابهـم ، وكان يستمع إلى وعينـاه نصـف مغمضـتان يمسـك بيـده كـأس برانـدى يرشـف منه ما بين وقـت وآخـر .

وعندمـا تركـت حديـث المأساة اليهوديـة ورحـت أحدثـه عـن المصالح والمزايـا التجارية والمالية التى تنتظر بريطانيا فـى الشـرق ، لمعـت عينـاه وتبـدى اهتمامـه وترك كأس البراندى على المائـدة بجانبه وراح يسمعـنى ."

إن الوثائق البريطانية فى تلك الفترة حافلة بالشواهد على تطور فكر رئيس وزراء بريطانيا حتى وصل إلى تحديد ثلاثة أهداف للسياسة البريطانية فى الشرق الأوسط ، وحتى راح يبنى وراء هذا الفكر تحالفا من القوى الأوروبية الكبرى تؤيده قبل أن يضيع إرث الخلافة على الجميع .

كانت الأهداف الثلاثة ، وهى ظاهرة بجلاء فى الوثائق البريطانية من ذلك العصر ، على النحو التالى :

١ - إخراج "محمد على" من سوريا لفك ضلعى الزاوية المصرية ـ السورية .

٢ - حصر "محمد على" داخل الحدود المصرية وراء صحراء سيناء ، وتحويل هذه الصحراء إلى نوع من "سدادة الفلين" تقفل عنق الزجاجة المصرية التى يمثلها وادى النيل (والتشبيه من خطاب لـ "روتشيلد" موجه إلى "بالمرستون" بتاريخ ٢١ مايو ١٨٣٩) .

٣ - قبول وجهة النظر القائلة بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها وتشجيعهم على إنشاء شبكة من المستعمرات الاستيطانية فيها ليكون منها ذات يوم عازل يحجز مصر عن سوريا ، ويمنع لقاءهما فى الزاوية الاستراتيجية الحاكمة !

وكانت أهداف "بالمرستون" تلقى تأييدا ومساندة من اللورد "ولينجتون" قائد الجيوش البريطانية وقاهر "نابليون" فى "واترلو" . ومن الملاحظ أن كثيرا من التقارير فى الوثائق البريطانية تشير إلى أن "ولينجتون" هو صاحب نظرية مواجهة "محمد على" على ثلاث مراحل: إخراجه من سوريا ، واحتواؤه فى مصر ، وإنشاء عازل حاجز بين البلدين .

٤

محمد علي

" لليمامة عشها وللثعلب كهفه "

(الشاعر البريطاني اللورد "بايرون" في إحدى أغنياته العبرية)

مع بداية القرن التاسع عشر كانت الأجواء في بريطانيا معبأة لمعركة تصفية الخلافة العثمانية . فقد بدا أن هذه تركة حان موعد إرثها . ومضت السياسة تبلور خططها ، والقيادات العسكرية ترسم خرائطها ، وحتى الأدب والشعر دخلا ساحة المعركة دون أن يعني ذلك أن أوامر صدرت للأدباء والشعراء بأن يدخلوا ، وإنما الذي يحدث عادة أن المناخ العام السائد في أي بلد من البلدان في لحظة معينة من حياته يمد تأثيره على كل شيء من المدفع إلى المسرح ومن القنبلة إلى القصيدة !

إن معركة الهجوم على دولة الخلافة بدأت ـ وكان ذلك منطقيا ـ بهجمات متواصلة على الممتلكات الأوروبية للدولة العلية بمطلب تحرير المسيحيين من أسر الخليفة العثماني المسلم . وفجأة دخلت الورقة اليهودية ، بريطانية هذه المرة بعد أن كانت فرنسية . وبما أن اليهود كانوا يعيشون في سلام باستمرار تحت حكم السلطان العثماني متفرقين في ممتلكاته وقد آوت كثيرين منهم بعد الخروج من الأندلس سويا مع المسلمين ، فإن تحرير بلد يهودي لم يكن واردا . لكنه في مناخ بدايات القرن التاسع عشر راحت فكرة إنشاء وطن قومي لليهود تأخذ حيزا يزيد كل يوم . وبالنسبة لشاعر مثل "بايرون" فإن قصائده عن اليونان ما لبثت أن أفسحت طريقا في إلهامه لمجموعة القصائد التي سماها "الأغاني العبرية" ، وأولها قصيدته المعروفة :

" لليمامة عشها ، وللثعلب كهفه

ولكل شعب أرضه إلا اليهودي

فليس عنده غير قبره "

لم يكن الشعر حتى عند "بايرون" بعيدا عن السياسة . فالسياسة (توسعية عسكرية ، أو اقتصادية أو مالية ، أو استيطانية عنصرية فى هذا العصر) كانت ملء الأجواء . ومن الطبيعى أن الشواغل العامة لا يمكن أن تكون بعيدة عن إلهام الشعر ، حتى وإن كان اقتراب هذا الإلهام من السياسة غير مباشر ، وبالشعور دون التفكير المقصود والمنظم .

إن الزعيم الصهيونى "ناحوم سوكولوف" رفيق "هيرتزل" فى فكرة تأسيس الدولة كتب فى مذكراته يقول إنه فكر طويلا وتأمل فى الأسباب التى دعت إنجلترا إلى التحمس للمشروع الصهيونى فى فلسطين ومساندته . وقال فى مقدمة هذه المذكرات :

"إننى سألت نفسى كثيرا عن أسباب تأييد إنجلترا لحركتنا وتوصلت إلى أربعة أسباب أرتبها كما يلى :

١ - الطابع الإنجيلى للشعب الإنجليزى .

٢ - تأثير الإنجيل فى الأدب الإنجليزى .

٣ - محبة فلسطين عند الإنجليز .

٤ - السياسة الإنجليزية فى الشرق الأدنى طوال القرن التاسع عشر .

ومن البديهى أن الأسباب الثلاثة الأولى تنتمى إلى عالم التأليف والإنشاء ، وأما السبب الرابع فهو وحده السبب الذى ينتمى إلى عالم الحقائق والمصالح .

وكانت أهم مصالح إنجلترا فى ذلك الوقت هى ضرب "محمد على" باخراجه من سوريا - واحتوائه فى مصر - وخلق عازل حاجز بين مصر وسوريا .

□

فى نهاية سنة ١٨٣٨ كتب قائد الجيوش البريطانية - وقاهر "نابليون" - اللورد "ولنجتون" تقريرا إلى اللورد "بالمرستون" يقول فيه ملخصا أحوال الشرق الأدنى كما يلى :

"فى هذا العام نشبت أزمة خطيرة بين مصر وتركيا نتيجة لتناقضات وصراعات سببها وإلى مصر . فقد استطاع "محمد على" فى عشر سنوات أن ينشئ أسطولا وجيشا يفوقان كل ما يحتاجه للضرورات الشرعية لحكومته . واستطاع بتصرفات متسمة بالطغيان والاضطهاد ضد شعبه أن ينشئ جيشا فى حجم ليس له ما يبرره . فقد جند مائة ألف رجل وحشدهم ضد سيده الخليفة العثمانى ، ورمى جانبا قناع الولاء الذى يتظاهر به ، وأعلن أمام قناصل الدول فى مصر أنه يريد إعلان استقلال مصر ، كما أنه يطالب بضم سوريا . ونجح "محمد على"

فعلا فى أن يشن حربا ناجحة ضد الخلافة ، وتقدم بجيوشه حتى "نصيبين" على الحدود التركية السورية . ولم تقتصر قوة "محمد على" على جيشه البرى ، وإنما تمكن أسطوله أيضا من هزيمة الأسطول التركى . وخاف قائد الأسطول التركى بعد هزيمته أن يعود إلى استانبول ويلقى عقابه ، وهكذا قرر بعمل من أعمال الخيانة أن ينضم بجيشه إلى دكتاتور مصر المنتصر ، وأخذ أسطوله إلى الإسكندرية ووضع سفنه ـ وعليها عشرون ألف بحار ـ تحت تصرف "محمد على" . إن هذه الأوضاع تتطلب تصرفا سريعا من الحكومة الإنجليزية كما تتطلب تدخلا عاجلا يتكفل بإعادة "الباشا" الذى يتصور نفسه لا يقهر إلى عقله و إلى الخضوع والطاعة للسلطان ."

إن "بالمرستون" لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا لكى يقتنع بضرورة العمل وبأسرع ما يمكن أمام القوة الجديدة البازغة فى مصر . وكان أكثر ما ضايقه أن "محمد على" بأسطوله المصرى الأصلى ، وبالأسطول التركى الذى انضم إليه ، يمكن أن يصبح قوة مؤثرة فى البحر الأبيض وحول شواطئه ، فهو يستطيع إنشاء دولة عربية قوية فى مصر ، أو يستطيع أن يزحف إلى استانبول لتجديد شباب الخلافة العثمانية ، وفى الحالتين يخلق قوة تتصدى للمحاولات الأوروبية لاقتسام تركة العثمانيين ، وهذه كلها أمور لم تكن السياسة الإنجليزية على استعداد لقبولها . وهكذا نشط "بالمرستون" يحشد تحالفا ضد "محمد على" تنضم فيه إلى إنجلترا كل من روسيا والنمسا وبروسيا . وكان أن أعلن هذا التحالف فرض حصار على الموانى المصرية وعلى موانى الشام . وفى أجواء الحصار بدأ العملاء السريون لبريطانيا يثيرون الفتن بين الطوائف والأقليات فى الشام مستغلين الظروف الاقتصادية التى نتجت عن الحصار، خصوصا وأن أسطول "محمد على" (المصرى والتركى) تعرض لغارة بحرية ساحقة فى خليج "نافارينو" . وكانت الخطوة التالية هى قيام الأساطيل الإنجليزية والروسية والنمساوية والبروسية بتركيز مدافعها على مواقع وطرق مواصلات جيوش "محمد على" فى الشام ، حتى يضطر إلى التراجع أو تنقطع قواته فى الشام عن قواعدها فى مصر !

□

فى هذه الظروف بدت هزيمة "محمد على" محققة ، وأصبح محتما عليه أن ينسحب من سوريا ويدعم موقعه فى مصر إذا استطاع[٢] . وكان الموقف فى الشرق الأدنى كله معقدا.

---

(٢) بعد نحو قرن ونصف قرن من الزمان كان "جمال عبد الناصر" أمام تجربة مشابهة فى خطوطها العامة لذلك الموقف الذى واجهه "محمد على" ، وذلك عندما تكاتفت قوى عديدة دولية وإقليمية على ضرب تجربة الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١ .

وكانت ورقة "نابليون" اليهودية تطرح نفسها بإلحاح مستمر على السياسة الإنجليزية فى هذه المنطقة الواقعة فى قلب العالم . وتداخلت العناصر والاعتبارات حتى أصبحت معضلة ، فـ "بالمرستون" لا يريد موت الرجل المريض الآن ، كما أنه لا يريد له العافية في نفس الوقت. ويلخص الزعيم الصهيونى "ناحوم سوكولوف" هذه المعضلة فى مذكراته على النحو التالى بالنص :

١ - إن السلطان وحده وبغير مساعدة لا يملك القوة الكافية للاحتفاظ بسوريا .

٢ - إن مصر لا حق لها في سوريا إلا إذا خشيت من خطر يجيء إليها عن طريق تركيا.

٣ - إن مصر لها الحق فى الاستقلال إذا استطاعت أن تحصل عليه .

٤ - ولكن عودة سوريا لتكون جزءا من تركيا سوف تظل باستمرار تهديدا لمصر .

٥ - وإذا ظلت سوريا جزءا من مصر فذلك سوف يجعل تركيا غير آمنة .

٦ - وإذا أحست تركيا بعدم الأمان فذلك سوف يهدد السلام في أوروبا ، ونتيجة لذلك فمن الضرورى إنشاء كيان عازل يفصل بين مصر وتركيا ويبقى كلا منهما فى مكانه ويمنع أيهما من أن يصبح أقوى مما ينبغى !!"

ويستطرد "سوكولوف" من هذا السياق إلى أن تلك كانت الفرصة الذهبية أمام الحركة اليهودية لكى تملأ هذا الفراغ وتطالب "ببعث إسرائيل من جديد" ، فهذا هو الحل للمشكلة اليهودية ، وجزء من الحل بالنسبة للمسألة الشرقية لأنه يؤجل طرح مسألة خلافة الدولة العثمانية إلى موعد لاحق يكون الجميع قد استعدوا له !

وكان ذلك تقريبا هو المنطق الذى تبناه رئيس وزراء بريطانيا اللورد "بالمرستون" . ففى ١١ أغسطس ١٨٤٠ كتب إلى سفيره فى استانبول اللورد "بونسونبى" بتعليمات جاء فيها ما يلى :

"عليك أن تقنع السلطان وحاشيته بأن الحكومة الإنجليزية ترى أن الوقت أصبح مناسبا لفتح أبواب فلسطين أمام هجرة اليهود إليها . لقد حان الوقت لكى يعود هذا الشعب المشرد إلى أرضه التاريخية . إن السلطان وحاشيته قد لا يقتنعان بهذا المنطق الأخلاقى ، ولذلك عليك أن تجعلهما يدركان أن اليهود فى العالم يملكون ثروات ضخمة ولديهم كنوز من المال وفيرة . وإذا حصلوا على حماية السلطان فسوف يكون فى مقدوره أن يقنعهم بمساعدته ، وهم بلا شك سوف يقدرون عطفه عليهم .

عليك أن تذكر السلطان وحاشيته بأنه يقوم الآن بين اليهود المبعثرين فى كل أوروبا شعور قوى بأن فرصتهم فى العودة إلى فلسطين آخذة فى الاقتراب . ومن المعروف جيدا أن يهود أوروبا يمتلكون ثروات كبيرة ، ومن المؤكد أن أى قطر يختاره اليهود ليستوطنوا فيه سوف يحصل على فوائد عظيمة من ثروات هؤلاء اليهود . فإذا عاد الشعب اليهودى تحت حماية ومباركة السلطان إلى فلسطين فسوف يكون ذلك مصدر ثراء له، كما أنه سوف يكون حائلا بين "محمد على" أو أى شخص آخر يخلفه وبين تحقيق خطته الشريرة فى الجمع بين مصر وسوريا وتهديد الدولة العلية .

وحتى إذا لم يؤد هذا التشجيع الذى يمنحه السلطان لليهود إلى استيطان أعداد كبيرة منهم فى فلسطين ، فإن اصدار قانون يعطيهم حق الاستيطان سوف يعمل على نشر روح من الصداقة تجاه السلطان بين جميع يهود أوروبا ، وسوف ترى الحكومة التركية على الفور أنها كسبت أصدقاء أقوياء ومفيدين بقانون واحد من هذا النوع ."

وفى رسالة تالية بتاريخ أول ديسمبر ١٨٤٠ يكتب "بالمرستون" إلى سفيره فى استانبول "أن يسعى لاقناع حاشية السلطان والسلطان نفسه بأن "محمد على" قد يحاول مرة أخرى ، وإذا تركت له الفرصة فإنه سوف يعود مرة أخرى إلى دمشق ويعلن فيها تأسيس خلافة جديدة تعيد ذكريات الخلافة الأموية ، ويدعو العرب منها إلى إنشاء إمبراطورية كبيرة تجمعهم وتؤثر على الموازين فى الشرق الأدنى والبحر الأبيض ، وسوف تتكفل هذه الإمبراطورية إذا قامت بتهديد تركيا وربما إنهاء وجودها كدولة . والحل السريع الممكن هو إقامة عازل بين الدولة العثمانية وبين طموحات "محمد على" أو خلفائه ، وعلى السلطان وحاشيته أن يدركا أن مطامع "محمد على" لا تقتصر فقط على شرق البحر الأبيض وإنما تمتد مطامعه أيضا إلى البحر الأحمر وحتى عدن لكى يؤكد سيطرته الإمبراطورية . إن العازل الذى يمكن التفكير فيه هو توطين اليهود فى فلسطين ، لأن ذلك يجعل منهم شوكة فى خاصرة "محمد على" تمنعه من تهديد تركيا من ناحية ، كما تردعه عن العربدة فى البحر الأحمر كما يحلم . إن الحكومة الإنجليزية سوف تكون مستعدة إذا ما قبل السلطان بمشورتها أن تضع المستعمرات اليهودية فى فلسطين تحت حمايتها لكى يكون ذلك تحذيرا دائما لـ "محمد على" حتى يرتدع عن تهديد الدولة العلية ."

ثم يعود "بالمرستون" بعد شهرين فيكتب إلى سفيره فى تركيا :

"عليك أن تلح على السلطان أنه سوف يستفيد فائدة كبرى إذا ما قام بإغراء وتشجيع اليهود المبعثرين فى أوروبا بالذهاب والتوطن فى فلسطين . إن السلطان سوف يدرك أن اليهود في فلسطين سوف يطلبون نوعا من الأمان الحقيقى والملموس ، ولا ترى الحكومة الإنجليزية مطالبته بأن يتحمل عبء هذا الأمان، ولذلك فنحن نقترح أن يكون فى استطاعة هؤلاء اليهود أن يعتمدوا على حماية إنجلترا، وأن يكون من حقهم أن ينقلوا شكاواهم إلى الباب العالى عن طريق السلطات الإنجليزية."

ومن المثير للتأمل أن عدد اليهود في فلسطين فى ذلك الوقت كان ٣٢٠٠ نسمة .

كانت لندن تمشى على خطا باريس ، وكان "بالمرستون" يقتفى أثر "نابليون" .

ومن سوء الحظ أن الذين يعنيهم الأمر فى المنطقة لم يكونوا واعين لما يدبر لهم .

٥

بالمرستون

" بريطانيا تريد جمهورية يهودية ،
وفرنسا يجب أن تصر على مملكة مسيحية
عاصمتها القدس "

(الشاعر الفرنسى "ألفونس دى لامارتين"
فى خطاب أمام مجلس النواب الفرنسى)

فرضت القوى الأوروبية على "محمد على" (باشا) بعد هزيمة سنة ١٨٤٠ معاهدتين ، أولاهما خاصة بحقه فى ولاية مصر ووراثتها فى خلفائه من بعده ، وكانت أهم بنودها ثلاثة بالترتيب التالى :

١ - وقف عملية التصنيع الكبيرة التى كان مندفعا إليها .

٢ - تقليص حجم الجيش المصرى إلى الحد الكافى لحفظ الأمن داخل مصر .

٣ - فتح مصر للتجارة الدولية بدون عوائق أو قيود .

وأما المعاهدة الثانية التى فرضت عليه ، فقد كان غريبا أن يكون عنوانها "معاهدة لندن لتهدئة الأحوال (Pacification) فى سوريا" . وكان ظاهر نصوصها تحقيق خروج "محمد على" من سوريا . وفى حقيقة الأمر فقد كانت هذه هى المعاهدة التى تمهد المسرح لهجرة يهودية واسعة إلى فلسطين ، ولتحقيق المطلب الأساسى فى إرث ممتلكات الخلافة العثمانية فى الشرق ، وبالتحديد فى تلك الزاوية الاستراتيجية الهامة المحيطة بشرق البحر الأبيض والتى تمثلها مصر وسوريا .

وفى هذه المرحلة فإن المذكرات الشخصية للساسة فى خلوتهم تكشف من الحقائق أكثر مما تكشفه أوامرهم إلى سفرائهم ووزرائهم . وربما أن مذكرات اللورد "شافتسبرى" ــ صهر رئيس الوزراء "بالمرستون" وأقرب الأصدقاء إليه ـ هى فى ذلك الوقت من أكثر الوثائق تعبيرا عن النوايا والخطط والتحركات . ويوم ٢٤ أغسطس ١٨٤٠ كتب اللورد "شافتسبرى" فى مذكراته ما يلى :

"افتتاحية جريدة التايمز التى فرغت من قراءتها الآن تثير مخاوفى ، كما أنها تسعدنى فى نفس الوقت . تقلقنى لأنها قد تكون كشفا مبكرا عما نريد تحقيقه ، وقد يكون فى ذلك ما يستعدى قوى وعناصر كثيرة ضد المشروع فى وقت لا يزال فيه هذا المشروع يحتاج إلى جهد كبير لتعزيز إمكانية وفرصة تنفيذه . لكنها تسعدنى من ناحية أخرى لأنها تتحدث بصراحة عن أن اتفاقية لندن لتهدئة الأحوال فى سوريا تمهد الطريق لعودة اليهود إلى وطنهم فى فلسطين ، وهذا انتصار لأفكار وخطط ناقشناها واقتنعنا بها .

قال لى بالمرستون إنه كتب إلى اللورد بونسونبى ـ سفيرنا فى استانبول ـ يطلب إليه أن يفتح خطا مباشرا مع رشيد باشا لكى يبذل جهده مع السلطان فى إقناعه بتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين ، وفى طمأنته إلى قدرتنا على حمايته هناك ."

وفى يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٤٠ كتب اللورد "شافتسبرى" فى مذكراته يقول :

"بدأت فى إعداد مذكرة لبالمرستون عن مشروعنا . لاحظت أننى استعملت كلمة "استدعاء (recall) اليهود إلى وطنهم" ، ويخطر لى أن كلمة "استدعاء" قد تكون قوية بأكثر مما هو لازم، ومن الأفضل تغييرها إلى كلمة "السماح" (permission) . إن من المهم جدا أن يكون لدى رئيس الوزراء مخطط واضح للعمل .

مقالة التايمز اليوم ممتازة ، فهى تتحدث عن مشروعنا لزرع الشعب اليهودى فى أرض آبائه تحت حماية القوى العظمى الخمس ."

□

وفى ٥ أكتوبر ١٨٤٠ يكتب اللورد "شافتسبرى" فى مذكراته فيقول :

"نحتاج إلى معلومات أكثر حول عدد من المسائل المهمة فيما يتعلق بعودة اليهود إلى فلسطين :

١ ـ ما هو شعور اليهودى العادى تجاه مسألة العودة إلى الأراضى المقدسة ؟

٢ ـ هل يمكن أن يعود إلى فلسطين هؤلاء اليهود الذين يملكون ثروات وعقارات ، وهل سوف يحملونها معهم إلى هناك ؟ وكيف يتصورون إمكانية توفيرالحماية لهذه الأموال والممتلكات ؟

٣ ـ فى أى مدى زمنى يستطيع اليهود أن يعودوا إلى فلسطين ؟

٤ ـ هل يعودون على نفقتهم دون حاجة إلى أى شئ آخر سوى حماية الأشخاص والممتلكات؟

٥ ـ هل يرضون بأن يعيشوا تحت قوانين الدولة التى تحكم فى الأرض المقدسة كما يجدونها مع توفير ضمان دولى لهم تقدمه الدول الأوروبية ؟

إننا نحتاج إلى إجابات عن هذه الأسئلة لكى نستطيع أن نمشى فى مشروعنا بخطى واقعية ثابتة ."

كان مجمل الظروف فى أوروبا ذلك الوقت يجيب فى الواقع على كل الأسئلة التى طرحها اللورد "شافتسبرى" فى يومياته . وقد تعرض لها اللورد "ليندساى" فى مذكراته عن رحلاته إلى مصر والأراضى المقدسة . ويمكن استخلاص ما توصل إليه فى عدة استنتاجات تظهر واضحة فى تقرير بعث به إلى رئيس الوزراء "بالمرستون" ، ويمكن ترتيبها على النحو التالى :

١ ـ إن الأرض المقدسة ليست فيها قاعدة يهودية كافية تستطيع أن تتحمل عبء هجرة يهودية مؤثرة ، على فرض أن هذه الهجرة كانت جاهزة .

٢ ـ إن يهود الشرق (يهود مصر وسوريا وتركيا بالدرجة الأولى) ليسوا متحمسين للعودة إلى فلسطين ، ويخشون أن كثرة الحديث عن هذه العودة سوف تعرضهم حيث هم لمشاكل لا قبل لهم بها .

٣ ـ إن غالبية بين اليهود لا تريد أن تذهب إلى فلسطين لكى تجد نفسها تحت حكم إسلامى يتمثل فى دولة الخلافة التى استعادت الحكم فى سوريا بعد هزيمة "محمد على" .

٤ ـ إن الاستعداد للهجرة يمكن أن يقتنع به يهود الشرق (شرق أوروبا) ، ولكن اقتصار الهجرة عليهم سوف يجعل من فلسطين "جيتو" آخر (أى حارة أو حى يهودى آخر) من اليهود الشرقيين تحت حكم استانبول .

٥ ـ إن اليهـود الأقـرب إلى تقبـل فكـرة الهجـرة هـم مـن الشـيوخ الذيـن أتيحـت لهـم قراءة "الـتلمود" ودراسته ، وأما شباب اليهـود فإن اتجاههـم يـنزع عمومـا إلى الاندمـاج فـى المجتمعات التى يعيشـون فيهـا الآن ، وحيـث ألفـوا معيشـتهم ، وحيـث يـأملون أن يـؤدى اندماجهم في هذه المجتمعات إلى ممارسة حياتهـم مستقبلا دون تمييـز ضدهـم أو اضطهاد .

٦ ـ إن اليهود عموما ـ شيوخا وشبابا ـ لا يعرفون ما فيه الكفاية عن فلسطين ، وليسوا واثقين من أن أحوالها تسمح لهم باسـتيطانها ، وهـم فـى أغلبهـم يعتـبرون أن أرض صهيـون الجديدة هى أمريكـا وليست فلسطين .

٧ ـ إنه لاحظ أن كثيرين من حاخامات اليهود أنفسهم ، على عكس أغنياء اليهود فـى أوروبا، ليسوا متحمسين لعودة اليهود إلى فلسطين . ومن منظورهم التوراتى فإن هذه العودة لا يمكن أن تبـدأ الا بظهور المسيح المخلص الذى يتولى قيادة شعبه إلى هناك . وهذا المسيـح لـم يظهـر بعد .

٨ ـ إنه يخشـى أن كثرة الحديث عن العودة الآن قد تنبـه أطرافا فـى دولـة الخلافـة ، وتدعوها إلى مقاومـة المشـروع فى وقـت لم يستكمل فيه أسباب قوتـه .

٩ ـ إنه من ناحية عملية لا يوجـد تنظيم يهودى يسـتطيع أن يقـود شعبـه إلى هذه العـودة . وبالتالى فقد يكون من الأفضل لنجاح المشروع أن ينتظر ظروفا أفضل من الظـروف الحالية ويكون اليهود فيها قـد أنشـئوا تنظيمهـم ومؤسسـاتهم التـى تتحمـل بمسـئولية عمليـة العـودة.

ومن المفارقات أن تعليـق رئيس الوزراء البريطانى على هذا التقرير كان قـولـه طبقا للـورد "شافتسـبرى" :

> **"يظهر أنه من السهـل أن نقتلع اليهـود من الـ "جيتـو" (حـارة اليهـود) ولكنـه ليس من السهل أن نقتلع الـ "جيتـو" من اليهـود ."**

□

وكانت فرنسـا تتابـع عن بعـد مشروعات وخطـط "بالمرسـتون" . فبـاريس ــ حتـى بعـد هزيمة "نابليون" ـ ما زالت تجـتر بعض خططه فى المشرق على الأقل فى كلامهـا ، كما أنهـا فى مرحلة من المراحل وقفت وراء "محمـد علـى" وأيدتـه . وربما أخطـر من ذلك فإن فرنسـا لم تكن نسيت كل أحـلام الحـروب الصليبية ، لكنها وهى تتابـع جنحـت مشـاعر كثـيرين فيها ـ ولو بمجرد العـداء لبريطانيا ولكل شـىء تقوم به ـ إلى سياسة مختلفة . وكتـب السـفير الإنجليزى فى باريس إلى رئيس الوزراء "بالمرستون" خطابـا يقـول لـه فيـه :

"هناك مشاعر بالشك تتزايد فى باريس إزاء مشروعات إنجلترا فى الشرق الأدنى . وشهد مجلس النواب الفرنسى مناقشات حادة حول هذا الموضوع . ومن بين الذين تكلموا فيه المسيو "لامارتين" (يقصد الشاعر الشهير "ألفونس دى لامارتين" ، وكان فى ذلك الوقت عضوا فى مجلس النواب الفرنسى) . إن المسيو "لامارتين" وقف يقول : "إنه من الأولى لفرنسا أن تفكر فى إقامة دولة مسيحية على منابع الأردن شاملة لجبل لبنان بشرط أن تكون القدس عاصمتها . وإذا استطاعت فرنسا أن تحقق هذا الحلم فإن ذلك يكفيها مجدا وعظمة عن أى بقعة أخرى فى الأرض . إن اللورد بالمرستون يفكر فى إقامة جمهورية يهودية ، فلنطلب إليه أن يختار مكانا آخر يحقق فيه ما يحلم به . ولكن فرنسا يتحتم عليها أن تسعى وأن تصمم على قيام مملكة مسيحية عاصمتها القدس ." !

كانت هذه التصورات كلها بذورا تحملها الرياح إلى منطقة سواحل شرق البحر الأبيض ووديانه وسهوله ، وشعوبه وممالكه .

- من ناحية كانت هذه بذور استراتيجيات إمبراطورية ــ اقتصادية سياسية عسكرية ــ استخدمت كل شىء حتى الأساطير الدينية .

- ومن ناحية أخرى كانت هذه بذور "مقدسات : محرمات" سوف تنشأ يوما إذا استيقظت المنطقة وعادت طرفا فى صنع التاريخ ، وليس لعبة فى يد هؤلاء الذين يعطون للقوة حقا وحيدا فى صنعه !

إن أهل المنطقة المعنية : مصر وسوريا وفلسطين ، لم يتصل بهم أحد فى ذلك الوقت ولا سمع رأيهم ، ولم يفاوضهم طرف أو يشركهم فى رسم الخرائط وتخطيط الحدود.

فالرياح فى العادة لا تسأل الأرض التى تلقى عليها أحمالها من البذور ـ أو غيرها مما تحمله ـ عن شعورها أو فكرها أو مطلبها ، وإنما هى قوة واحدة عاتية ترمى بما عندها ، وأرض رخوة موحلة تتلقاه سواء أرادت أو لم ترد !

وكانت تلك هى البداية لاستراتيجية عظمى ، شديدة البأس ، بعيدة النظر ، ترسم لنفسها ما يناسب هواها !

الفصـــــل الثـانى

خريطـة تبحـث عـن أرضهـا !

" إذا كان من الخـطـأ
تصويــر التاريـخ وكأنــه مؤامــرة ، فالأشـد تـورطـا فى
الخـطـأ تصويـــره وكأنــه مصـــادفـــة "

١

روتشيلـــــد

" أنـتم طردتـم محمـد علـى مـن الشــام
ولكنكم تركـتم وراءه فراغـا لم يمـلأه أحـد "

(البارون "روتشيلـد لرئيس وزراء بريطانيا)

من الصعب نسبة استراتيجية كاملة لإمبراطورية بأسـرها إلى عنصـر واحـد أو إلى مطلـب بعينه . فمن الطبيعى أن العناصر تتعدد وتتقابل وتتقاطع بحيث يخرج منها تصور إستراتيجى واسع تتواصل عملية ترتيبـه على مراحل تتفاعـل مع متغيرات الظروف . وبالتـالى فإنـه مـن التعسف افتراض أن الهـدف الوحيد للسياسة البريطانية فى المشرق كـان تحقيـق الفصـل بـين مصـر وسوريا، وزرع وطـن قومى لليهود فاصـلا بينهما عند نقطة الاتصال بين ضلعـى الزاويـة الاستراتيجية الكبرى فى جنـوب شـرق البحـر الأبيـض .

كـانت هنـاك عنـاصر أخـرى بالتـأكيد ، منهـا مطــالب تأمــين خطــوط المواصــلات الإمبراطوريـة مع الهنـد ، ومنها مطالب السيطرة على طـرق التجارة البحرية ، ومنها مطالب الصراع على البحر الأبيـض والبحر الأحمـر ، ومنها مطالب لنــدن فـى تأكيـد مركزهـا المـالى والتجارى الحاكـم . ومع ذلك فإن هذه المطالب كلها ، وهى حقائـق واقعـة ، لا تنفــى أنـه فى تلك الفـترة من منتصف القرن التاسع عشـر كان فصـل مصـر عن ســوريا ــ وإنشـاء عـازل بينهما ـ مطلبا من أهـم وأعـز مطالب السياسة البريطانية . وهذه عملية تواصلت خطاها ظاهرة وواثقة على خـط ممتـد من معاهدة لنـدن سنـة ١٨٤٠ وحتــى صــدور "وعــد بلفــور" سنــة ١٩١٧ .

وفى أعقاب توقيع معاهدة سنـة ١٨٤٠ مباشرة كانت الخطوة البريطانية الأولى هى تمهيد الأرض فى سوريا أخـذا فى الاعتبار أن فلسطين فى ذلك الوقــت كـانت بأكملهـا ولايـة مـن ولايـات الشــام .

وكانت أول حركة قام بها رئيس وزراء بريطانيا "بالمرستون" هى إرسال منشور سـرى إلى كل قناصل إنجلترا فى دمشق وحلب والقدس وبيروت وحيفا يقول فيه بالنص ما يلى :

"إننا خرجنا بعد هزيمة محمد علـى وإخراجه من الشام (Levant) ونحن والأتراك حليفان وبيننا تعاون لا بد أن نحرص عليه ، ونحن لن نخذلهم فى أمره . ولكن ذلك لا يجب أن يمنعنا من تنفيذ ما تقتضيه سياساتنا فى المنطقة .

إن الأتراك يعرفون ما ينبغى عليهم عمله تجاه اليهود فى هذه المنطقة ، ولكنه من المتعين علينا أن نتابع ذلك بجهد منظم هدفه أن نتأكد من أن اليهود لا يتعرضون هناك لأى تمييز ضدهم أو اضطهاد . ونحن مطالبون الآن بأن نجعل اليهود يثقون بنا ، وأن يتأكدوا أن حكومة إنجلترا تعتبر نفسها مسئولة عن سلامتهم وراغبة فى حمايتهم ومصممة على ذلك .

إننى أرى أنه من الضرورى أن يكون هذا التعهد معروفا لكل اليهود فى الشام ، بمن فى ذلك اليهود من رعايا دول أخرى غير إنجلترا . ولا بد أن يعرف اليهود النمساويون أو الفرنسيون ، أو الأوروبيون بصفة عامة ، أنه يحق لهم أن يلجئوا إلى القنصل البريطانى لحمايتهم فى حالة تقصير قناصل دولهم الأصلية عن توفير هذه الحماية . فكلهم يجب أن يستقر فى وعيه أن إنجلترا هى حامية اليهود ."

وبالفعل فإن توجيهات "بالمرستون" ـ كما وردت فى منشوره ـ بدأ تنفيذها فى الشام بهمة استدعت أن يقوم حاخام القدس ـ باسم سكانها اليهود ـ بإرسال حجاب واق من الشر إلى الملكة "فيكتوريا" ، وقد سلم لها الحجاب فعلا سنة ١٨٤٩ ، وجرى ذلك فى أعقاب مؤتمر يهودى صغير عقد فى لندن برعاية عائلة "روتشيلد" ، وانتهى إلى إعلان مطلبين :

١ ـ إعلان قبول "يهود العالم" ـ !! ـ للحماية الإنجليزية لهم حيثما كانوا .

٢ ـ التوجه بالرجاء للحكومة الإنجليزية بأن تسهل لليهود استعمار فلسطين على نمط ما يحدث فى مناطق أخرى .

وكان المقصود بهذه الاشارة إلى "مناطق أخرى" هو حركة الاستيطان الأوروبى الدائرة وقتها على قدم وساق فى جنوب أفريقيا وأستراليا وكندا . فقد كان ذلك عصر الهجرات الاستيطانية المسلحة ، وكان اليهود يطلبون المعاملة بالمثل فيما يتعلق بفلسطين .

ويكتب اللورد "شافتسبرى" فى مذكراته :

"ذهبت ومعى البارون روتشيلد لمقابلة بالمرستون . وكان روتشيلد مؤثرا إلى أبعد درجة وهو يقول لبالمرستون مشيرا إلى خريطة كانت أمام رئيس الوزراء :

"إنكم طردتم محمد علـى من هنــا" (مشيرا إلى الشـام ــ Levant) "ولكنكم تركتـم بعده فراغا . إن الأتراك عادوا إلى الشام بعد رحيل محمد علـى ، وكل الناس يعرفون أن السلطان مهزوم وأنه ما كان يستطيع العودة إلى دمشق إلا بفضل قوتكم . ولذلك فحكمه في الشام ضعيف ، والأحوال فوضى ، والطوائف تتنــاحر ، وهنـاك فـراغ لا شك فيه" . ثم وصل روتشيلـد إلى الذروة الدرامية فى حديثه حين قال لرئيس الوزراء : "إنكم خلعتم من هنا قـوة شريـرة ، لكنهـا كـانت مسيطرة وقـادرة على ضبط الأمور . والآن يتحتم عليكم أن تضعوا بدلا من ذلك قـوة أخرى تسيطر وتضبط الأمور ولا تكون شريرة .... وطـن قومـى لليهود" ."

□

كان رئيس وزراء بريطانيا يتلقى تقارير عن الأحوال في سوريا مـن مصـادر مختلفـة كـان بينهـا السـير "موسـى مونتيفيـورى" ، وهـو شـخصية بريطانيـة معروفـة فـى ذلـك الوقت بنشاطهـا فى مجال الجمعيات الخيرية . وقد تكررت رحلاتـه إلى الشـرق ، بمـا فيهـا سبـع زيارات لفلسطين. وكان الهـدف الواضح لاهتمام "مونتيفيورى" بالشرق هو العمـل علـى فتح أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين ، متأثرا فى ذلك الوقت بمناخ عام اتسع تأثيره فى لنـدن .

وفى أول زيارة لـ "مونتيفيـورى" إلى المنطقـة ، سنحت لـه الفرصـة لأن يقـابل "محمـد علـى" (باشا) فى مصـر وأن يتحدث إليه فى موضوع هجـرة اليهـود إلى فلسطـين ، وكـانت فى ذلك الوقت تحت حكمـه ... ولايـة من ولايات سوريا . وكان رد "محمـد علــى" ــ طبقا لكتابات "مونتيفيورى" ولليوميات المنظمة التى كانت تكتبها زوجته ـ : "إنه شـخصيا يتفهـم ما يسمعه من السير موسـى (مونتيفيورى) ، ويتعاطف مع ما يعانى منه اليهـود فـى أوروبـا ، لكن القرار فى شأن فتح أبـواب فلسطين لهجرة اليهود إليها هو أمـر يتصـل بسـلطة الخليفـة العثمانى ."

ويمكن استنتاج أن والى مصـر الذكـى راودتـه الشكوك حـول حقيقـة مـا يعـرض عليـه ودوافعه الخفية . وبالتالى فإنه أحال الأمـر ـ عكس تصرفه فى مسائل كثيرة ـ إلى الباب العالى فى استانبول . لكنه ليس هناك دليل قاطع فى كل وثائق تلك الأيام علـى أن "محمـد علـى" رأى القصد مبكرا ، وحاول أن يتوقاه محيـلا قراره إلى استانبول .

وبعد هزيمة "محمد علـى" فإن "مونتيفيورى" وغـيره لم يعـد أمـامهم غـير التركيز على لنـدن ، خصوصا وأن أبواب استانبـول أصبحت مواربة ، لا هــى مقفولـة ولا هـى مفتوحـة ، لأن الضغوط اليهودية حاولت أن تستغـل هزيمة "محمد علـى" وتدفع بموجات هجــرة مؤثـرة من أوروبا إلى فلسطين . وذلك أدى إلى إحـراج السلطـان الذى عـاد إلى دمشـق ضعيفـا ــ كمـا

وصفه "روتشيلد" فى حديثه إلى "بالمرستون" ـ وبسبب هذا الضعف فإن السلطان وقع تحت ضغوط عناصر فى بلاطه تتخوف من هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق واسع ، وكانت وراء هذه الضغوط ايحاءات إسلامية ، كما كان وراءها تأثير علاقات بين رجال بلاطه وبين كثيرين من الحكام والعلماء العرب والمسلمين فى الشام نفسها .

وعاد "مونتيفيورى" من إحدى رحلاته إلى المنطقة ليقابل "بالمرستون" ويقول له (طبقا لمذكرات ليدى "مونتيفيورى") : "إنه لاحظ أثناء زيارته لاستانبول أن حماسة الباب العالى لليهود بردت تحت تأثير عناصر متعصبة تحيط به . وقد حاولت إفهامهم أنه لا داعى لقلقهم ، فليس كل يهودى على الأرض مستعدا للذهاب إلى فلسطين أو راغبا فى ذلك . وبالتالى فليس للسلطان أن يخشى من ظهور ملايين من اليهود على شواطئ فلسطين . إن ما نريده أبسط من ذلك وأهون. فنحن لا نريد إلا أن يكون اليهود ــ مثلهم مثل الإنجليز والهنجاريين والألمان واليابانيين ـ أصحاب بلد يمكن أن يصبح ملكا لهم ، وعاصمته هى القدس ."

ومع مطالع الخمسينات من القرن التاسع عشر كانت الحمى اليهودية فى إنجلترا قد بلغت مداها ، فى تناسق وتناغم ملحوظين مع موسيقى المارشات العسكرية التى ترافق التوسع الإمبراطورى البريطانى عبر البحار . وفى هذه الفترة نشر الدكتور "توماس كلارك" ، وهو أحد أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة "أكسفورد" ، كتابه الشهير بعنوان "فلسطين لليهود" . وترافق ذلك مع نشر المجموعة الكاملة للأغانى العبرية التى كتبها الشاعر الإنجليزى الكبير اللورد "بايرون" ، وذاعت بينها قصيدة جديدة تقول :

"اطلع أيها الإلــه العظيم ودع قدرتك تتجلى
وارسل أشعتها مضيئة ودافئة على أبناء يعقوب
وأعد فلولهم التائهة إلى أرضهم الموعودة هناك
واهدهم لكى يذهبوا إلى فلسطين فهى وطنهم"

لم يكن الساسة المنهمكون فى بناء الإمبراطورية من أمثال "بالمرستون" ، أو الرأسماليون اليهود الراغبون فى تصدير يهود الشرق إلى فلسطين للتخفيف عنهم من أمثال "روتشيلد"، ولا العسكريون المطالبون بفصل مصر عن الشام وحجز القوة المصرية فى أفريقيا من أمثال "ولنجتون" ، ولا المحسنون من أمثال "مونتيفيورى" ، ولا الشعراء من أمثال "بايرون" ، هم وحدهم الذين يدفعون الأمور فى اتجاه فتح أبواب فلسطين أمام هجرة اليهود ، ولكن الحوادث نفسها راحت تزيد من ضغطها بما يساعد هذا الاتجاه . ففى تلك الفترة (١٨٥٤) قامت الحرب فى شبه جزيرة القرم ، وأدت معاركها إلى تدفق عشرات ألوف

من يهود البلقان مهاجرين ينشدون مساعدة أبناء دينهم فى أوروبا الغربية . وهكذا بدأت ضغوط الحوادث تضيف قوتها إلى ضغوط الاستراتيجيات الكبرى الإمبراطورية والعسكرية والمالية ، فضلا عن أحلام المحسنين وأوهام الشعراء .

كانت الحوادث أيضا قد دفعت إلى القمة فى بريطانيا بجيل جديد من الساسة الإنجليز لم يكونوا أقل حماسة للمخططات القديمة من أسلافهم . ففى ذلك الوقت راح يتناوب على رئاسة الوزارة فى إنجلترا اثنان من الساسة هما "جلادستون" - البروتستانتى - و"دزرائيلى" الذى كان أول وآخر يهودى يتولى رئاسة الوزارة فى بريطانيا . وكان كلاهما صهيونيا :

أولهما ("جلادستون") صهيونى بالمعنى المسيحى للكلمة . أى هؤلاء الذين يؤمنون دينيا بحرفية ما جاء فى العهد القديم عن "عودة اليهود" إلى فلسطين .

والثانى ("دزرائيلى") صهيونى بالمعنى اليهودى الذى أصبحت يهوديته - رغم إنجليزيته - جمرة تحت الرماد فى أعماقه .

وكان "دزرائيلى" الذى مارس فى بداية حياته هواية الكتابة والأدب ، قد أفشى مكنونات سره على ألسنة أبطال رواياته . فقد ورد على لسان أحد هؤلاء الأبطال مثلا قوله : "إن إنجلترا أكبر بكثير من أن يحولها بعض ساستها إلى مكتب محاسبات تجارى كبير .. إنجلترا لها قلب ولها ضمير ، ولهذا فهى تقف مع اليهود مدركة أن الله ذاته يحارب من أجل بعث إسرائيل ."

ولم يترك "دزرائيلى" جمرته تحت الرماد تتوهج على مواقف أبطال رواياته فقط ، وإنما ذهب يوما - طبقا لكتاباته - يقول لـ "جلادستون" - منافسه فى رئاسة الوزارة وقتها - وكانت قوافل اليهود اللاجئين من حرب القرم فى البلقان تصل إلى عواصم أوروبا الغربية - ما نصه :

"أريدك أن تعرف أن الدول التى أحسنت إلى اليهود هى وحدها التى تقدمت وازدهرت" .

ولم يكن الأمر بالنسبة للاثنين - "جلادستون" أو "دزرائيلى" - قاصرا على الإيحاءات الدينية فقط ، وإنما كان كلاهما استعماريا من الدرجة الأولى .

ثم إن كليهما فى ذلك الوقت بدأ يحس بالمنافسة مع فرنسا التى خرجت من دوامات الثورة الفرنسية وعواقب قيام إمبراطورية "نابليون" وسقوطها ، ومشاكل عودة "البوربون" ثم فشلهم ، إلى حكم "نابليون الثالث" الذى بدأ يستجمع خيوط دور فرنسى بدأت أصداؤه تسمع فى مصر بالتحديد .

كان "نابليون الثالث" هو الذى أعطى رعايته لمشروع حفر قناة السويس . وكانت زوجته الإمبراطورة "يوجينى" هى التى ركبت مع الخديو "إسماعيل" على السفينة المحروسة التى تقدمت قافلة العبور الأولى فى هذه القناة سنة ١٨٦٩ .

وبدا واضحا لكل من "جلادستون" و"دزرائيلى" أن النفوذ الفرنسى فى مصر يتزايد فى عصر الخديو "إسماعيل" . وكان ذلك صحيحا إلى حد كبير ، وإن لم يكن سببه قصدا فرنسيا بقدر ما كان سببا عمليا نشأ من حقيقة أن عشرات من المبعوثين إلى فرنسا فى عصر "محمد على" عادوا إلى مصر وراحوا يشغلون أهم المواقع فى إدارتها ، متأثرين بالطبع بكل ما تعلموه فى جامعات فرنسا ، وبكل مكتسبات ثقافتهم من الحياة فى باريس .

لكن "جلادستون" و"دزرائيلى" كليهما كانت له وجهة نظر ومقاصد وخطط أخرى ، تربط ما يجرى فى مصر بما يجرى فى الشام ، خصوصا وأن ذلك العصر شهد ــ أيضا ــ تدفق آلاف من نخب الشام الفكرية والفنية إلى مصر هربا من الاضطهاد العثمانى فى أوقات ضعفت فيها هيبة الدولة وسلطانها ، ومن ثم عوضت عن ذلك بالبطش والعنف .

ويلفت النظر هنا فيما تقوله الوثائق الفرنسية ــ أن "نابليون الثالث" ــ إمبراطور فرنسا - طلب من موارنة لبنان - وهم جزء من الشام - أن يساهموا قبل غيرهم فى أسهم شركة قناة السويس لأن لهم مصالح متشابكة مع مصر .

وفى هذه الأجواء فقد كان واردا ومحتملا لأسباب كثيرة ، عديدة ومتشعبة ، أن تعود صلات مصر بالشام فتتجدد على نحو أو آخر .

وعادت السياسات القديمة تمارس مطالبها بقوة دفع جديدة ، وتركز هذه المرة على مصر .

٢

دزرائيلـــــــــــى

" الذهـب جاهـز لإتمـام الصفقـة بأســرع مـا يمكـن "

(البارون "روتشيلـد" لـ "دزرائيلى")

إذا كان من الخطأ تصوير التاريخ على أنه مؤامرة ، فالأشد تورطا فى الخطأ تصويره على أنه مصادفة . والواقع أن التاريخ أفكار وخطط وإرادات أمم وشعوب وأفراد ، وصراعات مصالح وقوى تطلب التفوق والغلبة ، وتسعى للمعرفة سعيها للفائدة .

إن سلسلة الحوادث الكبرى التى وقعت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى مصر وحولها ، وبالذات فى فلسطين ، تصعب نسبتها إلى عبث المصادفات .

● سنة ١٨٧٥ قام "دزرائيلى" بمساعدة "روتشيلد" بشراء الحصة المصرية فى شركة قناة السويس . وبدأت القصة حينما عرف "هنرى أوبنهايم" - وهو مالى يهودى من دائنى الخديو "إسماعيل" - أن و إلى مصر يريد أن يبيع أسهمه فى شركة قناة السويس وأنه يبحث عن مشتر يأخذها سرا ويدفع ثمنها نقدا ، فهو يخشى أنه إذا عرف دائنوه برغبته مبكرا ، وإذا تم تحقيق هذه الرغبة بوسائل بنكية ، فإن هؤلاء الدائنين - وهم كثر - سوف يسبقونه بالحجز على ما قد يتحصل عليه من الصفقة . وسمع مالى يهودى آخر (وصاحب جريدة فى نفس الوقت) هو "جرينوود" بالقصة من "أوبنهايم" ، وكان أن توجه على الفور إلى وزير خارجية إنجلترا - اللورد "ديربى" وقتها - وأبلغه بما سمع ، وأخذه وزير الخارجية معه فورا إلى مكتب رئيس الوزراء "دزرائيلى" معتبرا أن هذه فرصة لإنجلترا تضع فيها موطئ قدم فى مصر .

وراح "دزرائيلى" يفكر بسرعة ، والمعضلة أمامه هى رغبة الخديو فى اتمام البيع سرا والحصول على الثمن نقدا . فهو من هذين الشرطين لا يستطيع أن يعرض الصفقة على البرلمان . ولم يطل تفكير "دزرائيلى" ، فقد وجد الحل بسرعة ، وبعث بسكرتيره الخاص اللورد "راوتون" ليجىء له بالبارون "روتشيلد" . وطلب "روتشيلد" من اللورد "راوتون" مهلة أيام يدبر فيها الأمر .

كان المبلغ المطلوب أربعة ملايين جنيه ذهبا ونقدا وعدا . وكان رئيس الوزراء يدرك أنه حتى "روتشيلد" لا يحتفظ بمثل هذا المبلغ جاهزا فى خزينته ، كما أنه لا يملك أن يتصرف فى هذا الحجم من المال دون اتفاق فروع الأسرة كلها (فى فرنسا وألمانيا) . وبرغم ذلك فإن "دزرائيلى" فوجىء فى الصبح التالى بوصول "روتشيلد" إلى مقره مبكرا يطلب ايقاظه من نومه ليبلغه أن "الذهب جاهز لاتمام الصفقة بأسرع ما يمكن" قبل أن يغير خديو مصر رأيه أو يتسرب سر الصفقة إلى آخرين .

وتدافعت أمواج متلاحقة فى مجرى قناة السويس فاضت على ما حولها عبر سيناء :

- سنة ١٨٧٧ ـ بعد ما لا يزيد كثيرا عن سنة واحدة من شراء بريطانيا حصة الخديو فى قناة السويس ـ كانت أسرة "روتشيلد" تمول إنشاء أول مستعمرة استيطانية لليهود فى فلسطين على مساحة ٢٢٧٥ فدانا ، وهى مستعمرة "بتاح تكفاه" .

- فى نفس السنة كانت الحكومة الإنجليزية تطلب من السلطان السماح لها بإنزال قوات عسكرية فى قبرص لأن تلك ضرورة عسكرية لمراقبة ما يجرى فى سواحل الشام عن بعد ، وذلك تطبيقا لاتفاقية "المساعدة" الإنجليزية التركية التى عقدت بعد انتهاء حرب القرم ، والتى تعهدت إنجلترا للسلطان بمقتضاها أن تحمى ممتلكاته الشرقية . وكانت قبرص هى الموقع المثالى لمراقبة ومتابعة ما يجرى فى كل من مصر وسوريا .

- وسنة ١٨٨٢ تذرعت الحكومة الإنجليزية بوجود قلاقل فى مصر (ثورة "عرابى") ، واتخذ مجلس الوزراء الإنجليزى قرارا يخول قائد القوات البريطانية اللورد "ويلسلى" باحتلال مصر وقمع الثورة العرابية . (وكانت التكأة التى استند عليها القرار البريطانى هى خروج "عرابى" باشا عن طاعة خديو مصر ومن ثم حقوق السلطان) .

- فى نفس السنة ـ سنة الاحتلال البريطانى لمصر ـ قام البارون "ادموند روتشيلد" بتنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين ، وبهذه العملية فإن تعداد اليهود فى فلسطين ارتفع من ثمانية آلاف إلى ٢٤ ألفا .

وفى نفس الوقت كانت أسرة "روتشيلد" قد بدأت فى جمع تبرعات ومساهمات طائلة لشراء أراض فى فلسطين ، وكانت الواجهة الظاهرة لهذه العملية مؤسسة للاستثمار فى الأرض الزراعية فى المشرق .

• يلفت النظر بشدة فى السنوات التالية مباشرة للاحتلال البريطانى ، حجم الزيادة التى طرأت على حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتسارع إنشاء المستعمرات للمستوطنين القادمين . وفى ظرف عشر سنوات من احتلال الإنجليز لمصر تم إنشاء المستعمرات التالية:

- مستعمرة "كاترا" على مساحة ٥٠٠ فدان .
- مستعمرة "ريشون ليزيون" على مساحة ١١٨٠ فدان .
- مستعمرة "روش بينا" على مساحة ٣٨٠٠ فدان .
- مستعمرة "زيشرون جاكوب" على مساحة ١٨٥٠ فدان .
- مستعمرة "وادى الشانين" على مساحة ١١٨٠ فدان .
- مستعمرة "ايكرون" على مساحة ١٢٧٥ فدان .
- مستعمرة "كاستينا" على مساحة ٥٥٠ فدان .
- مستعمرة "روهوبوت" على مساحة ١٣٠٠ فدان .
- مستعمرة "أرتوف" على مساحة ٤٦٠ فدان .
- مستعمرة "أم الديشمال" على مساحة ٢٥٣ فدان .
- مستعمرة "الشويحة" على مساحة ٨٥١ فدان .
- مستعمرة "معاليه" على مساحة ٩١٠ فدان .
- مستعمرة "مشمار هايردن" على مساحة ٢٣٠ فدان .
- مستعمرة "عين زيتون" على مساحة ٥٠٩ فدان .
- مستعمرة "ميتولا" على مساحة ١٣٥٠ فدان .
- مستعمرة "بن شيمن" على مساحة ٢١٠ فدان .
- مستعمرة "ملهامى" على مساحة ١٣٥٠ فدان .
- مستعمرة "عية" على مساحة ٢٧٥٠ فدان .
- مستعمرة "الخضيرة" على مساحة ١٧٥٠ فدان .
- مستعمرة "كيفار سابه" على مساحة ٤٦٠ فدان .

وإضافة إلى ذلك فقد ظهرت عشرات المستعمرات الأصغر حجما ، وكـان بينهـا مستعمرة "بـن يهـودا" علـى مساحة ٣٥٠ فدانـا ، وكـان موقعهـا فـى شـرق الأردن . أى أن خطـة الاستيطان اليهودى كانت تشمـل الأردن غربـا وشرقـا .

● سنـة ١٨٩١ أنشأ البارون "دى هـيرش" (مالى يهودى آخـر) بالتعـاون مـع البـارون "روتشيلـد" مؤسسـة للمشروعات الزراعية برأسمال قدره ٢ مليـون جنيـه استرلينى ، وشـارك فى المشروع مـالى يهـودى ثـالث هـو السـير "ارنسـت كاسـل" الـذى أبـدى اهتمامـا ملحوظـا بالمشروعات الزراعية فى مصـر ذاتهـا ، وأنشأ شركة "وادى كوم امبو" التى تملكـت مسـاحات شاسعة من الأراضى قـرب مدينة "كـوم امبـو" فى صعيـد مصـر .

ومن الظاهـر أن تسلسـل الوقائـع كان أكـثر تماسكا من أن ينسـب للمصادفـات .

□

وكان ذلـك هـو المسرح الذى ظهـر عليـه رجـل قـدر لـه أن يلعـب دورا كبـيرا فـى الحركـة الصهيونية : "ثيودور هيرتزل" وهو صحفى مولـود فـى فيينـا نـال قـدرا مـن الشـهرة واتصـل بالمسـألة اليهوديـة عـن طريـق جمعيـات ومنظمـات فكريـة وثقافيـة تعـنى بالمسـألة اليهودية ، وتعمـل من منظـور إنسانـى فى الظاهر لتسهيل هجـرة أعـداد من يهـود الشـرق إلى فلسطـين .

ولم يكن "هيرتزل" وحيـدا فى ميدانه ، فقد سبقه وأحـاط بـه جمـع لا يسـتهان بـه مـن المفكرين والدعاة اليهـود الذين رأوا الفكـرة مثله ، وإن لم يقدروا على تحديدهـا والتبشـير بهـا صراحـة وعلنـا .

● ومثلا فإن "موزس هيـس" كتب فى ذلك الوقت كتـابه "رومـا والقـدس" ليقـول فيـه ما مـؤداه :

"إننى أشعر كيهودى أننـى أنتمـى إلى شعـب بـائس ، سـيئ الحـظ ، محتقـر ومشتت بين أمـم العالم . إن اليهود فى بعض البـلاد يهربـون مـن يهوديتهـم . وفـى ألمانيا يحـاول اليهـود أن يخلعـوا عنهـم كـل مـا يشـير إلى أنهـم يهـود . والشـعوب الأوروبيـة كلهـا تشعـر أن اليهـود غربـاء عندهم . وسـيظـل اليهـود دائمـا غربـاء بين الأمـم."

● ومثلا فإن "ليو بنسكر" فى كتابه "التحرر الذاتى" راح يقول :

"يجب أن نجد وطنا لهذا الشعب حتى نكف عن التجوال فى العالم . وليس من الضرورى أن نحلم باستعادة أرض يهودا القديمة ، فلا داعى لأن نربط أنفسنا بالمكان الذى تحطمت فيه حياتنا السياسية وتوقفت . ليس من الضرورى أن يكون هدفنا استعادة الأرض المقدسة ، وإنما من حقنا أن نطالب بأرض . أية أرض . أى قطعة من الأرض تكفى لإخواننا من البؤساء . قطعة أرض تكون ملكا لنا ولا يستطيع أحد أن يطردنا منها ."

● ومثلا فإن "توماس كلارك" بدأ يقترب أكثر من صميم الموضوع حينما قال فى كتابه "الهند وفلسطين" (رابطا بوضوح بين الاثنتين) :

"إذا كانت الضرورة تقضى بالإبقاء على مملكة تركيا كدولة محايدة وآمنة على حدودها ، فمن المؤكد أن ذهاب اليهود إلى فلسطين تحت حماية بريطانيا يمكن أن يعطى لتركيا هذا الحياد وهذه السلامة . إن بريطانيا تعتمد على التجارة كحجر زاوية فى عظمتها . وأفضل وأقرب مكان إلى حركة التجارة العالمية يمر عبر النقطة التى تلتقى عندها القارات الثلاث الكبرى . وبما أن اليهود يؤلفون شعبا تجاريا فى الأصل ، فإنه ليس هناك أكثر ملاءمة ولا منطقا من زرعهم على طول ذلك الطريق العظيم للتجارة طوال كل العصور . إن سوريا يجب أن يوجد فيها شعب تجارى ، ولن تصبح سوريا فى أمان إلا عندما تصبح فى أيدى شعب شجاع مستقل يزخر بالحيوية . وهذه الأوصاف تنطبق على اليهود ."

● ومثلا فإن "إدوارد لودفيج ميدفورد" (وهو دبلوماسى إنجليزى غير يهودى) ، كتب فى نفس الفترة ما أسماه "نداء بالنيابة عن اليهود لإنشاء كومنولث بريطانى فى الشام" ، اقترب فيه أكثر وأكثر من صميم الموضوع فقال :

"إن فلسطين إذا ما أخذنا فى الاعتبار مساحتها ، تبدو صغيرة ولا تتسع لكل اليهود . وقد تنشأ مشاكل بسبب هجرة مستوطنين كثيرين . لذلك يستحسن قبل القيام بتوسيع نطاق الاستيطان فى فلسطين أن يتم اعداد البلاد كلها لاستقبال شعبها الجديد . ويمكن إقناع الحكومة العثمانية بتهجير كل السكان "المحمديين" وتوطينهم فى المناطق الشاسعة الخالية من شمال العراق [1] حيث يستطيعون امتلاك أرض أفضل من تلك الأرض التى سوف يتركونها وراءهم ."

---

(١) تجدد الحديث عن التهجير إلى شمال العراق بعد حرب الخليج سنة ١٩٩١ . وكان التهجير أيضا للاجئين من الفلسطينيين الموجودين فى بعض أجزاء الأرض المحتلة وفى لبنان أيضا .

لكن "هيرتزل" ـ خلافا لهؤلاء جميعا ـ توجه إلى صميم الهدف مباشرة !

وربما ساعد "هيرتزل" على التوجه المباشر إلى الهدف أن هجرة موجات من اليهود إلى فلسطين لم تعد خافية على أحد . ثم إن عواقبها بدأت تلفت الأنظار على الأرض .

فقد بدأت المشاكل فعلا بين المستوطنين اليهود المتدفقين على فلسطين وبين السكان العرب الأصليين . ولفتت هذه المشاكل نظر كثيرين ، وبينهم عدد من المهاجرين اليهود أنفسهم . وكتب "أحاد هاعام"[٢] فيما يكاد يكون تحذيرا مبكرا من شكل ما هو قادم ..يقول:

"لقد اعتدنا على التفكير والتصرف وكأن جميع العرب قوم بدائيون يعيشون في الصحراء ولا يرون ولا يفهمون حقيقة ما يجرى حولهم . وهذا خطأ فادح لأن العرب، وخاصة سكان المدن منهم ، يرون ويفهمون ما نفعله في فلسطين . وإذا كانوا لا يقابلون عملنا بفعل مضاد ويتظاهرون بأنهم لا يلاحظون شيئا ، فذلك لأنهم في الوقت الحاضر لا يرون فيما نفعله الآن تهديدا لمستقبلهم . ولكن إذا ما تطورت الأمور وبدأ زحفنا الكبير على فلسطين ، فإن العرب لن يتخلوا عن مواقعهم بسهولة . إن المستوطنين اليهود الجدد في فلسطين كانوا عبيدا في التيه، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية بلا حدود ، بل وسط حرية لا رادع لها . وقد أحدث هذا التحول المفاجئ في نفوسهم ميلا إلى الاستبداد كما هي الحال حين يصبح العبد سيدا . وهم يعاملون العرب بكثير من العداء والشراسة ، ويمتهنون حقوقهم بصورة فجة وغير مقبولة ، ثم يوجهون لهم الإهانات دون مبرر كاف ، ويفاخرون بما يفعلون . يتصرفون وكأن العرب كلهم همج متوحشون يعيشون كالحيوانات دون فهم لحقيقة ما يجرى حولهم."

وكان لا بد لأحد أن ينزع الستائر والأغطية ، وأن يفصح بعبارة صريحة وفعل مباشر ، لأن الحركة لا تقدر على الوقوف طويلا عند منتصف الطريق ...

وكان هذا دور "ثيودور هيرتزل" .

---

(٢) "أحاد هاعام" تعنى فى العبرية "واحدا من الناس" ، وكان ذلك اسم القلم لواحد من أبرز الكتاب والمفكرين اليهود ، وأوسعهم نفوذا فى ذلك الوقت ، واسمه الحقيقى "آشر زفى جينزبرج" .

٣

هيرتـــــــزل

" سليــل الفراعنــة الذين اضطهـدونــا يطلــب
مساعدتـى أنـا اليهـودى ! "
("هيرتزل" بعد لقائه بـ "مصطفى كامل" باشا)

كانت مـيزة "هيرتزل" على كل الآخرين فى زمانه أنه استطاع استيعاب مجمل الظـروف الاستراتيجية ، ورأى أن اللحظة مناسبة لكى يتخلى العمل اليهودى عن سـواتره [٣] بمـا فـى ذلك التبشير والهجـرة الخيرية ، وأن يدخـل مباشرة ـ وبقـوة ـ إلى عالم الحقائق السياسية .

---

(٣) من المفارقات التى تستحق التأمل، أن كل ما قيل عن الوعد المقدس بفلسطين لليهود لم يثبت علميا، وهو على حد تعبير الأستاذ " نورمان كانتور ـ " أكبر كتّاب التاريخ اليهودى ـ : " شىء ينتمى إلى عالم الأدب أكـثر ممـا ينتمى إلى عالم الدين ". وفى دراسته الهامة عن التاريخ اليهودى بعنوان " السلاسل المقدسة " ، يستشهد " كانتور " بخلاصة توصل إليها الأستاذ " روبرت ألتر " أستاذ الديانة اليهودية فى جامعة " بيركلى " (كاليفورنيا ـــ الولايـات المتحدة) يقول فيها : " إن التوراة المتداولة الآن يجب قراءتها بعيون الأدب وليس بعيون التاريخ أو الدين"!

ويضيف " ويليام داريمبل " فى كتابه عن القدس بعنوان " المدينـة المسحورة " ، تفـاصيل موثقـة عـن الجهـد الذى بذلته الدولة الإسرائيلية من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٩٥ ، فى التنقيب عن آثـار تـدل علـى تـاريخ يهـودى فـى فلسطين يمكن الإشارة إليه واشهاره فى وجه المتشككين فى القصص الأسطورى . ويعطى "داريمبل" مثالا لذلـك قصـة التنقيب عن بقايا هيكل سليمان ، ويقول : "كان تقدير العلماء الإسرائيليين أن موقع الهيكل قريب من أسوار مسـجد قبة الصخرة ، وبدأت الحفريات واستمرت رغم اعتراضات اليونسكو (منظمة الثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة) ، وعثرت البعثات الإسرائيلية على بقايا معالم أعلنت عنها وهللت لها ، ثم اضطرت إلى تغطية الاكتشاف كلـه بسـتائر من الصمت ، لأن البقايا التى عثر عليها لم تكن إلا آثار قصر لأحـد الملـوك الأمويـين ، وهـو أمـر يدحـض الدعـاوى اليهودية من الأساس ويكشف أنه ليس هناك ماض ينبنى عليه حاضر ومستقبل"!

وكان تعليق العالمة اليهودية الشهيرة الدكتورة "شولاميت جيفا" ـ أستاذ الدراسـات اليهوديـة فـى جامعـة تـل أبيب ـ قولها بالنص : "إن علم الآثار اليهودى أريد له تعسفا أن يكون أداة للحركة الصهيونيـة ، تختلـق بواسطته صلة بين التاريخ اليهودى القديم والدولة اليهودية المعاصرة" . وذلك يتفق تماما مـع دراسـة للأستاذ "كيـث ويتلـم" نشرها بعنوان يغنى عن كل شىء : "اختراع التاريخ اليهودى القديم وخنق التاريخ الفلسطينى كله"!

وافتتح "هيرتزل" دوره الخطير بنشر كتيب تحول فيما بعد ـ وعندما توسع فيه كاتبه ـ إلى دستور للحركة الصهيونية ، وقد نشره بعنوان "الدولة اليهودية" ، وأحدث نشره أصداء كبيرة بين اليهود وإن كان كثيرون منهم قد اعتبروا أفكاره وقتها نوعا من الخيال السياسى.

كان منطق "هيرتزل" كما تبدى فى كتابه بسيطا إلى درجة تبعث على القلق :

١ ـ اليهود لن يندمجوا فى المجتمعات الأوروبية .

٢ ـ الذين سوف يندمجون هم أغنياء اليهود فقط ، فهؤلاء وحدهم هم الذين تقبل المجتمعات الأوروبية اندماجهم فيها .. وهؤلاء لن يهاجروا .

٣ ـ اليهود الفقراء القادمون من الشرق سوف يكونون مصدر إزعاج وقلق لليهود الأثرياء الذين استقروا فى غرب أوروبا .

٤ ـ إن اليهود عندما تهوى بهم الظروف يصبحون من البروليتاريا الثورية . لكنهم عندما ينهضون تنهض معهم قوة المال الرهيبة .

٥ ـ إن أغنياء اليهود فى أوروبا الغربية هم الذين يجب أن يدفعوا تكلفة هجرة فقرائهم خارج أوروبا .

٦ ـ فلسطين هى المكان الوحيد الذى يستطيع اليهود أن يذهبوا إليه . فمجرد ذكر اسمها يثير عند الشعب اليهودى ذكريات تاريخية تقدر على الهامه وتحريكه .

كان ذلك منطق "هيرتزل" الفكرى ، وكانت ثناياه تحمل رسائل مبطنة هدفها طمأنة أغنياء اليهود وطمأنة القوى الأوروبية أيضا . وزاد عليه "هيرتزل" بخطة عمل تقوم على ثلاثة محاور:

- محور يتجه إلى السلطان صاحب الولاية الاسمية على فلسطين وبوصفه خليفة للمسلمين.
- ومحور يتجه إلى بريطانيا التى تقدمت نشيطة وقوية وسابقة للآخرين نحو إرث ممتلكات الخلافة فى الشرق .
- ومحور يتجه إلى مصر لاعتبارات استراتيجية أدركها "هيرتزل" واستوعبها من متابعته للسياسة الإمبراطورية البريطانية ودراسته لها .

□

على المحور العثمانى كانت خطة "هيرتزل" أن يشترى فلسطين من السلطان . وتلك خطة تكشفها يوميات "هيرتزل" وتشرح مقاصده فيها بوضوح لا تشوبه ظلال .

وبتاريخ ١٥ يونيو ١٨٩٦ يكتب "هيرتزل" فى يومياته قائلا :

"سوف نقدم للسلطان ٢٠ مليون جنيه استرلينى لاصلاح الأوضاع المالية المتدهورة فى تركيا ، منها مليونان بدل فلسطين ، والباقى وقدره ١٨ مليونا يمكن استخدامه فى تحرير تركيا من الحماية الأوروبية وشراء سندات ديونها ."

وأثناء زيارة بعد شهرين لاستانبول يكتب "هيرتزل" فى يومياته :

"التقيت اليوم مع جاويد بك وهو ابن الصدر الأعظم خليل رفعت باشا . رتبنا الأمور مع جاويد بك (قدم له رشوة فى الغالب) . جاويد بك مستعد لتفهم مشروعنا والمساعدة فيه . لكن اعتراضه الوحيد هو مصير الأماكن المقدسة ، فالقدس يجب أن تظل تحت الإدارة التركية . وعدته بذلك . وعدته أن تبقى القدس خارج حدود الدولة اليهودية إذا قامت ، لأن الأماكن المقدسة تخص العالم المتمدين كله ، ويجب أن تظل للجميع .

سألنى جاويد بك عن شكل العلاقة التى أراها بين دولة يهودية إذا قامت وبين دولة الخلافة . وقلت له إننا لا نطلب الاستقلال ولا نفكر فيه ، ولكننا نريد نوعا من العلاقة مثل تلك التى كانت بينكم وبين مصر ."

ويغادر "هيرتزل" استانبول ، وبعدها بشهور يكتب فى يومياته قائلا :

"أبلغونى أن السلطان أخذ علما بمشروعى لكنه يعارض فكرة بيع فلسطين لليهود . وفهمت أنه يمكن عقد صفقة إذا وجدنا صيغة مناسبة . من رسائل حاشية السلطان فهمت أنهم يريدون صيغة لإنقاذ ماء الوجه . وقد بعثت إلى استانبول برسالة قلت فيها "إن جماعتنا تعرض على صاحب الجلالة قرضا بعشرين مليون جنيه استرلينى ، وفى مقابل ذلك فإن جلالته يمنح اليهود الامتيازات التالية :

١ - يصدر جلالته دعوة كريمة لليهود بأن يعودوا إلى أرض آبائهم . والدعوة من السلطان سوف تكون لها قوة القانون خصوصا إذا جرى إخطار الدول الكبرى المعنية بأمرها مسبقا .

٢ - يمنح المهاجرون اليهود الاستقلال الذاتى المعروف فى القانون الدولى ، ويكون لهم الحق فى إدارة شئونهم التنفيذية ، بما فى ذلك العدل والأمن والنظام .

٣ - تجرى فى استانبول مفاوضات حول الشكل الذى به تتحقق حماية السلطان لفلسطين اليهودية ."

ثـم يكتـب "هيرتزل" فى يومياتـه :

"كتبت إلى مدحت بك سكرتير السلطـان عـن مشروعنا لإصدار جريدة "دى فيلت" ، وأشرت له بأننا سوف نحاول أن نساعد حكومة السلطان عن طريقها بنشر ما يمكن أن يؤدى إلى تحسين صورتها فى العالم . وهذه خطوة نحـو تكريس جهود الصحافة اليهودية لخدمـة الخلافـة ، خصوصـا إذا قـام صـاحب الجلالـة بتشجيعنا وأمـن لنا الظروف الضرورية لإسكان الشعب اليهودى فى فلسطين . إننا سوف نضـع كل قوتنـا فـى خدمـة الاقتصـاد التركـى . إن أعداءنـا هـم أنفسـهم أعـداء السلطان الراغبين فى إضعاف الخلافة العثمانية وتفتيتها ، وهـم الذين يريدون امتصاص دماء تركيا بقروضهم الشرهـة (من المفارقات أن كل البنوك الدائنـة لتركيـا كـانت مملوكـة ليهود معظمهم ممن يقومون بتمويل المشروع الصهيونى فى فلسطين!) . وسوف يصبح المهاجرون اليهود إلى فلسطين رعايا مخلصين لصاحب الجلالة السلطان شرط حصولهم على حـق مطلق لحماية أنفسهم بأنفسهم ، وأن يكون لهم حـق شـراء الأراضـى دون أى قيـد . وأطمئنكم أنه لن يكون هنـاك اغتصـاب لأرض أحـد أبـدا ، فالملكيـة شـرع مقدس لا يمكن التنكر له . أما ممتلكات السلطان الخاصـة فيمكـن دفـع ثمنهـا مقدمـا ونقـدا حسب القيمة التى يقررها إذا شاء بيعها . إن صاحب الجلالة يجـب أن يـدرك أن نشاط اليهود وأهميتهم ماليا وتجاريا مسألة معروفة جدا ، فهم نهـر مـن الذهـب والتقدم والحيوية جاهـز لخدمـة تركيـا ."

وكان السلطان مترددا يخشـى من ضغوط إسلامية وعربية يحـس تأثيرها ويهمه تفاديها .

□

وعلى المحور البريطانى لم يكن "هيرتزل" يحتاج إلى عناء كبير ، فهناك أسـاس موجـود وقائم ، وكل ما هناك أن الظروف المستجدة تقتضـى الإسراع فيـه . ومـن الملاحـظ أن مسعـى "هيرتزل" تجاه إنجلترا لم يبتعد كثيرا عن مصـر ، وإنمـا اتصل بهـا علـى نحـو قـد يكـون مباشرا . وكتب "هيرتزل" إلى "لانسـدون" وزيـر خارجية إنجلترا خطابـا يقـول فيه :

"إن هناك موجات هجـرة متدفقـة مـن شـرق أوروبـا الآن ، وإذا لم تفتحـوا لهـا البـاب بسـرعة لتذهب إلى فلسطـين فسوف تجـدون رجالهـا ونسـاءها وأطفالهـا بمنقولاتهم أمامكم فـى الحـى الشرقى مـن لنـدن (East End) . إن بعضهـم جـاء بالفعل إلى هنا ، ونحن لا نريـد كثيرين منهم هنـا بحيـث تضطـرون إلى التوقـف عـن

منحهم حق اللجوء السياسى ، ولذلك فإن من الخير أن تسارع إنجلترا على الفور إلى حل هذا الإشكال . والحل في يدها ، فهي تملك فى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط أقاليم خالية من السكان ، وبالذات فى المنطقة الساحلية الموجودة بين العريش وشبه جزيرة سيناء . إن السلطان ليس مستعدا حتى الآن لإعطائنا فلسطين أو جزءا منها . وقد تأخذ المفاوضات مع تركيا وقتا طويلا . لكنه حتى يتم الأمر على نحو ما ، فإننا نتمنى أن تأذن الحكومة البريطانية بإنشاء مستعمرات يتجمع فيها المهاجرون اليهود فى شبه جزيرة سيناء حتى يتاح لهم الذهاب إلى فلسطين . إننى سوف أمضى فى المحادثات مع الباب العالى حتى أبعد عنكم شبهة أن يبدو الاستيطان اليهودى فى العريش وغيرها عملا عدائيا ضد السلطان .

إن هناك ١٠ ملايين يهودى فى العالم ، وقد لا يستطيعون إعلان ولائهم لبريطانيا فورا ، لكنهم سينتمون إليها بقلوبهم إذا هى سهلت لهم الحصول على فلسطين وأصبحت بذلك فعلا وعملا حامية الشعب اليهودى وحاضنته . إن قرارا إنجليزيا واحدا سوف يعطى إنجلترا عشرة ملايين من المخلصين يدينون لها بالولاء فى جميع أرجاء العالم . ربما يقال لكم إن بعضهم مجرد بائعى خردوات ، ولكن لا ينبغى نسيان أن بعضهم الآخر أصحاب بنوك وتجار كبار وعلماء وفنانون وصحفيون وأصحاب مهن عظيمة أخرى . بإختصار فإنه سيكون لإنجلترا عشرة ملايين عميل يتحركون من أجل عظمتها وسيطرتها ."

ولم تكن الحكومة البريطانية فى حاجة إلى جهد لكى تقتنع . وكانت تعرف حجج "هيرتزل" ومنطقه ، وكانت ترى تردد السلطان ، وتتفهم رغبة الحركة الصهيونية فى تسريع الأمور ، وذلك عن طريق إعطاء اليهود موطئ قدم ـ ولو مؤقتا ـ فى سيناء حتى يصل السلطان فى استانبول إلى قرار تتحدد به الأمور .

وهكذا جاء الدور على المحور المصرى .

□

كان "هيرتزل" ـ قبل أن يتحرك على المحور المصرى ـ قد أنهى مهمة أعطته أساسا شبه شرعى يقف عليه ويعمل منه . فقد دعا إلى عقد مؤتمر صهيونى تشارك فيه كل القوى المطالبة والمؤيدة لاستيطان اليهود فى فلسطين . وانعقد المؤتمر فعلا فى مدينة "بازل" السويسرية يوم ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ ، وأسفر هذا المؤتمر عن أربعة مقررات رئيسية هى :

١ ـ العمل وفق خطة محددة على استعمار فلسطين بواسطة اليهود زراعيا وصناعيا .

٢ ـ العمل على إنشاء مؤسسات يهودية تمثل وتربط وتجمع جهود الشعب اليهود
من أجل إنشاء دولته .

٣ ـ العمل على تحريك الروح اليهودية والضمير اليهودى بما يوقظ العاطفة الوطنيـ
اليهودية ويحقق الوعى بها .

٤ ـ العمل على تحقيق أهداف الصهيونية بما فى ذلك إحياء اللغة العبرية والأدد
العبرى والثقافة العبرية .

ومن المفارقات أن أول مصرى قابله "هيرتزل" كان "مصطفى كامل" (باشا) زعيم الحـزد
الوطنى ، الذى بزغ نجمه فى الحركة الوطنية المصرية حينئذ . وكان "مصطفى كامل" ه
الذى سعى إلى لقاء "هيرتزل" لكى يقنعه بمنح تأييده للقضية المصرية . ويكتب "هـيرتزل
فى مذكراته بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٩٧ ما يلى :

**"جاء مصطفى كامل لزيارتى . إنه فى رحلة لجمع التأييد الدولى لقضية الشعد
المصرى الذى يسعى للخلاص من السيطرة البريطانية . إن هذا الشاب الشرقى تـرا
عندى انطباعا ممتازا . إن سليل الفراعنة الذين اضطهدونا فى مصر يتنهد اليو
أسى من عذاب الرق البريطانى ، وتقوده طريقه إلَى أنا اليهودى طالبا مساعدتى
أشعر ـ مع أنى لم أخبره بذلك ـ أنه مما يفيد قضيتنا أن يضطر الإنجليز إلى الخرو
من مصر لأن ذلك سوف يفرض عليهم أن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند بدلا مـ
قناة السويس التى ستضيع منهم أو تصبح غير مأمونة . وحينئذ سوف تصبـ
فلسطين اليهودية الجديدة طريقا مناسبا لهم من يافا إلى الخليج الفارسـ
وإلى الهند ."**

. . . .

. . . .

بعد لقائه بـ "مصطفى كامل" وبعد المؤتمر الصهيونى الأول فى "بازل" ، بدأ "هـيرتزل
حركته النشيطة فى اتجاه المحور المصرى . وقد جاء إلى مصر أول مرة محبطا . فقد ترددت
أصوات كثيرة فى أوساط اليهود فى أوروبا تشكك فى إمكانية تحقيق مشروع الدولة اليهوديـ
فى فلسطين . بل إن رجلا مثل "ماكس نوردو" ـ وهو من أقرب الأصدقاء إلى "هـيرتزل" .
أخذ يتأرجح فى اتجاه القبول بوطن آخر لليهود غير فلسطين . وقد ظهرت فى الأجوا
بالفعل مقترحات يشير أحدها إلى الأرجنتين ، ويشير ثان إلى أوغندا . وكان مبعث ترد
"نوردو" يعود إلى واقعة غريبة . فقد أراد قبل المؤتمر الصهيونى أن يقنع بعض الحاخامات
الأوروبيين المترددين ، فرأى أن يبعث باثنين منهم إلى فلسطين يريانها رأى العين ثم يعودا

ليحدثا زملاءهما عنهـا وعـن حقـائق الأحـوال فيهـا ، سـواء بالنسـبة لسـكانها الأصليـين أو بالنسبة للمستوطنين اليهـود . وبالفعل فإن الحاخامين سافـرا إلى فلسطـين ، لكن ما رأياه كان صدمـة لهما . وكانت أول إشارة إلى الصدمـة برقيـة تلقاهـا "نـوردو" منهمـا ـ وهمـا بعـد فـى فلسطين ـ يقولان فيها بالرمز : "إن العروس جميلة جدا وهى مستوفية لجميع الشروط لكنهـا متزوجة فعلا" . وفهـم "نوردو" الإشارة على أن المقصود بها أن فى فلسطـين شعبا يسـكنها ، وأنها ليست ـ كما يقول "هيرتزل" ـ : "أرضا بلا شعـب لشعـب بلا أرض" .

وعندما عاد الحاخامان والتقيا بـ "ماكس نوردو" فى فيينا ، كان تقريرهما الشفوى مؤكدا لمعنى البرقية التى بعثا بها إليه مـن فلسـطين . فقـد كـانت روايتهمـا أن هنـاك شـعبا عربيـا فلسطينيا يسكن فلسطـين من آلاف السنين ، ويـزرع أرضهـا ويعتبرهـا وطنـه ، وهـى كذلـك بالفعل . وبالتالى ، فإن اليهود الراغبين فـى الذهـاب إلى فلسطـين والاسـتيطان فيهـا أمـامهم معركة قاسية مع أصحابها الأصليـين .. الـزوج الشرعـى والحـى للعـروس الجميلـة .

كان تقريرهما أيضا يشير إلى خطـر يستفحل وسببه المستوطنون اليهود الذين هاجـروا إلى فلسطـين. فقد أحـس كلا الحاخامين بأن تصرفات المستوطنين تحمل ظواهر علـل نفسـية قـد تزيد مع الأيام ، ومن المحتم أن تزيـد . ذلك أن المستوطن اليهـودى ، لكـى يريـح ضميره ، ولكى يستطيع مواصلة حياته فى الأرض الموعودة ، يتحتم عليه إنكـار وجـود "الآخـر" ـ أى الفلسطينى ـ "بمثل ما يمكن تصوره من رغبة عاشق لزوجة رجل آخر فى الخلاص من زوجهـا إلى درجة قتلـه لكى ينتهـى منه جسـدا وروحا وذكـرى" .

إن تلك الحالة بـدت لهما فى الطريقة التى يتصرف بها المستوطن اليهـودى إزاء المواطـن الفلسطينى ، وحسب وصـف الحاخامين فإنها : "استعـلاء إلى درجـة الاحتقـار والكراهيـة ، وعنـف فى التصرف ليس له ما يبرره ، وافتعـال لأسـباب ليـس لهـا هـدف ، إلا أن تضـع مسافة بين الطرفين بحيث لا يستطيع أحدهما أن يـرى الآخـر أو ينظـر إليه فى وجهـه ."

. . . .

. . . .

وجاء "هيرتزل" إلى مصـر ، وبدا من تصرفاته الأولى أنه مستعد لأن يؤجـل مؤقتا مشـروع الهجرة الكثيفة إلى فلسطين ، وأن يكتفى فى اللحظة الراهنة بمشروع استيطان كبير فى سيناء يرتكز على العريـش ويتسـع منها . وذهـب "هيرتزل" فـزار منطقة العريـش والوديان المحيطة بهـا ، والتقى بالخديو "عبـاس حلمى الثانى" وتحدث إليـه فى مشروعه . وكان "مشروع

"هيرتزل" يهدف إلى تأجير مساحة أرض قدرها ستمائة وثلاثون ميلا مربعا حول العريش ، اعتبرها "هيرتزل" منطقة تجمع وتركيز ووثوب . وكان اقتراحه أن تؤجرها المنظمة الصهيونية لمدة تسع وتسعين سنة ، وأن تكون بشكل مباشر تحت حماية الحكومة البريطانية وبمقتضى تعهد موقع وموثق. ولا يظهر أنه كان لدى الخديو اعتراض كبير ، وربما أن معظم مناقشات "هيرتزل" معه تركزت حول ما يمكن أن يعود عليه (الخديو) من أرباح مشروع "هيرتزل" الزراعى والاستيطانى . وكان الذى تصدى لمشروع "هيرتزل" ـ مع الأسف ـ هو اللورد "كرومر" المعتمد البريطانى فى مصر ، وكان اعتراضه فنيا بالدرجة الأولى واعتمد فيه على تقديرات المهندسين الإنجليز لحجم المياه المطلوبة للمشروع من موارد النيل . وكان رأى المهندسين الإنجليز أنه من الصعب توفير كمية المياه المطلوبة لمشروع "هيرتزل" لأن ذلك يؤثر على الزراعة فى مصر ، وعلى إنتاج المحصول الحيوى لمصانع "لانكشاير" فى إنجلترا ، وهو القطن المصرى .

ومن ناحية أخرى ، فإن "كرومر" كان فى مصر يواجه موقفا بالغ الدقة بسبب خلافه المستمر مع الخديو "عباس حلمى" . كما أن بوادر حرب عالمية ـ تدور بعض معاركها فى الشرق الأوسط ـ لم تكن بعيدة عن هواجسه . وربما كان ظنه أن الظروف الراهنة فى مصر والمنطقة المحيطة بها ليست فى هذه اللحظة مناسبة لتصرف قد يؤدى لاستفزاز المشاعر الوطنية والدينية. وكان من اللافت للنظر أن بعض الصحف المصرية ـ وفى مقدمتها جريدة "المنار" ، التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت الشيخ "رشيد رضا" ، تلميذ الإمام "محمد عبده" ـ راحت تنشر أخبارا وتعليقات تحذر كلها من مطامع اليهود فى فلسطين وخطرها على دار الإسلام . وقد بدأت هذه الأخبار والتعليقات تستثير اهتماما مبكرا بالخطر .

وبدا أن مشروعات "هيرتزل" تتعثر أمام موقف معقد بدأت مقدماته تخيم على أجواء الشرق .

ويمكن ملاحظة أن الحركة الصهيونية كلها ـ و"هيرتزل" على رأسها ـ فى هذه اللحظة لم تكن تفاوض أصحاب الحق الشرعى وهم شعب فلسطين .

لقد حاولت أن تقنع بريطانيا بحق اليهود فى فلسطين ، وحاولت أن تشترى من السلطان وطنا بأكمله من ممتلكاته ، وحاولت أن ترتب لنفسها موطئ قدم فى مصر ، لكنها لم تكن تتفاوض مع الطرف الآخر الذى يملك الوطن الفلسطينى ويعيش فيه .

وكان منطق الإنكار ضروريا ، فأى تفاوض مع هذا الآخر معناه الاعتراف بوجوده الشرعى، وإذا وقع هذا الاعتراف فهو النفى المباشر للدعوى الصهيونية فى فلسطين !

وفيما بعد علق الزعيم الصهيوني الشهير "ناحوم جولدمان" على أفكار "هيرتزل" بقوله :

"إن هيرتزل رفض أن ينظر إلى كافة وجوه قضية الاستيطان اليهودى فى فلسطين ، وصمم على أنها "قضية أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ، إلى درجة أنه اعتبر عملية الاستيطان كلها مشكلة توفير وسائط نقل تحمل اليهود من أوروبا إلى فلسطين طالما أن لديهم التأشيرة بذلك من السلطان وتذكرة السفر من إنجلترا ."

الفصـــــل الثالـث

"الساحــل" و "الداخــل"

" على أى خريطة للعالم العربـى
يلمح أى باحـث مهـتم أن هناك سياسـة غربية ثابتة
تستهدف عـزل "الساحـل" عن "الداخـل" ..
هكذا فى البحـرالأبيض ، وفى الخليـج، وفى المحيـط .
و"الساحـل" فى أكثر الأحيان للغالبـين أو معهـم . و"الداخـل"
مـتروك لتناقضـات أهلــه وخلافاتهـم" .

١

ماكماهون

" علماء الآثار تحولوا كلهم إلى ضباط مخابرات"

(واحدة من حقائق الدبلوماسية الخفية لبريطانيا فى الحرب العالمية الأولى)

فى السنوات الأولى من القرن العشرين كانت موازين القوى الدولية ، وخطوط التحالفات الدولية تتحرك وتظهر معالمها وتوجهاتها مشيرة إلى احتمالات صدام كبير قادم . ففى سنة ١٩٠٤ توصلت بريطانيا وفرنسا إلى الاتفاق الودى بينهما ، وفى نفس الوقت فإن ألمانيا التى خرجت تطالب بمستحقاتها فى توزيع المستعمرات ، انهمكت أيضا فى بناء قوة عسكرية ضخمة ، ثم إنها راحت تفكر فى تحالفات سياسية وعسكرية جديدة جعلتها تسعى نحو تركيا التى كان حكامها ينظرون بشك إلى الخطط البريطانية فى الشرق . فإنجلترا ، رغم وعود متكررة بالجلاء عن مصر ، تثبت أقدامها فى وادى النيل ، وتحكم قبضتها على السودان. وهى كذلك تساعد بشدة على زرع عشرات المستوطنات اليهودية فى فلسطين . وفى نفس الوقت فإن فرنسا ـ خصوصا بعد الوفاق الودى مع إنجلترا ـ تقوم بتحركات تثير الريب فى بيروت ودمشق . وفى الواقع ، فإن خطوط الحرب العالمية الأولى وتحالفاتها راحت مبكرا تحفر مجاريها . وإزاء هذه الظواهر كانت استانبول تقترب يوما بعد يوم من برلين ، وكل الإشارات تدل على أن منطقة الشرق الأدنى تقترب من ساعة الحقيقة التى تتقرر فيها المصائر . ولم يكن لدى أحد من المراقبين شك فى أن هذه المنطقة سوف تشهد بعضا من أهم معارك القتال من أجل رسم خريطة جديدة لمواقع القوة والنفوذ .

□

ومن اليوم الأول لنشوب الحرب العالمية الأولى أصبحت القاهرة واحدا من أهم مراكز إدارة هذا الصراع المسلح الكبير .

كان الطرفان الرئيسيان فى معسكر الحلفاء وهما : بريطانيا وفرنسا ، قد تفاهما منذ اللحظة الأولى على عدة نقط محددة :

١ - أن تكون الأولوية الأولى للجهد الحربى فى أوروبا وعلى الجبهة الحرجة بين فرنسا وألمانيا مباشرة ، فهناك فى رأيهما يتقرر النصر أو تقع الهزيمة .

٢ - يترتب على ذلك أن تمتنع الدولتان عن التورط فى أية ميادين أخرى ، وتحصران نشاطهما - خارج الميدان الأوروبى - فى حدود دفاعية بمقدار ما تسمح الظروف.

٣ - إن الجائزة الكبرى التى تنتظرها الدولتان بعد الحرب - إلى جانب هزيمة ألمانيا - هى الممتلكات الشرقية للخلافة العثمانية . ولما كان هذا الموضوع حساسا فمن الأفضل تأجيل البت فيه إلى ما بعد انتهاء الحرب حتى لا تؤثر حساباته على العلاقة بين البلدين ، وبما يخدم هدف ألمانيا فى التفريق بينهما .

ولكن هذا التفاهم بين الحليفين الرئيسيين فى الحرب ضد ألمانيا ، لم يكن فى استطاعته أن يغطى على حقيقة مرئية ومحسوسة تقتضى الظروف السياسية والنفسية للأطراف أن يجرى التعامل معها بحذر . وكانت تلك الحقيقة تشير بوضوح إلى أن بريطانيا هى الطرف الأكبر والأقوى فى التحالف . فالقرن التاسع عشر كان قرن توسع وازدهار للإمبراطورية ، كما أنه بالنسبة للشعب البريطانى كان فترة تطور سياسى سلمى ، فى حين كان العكس حال فرنسا التى كان القرن التاسع عشر مؤلما لها فى الخارج والداخل، ثم جاءت هزيمتها أمام ألمانيا فى حرب السبعين (١٨٧٠) فكادت تقضى عليها كقوة عظمى لولا أحكام الجغرافيا ، ولولا مطالب توازنات القوة فى أوروبا وفى مواجهة ألمانيا بالتحديد .

إن الحقائق تفعل فعلها مهما حاول الساسة أن يتصرفوا معها بحذر تقتضيه الحساسيات، وهكذا فإن بريطانيا طوال الحرب كانت تتصرف بقوة ودهاء ، كما أن فرنسا كانت عصبية مما يمكن أن تفعله بريطانيا من وراء ظهرها .

□

فى ذلك الوقت كانت إدارة الإمبراطورية البريطانية ، وجهدها فى الحرب يعتمدان على ثلاثة مراكز مؤثرة فى القرار البريطانى :

- أولها مركز لندن : وهى عاصمة الإمبراطورية ومقر البرلمان والحكومة والعرش وفوق ذلك فإن فيها القيادة العليا للقوات المسلحة ، ووقتها كان وزير الحربية هو اللورد "كيتشنر" الشهير ، الذى اكتسب سمعته باحتلال السودان عندما كان قائدا لقوات الاحتلال البريطانى فى مصر .
- والثانى مركز القاهرة : وكانت القاهرة مقر السياسة البريطانية فى البحر الأبيض وفى البحر الأحمر . وفى ظروف الحرب وطبيعة وسائل الاتصالات وقتها ، فإن مركز القاهرة كان يتمتع بسلطات واسعة ، وفى بداية الحرب كان على قمة هذا المركز فى القاهرة السير "هنرى ماكماهون" .
- وأما المركز الثالث فقد كان مركز دلهى : وكانت دلهى مسئولة ـ إلى جانب حكم الهند ـ عن كل السياسة البريطانية فى منطقة تمتد من بحر الصين إلى بحر العرب، ومن هونج كونج على شاطئ شبه القارة الصينية إلى عدن على شاطئ البحر الأحمر وعند مدخله من شبه الجزيرة العربية .

وكان مركز دلهى مركزا بالغ الأهمية من أثر التجربة التاريخية للاستعمار البريطانى ، ونشأت نتيجة لذلك حكومة من نوع فريد لم يتكرر على الإطلاق فى التاريخ . فحكومة الهند ـ كما كانت تسمى ـ لم تكن مجرد إدارة استعمارية وإنما كانت إدارة إمبراطورية ، والفارق بين الاثنتين أن الإدارة الاستعمارية فى العادة موكلة بإدارة واستغلال مستعمرة ، وأما الإدارة الإمبراطورية فهى موكلة بالتوسع والسيطرة . وفى واقع الأمر فإن حكومة الهند كانت فى بعض الأحيان أقوى من حكومة لندن فى صنع القرار الإمبراطورى ، ولذلك لم تكن مصادفة أن أظهر الساسة والإداريين البريطانيين ، نشئوا وتعلموا فى أطر حكومة الهند . وفى فترة الحرب العالمية الأولى فقد كان نائب الملك فى الهند هو اللورد "هاردنج" .

□

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، فإن تركيا تأخرت لبضعة شهور قبل أن تحزم رأيها وتقرر دخولها إلى جانب الألمان . وفى شهور التردد ــ وقبل الدخول ــ فإن المراكز الإمبراطورية البريطانية كانت تجرى تقديراتها للطريقة التى تتصرف بها فى حالة ما إذا

دخلت تركيا الحرب أو امتنعت عن دخولها ، وفى الحالتين وفيما يبدو فقد كانت أملاك الخلافة فى الشرق إرثا حان استحقاقه مهما كان الموقف الذى تتخذه استانبول .

واشتد التنافس فى ذلك الوقت بين مركز القاهرة الجديد ومركز دلهى العتيد ، فكلاهما يرى نفسه الأحق بالتخطيط والإشراف على تنفيذ عملية الاستيلاء على التركة :

مركز القاهرة يظن أنه بقربه من الشام ، بما فيها فلسطين والحجاز ــ وربما العراق ــ أولى من غيره بالقيام على المسئولية والاختصاص .

ثم إن مركز دلهى يرى أنه الطرف الأقدر بتجربته التاريخية وبمواقع نفوذه حتى شواطئ نجد ، وقد اتصل فيها بالشيخ (السلطان والملك فيما بعد) "عبد العزيز آل سعود" وغيره من زعماء قبائل الساحل حتى قرب البصرة من ناحية الشرق . كما أن هذا المركز الإمبراطورى فى دلهى توسع غربا حتى توصل إلى احتلال عدن (ومن الملاحظ أن احتلالها تم سنة ١٨٣٩) فى ظروف الضغط على "محمد على" فى الشام وإرغامه على التراجع إلى حدود مصر .

□

وفى هذه الفترة ـ وقبل أن تدخل تركيا الحرب ـ فإن المسئولية والإختصاص والممارسة فى المركزين البريطانيين المعنيين كانت بطبيعة الظروف سرية ، أى أن الذى كان يشرف ويخطط وينفذ لم يكن المسئول السياسى الظاهر والمعروف ، وإنما كانت المسئولية فى ذلك الوقت فى يد الضابطين الكبيرين المسئولين عن المخابرات ، وهكذا فإن العمل الإمبراطورى فى المنطقة ذلك الوقت استقر فى يد مكتبين للمخابرات السياسية :

- مكتب القاهرة ، وكان المسئول عنه هو الكولونيل "جيلبرت كلايتون" .
- ومكتب دلهى ، وكان المسئول عنه فى الغرب وفى مجال أملاك الإمبراطورية العثمانية هو الكولونيل "بيرسى كوكس" .

إن حكومة الهند لم تقدر على الانتظار طويلا ، فقد كان مكتب دلهى يلح على المبادرة للعمل ، واتخاذ خطوة أولى باحتلال البصرة لتأمين السيطرة على الخليج وحتى لا تتمكن تركيا تحت أى ظرف من إعادة تأكيد سيطرتها على مشيخات الساحل من الكويت وحتى مضيق هرمز . وكان مكتب دلهى على اتصال بعدد من كبار الشخصيات العربية فى البصرة ، وفى مقدمتهم السيد "طالب النقيب" وهو من أبرز معارضى الحكم التركى ، والمطالبين باستقلال العراق والراغبين فى التعاون مع بريطانيا من أجل تحقيق هذا المطلب .

لكن المركز الإمبراطورى فى القاهـرة لم تكن له هذه القدرة على أخـذ المبادرة رغـم إلحـاح القيادة العسكرية فى مصـر وقائدهـا العـام الجنرال السير "جـون ماكسويـل" .

كان الجنرال "ماكسويل" يـرى أن تركيـا سـوف تدخـل الحـرب مـع الألمـان ، وأن أول خطوة لها فى الميدان سوف تكون هجوما من فلسـطين عـبر سـيناء للوصـول إلى قنـاة السـويس وتهديد الوجود البريطانى عليها وفى مصـر بعدها . وبالتالى فإن من الضرورى اسـتباق خطـوة الأتراك المحتملة والتقـدم بقوات كافيـة إلى العريـش لملاقاة احتمال هجـوم تركـى بعيـدا عـن قناة السويـس .

لكن القيادة السياسية والعسكرية العليا فى لندن كان لها رأى مختلف مؤداه أن الإقتراب من فلسطين شـىء يختلف عن النزول فى البصرة . فـالبصرة بعيـدة ، وفرنسـا لا تريـد هنـاك شيئا ، لكنه إذا اتصل أى عمل بالشام ـ (وفلسطين جنوبهـا) ـ فـإن فرنسـا سـوف تراودهـا الشكوك فى أن هناك تخطيطا يسبق بالفعل إلى "وضـع اليـد" علـى الجـزء الأهـم مـن الإرث العثمانى ، وقد تتحرك هواجسها وتعاودها شكوك مزمنة فى النوايا البريطانيـة ، وقـد تدعـى أن ذلك مخالف لتفاهـم مع بريطانيا يفـرض ألا يسبق أحـد إلى شـىء مـن التركـة دون اتفـاق على القسمـة ، ثم إن فرنسا قد تدعى أيضا بـأن فتـح جبهـة عسـكرية فـى الشـرق الأدنـى مخالف لمبدأ تـم الاتفاق عليه ، وهو إعطاء الأولوية الأولى لمسرح العمليـات الأوروبـى وإلحـاق الهزيمة بألمانيا هناك باعتبار أن رأس الأفعـى هى الخطـر ، وأما ذيلهـا فأمـره هـين !

ومن هذا المنطق فإن التوجيهات من لنـدن إلى مركز القاهـرة كانت تطلـب إليه ما يلـى:

١ ـ يقوم الجنرال "جون ماكسويل" بالاستعداد لموقف دفاعى يسمح لـه بحمايـة مصـر فى حالة هجـوم تركـى إذا قـررت إستانبول دخـول الحـرب .

٢ ـ وحتى يتضح موقف تركيا بطريقة قاطعة يقوم مكتب القاهـرة (المخـابرات) بدراسـة احتمالات العمـل وراء الخطـوط التركية فى سوريـا .

وكان الكولونيل "كلايتـون" قـد ضـم إلى مكتـب القـاهرة فـى ذلـك الوقـت مجموعـة مـن المساعدين قدر لبعضهم أن يلعبوا أدوارا بارزة فـى التـاريخ العربـى الحديـث ، وكـان أبرزهـم الكابتن "لورانس" (الذى اشتهر فيما بعد بوصف "لورانـس العـرب") ـ و إلى جانبه كان هنـاك آخرون أصبحوا أساطير عربية فى ظروف تالية وبينهـم "كورنواليـس" (وقد أصبح فيمـا بعـد مندوبا ساميا فى العراق) ـ و"هوجارت" (وقد أصبح فيمـا بعـد رسـولا دائما لملوك العـرب) ـ و"جروترود بـل" (وقد أصبحت فى يوم من الأيام ملكة العراق غير المتوجـة ، والقـوة الخفيـة وراء السياسة البريطانية هناك) .

ومما يستحق الملاحظة أن هؤلاء جميعا ــ وغيرهم ــ كانوا قبل الحرب من المشتغلين بعمليات الحفائر الأثرية فى الشرق الأوسط ، وكانوا يعيشون ويعملون فى مواقع مأهولة بالعرب ، وكانوا أيضا من العارفين والمتكلمين باللغة العربية ، والمؤهلين للاختلاط بحياة العرب السياسية والاجتماعية .

□

كان المكتب العربى ـ تحت رئاسة "كلايتون" ـ مشغولا بعملية استكشاف للأوضاع العربية والإسلامية . فالعالمان العربى والإسلامى تأخرا فى رفع ألوية الثورة ضد العثمانيين بسبب المكانة الخاصة لفكرة الخلافة والولاء لها . ولهذا فإن الممتلكات الأوروبية للعثمانيين (كاليونان وبلغاريا وغيرهما) سبقت إلى الثورة وسبقت إلى الاستقلال لأن مواجهتها كانت صريحة مع إمبراطورية إسلامية ، لم تلتبس بالفكر أو بالفعل مع أى اعتبار دينى أو معنوى من قبيل الولاء للخليفة .

وفى الحقيقة فإن أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، شهدت مراجعات واسعة فى قضية الاعتبار الدينى للخلافة و الولاء للخليفة ، وزادت هذه المراجعات فى إلحاحها خصوصا بعد انقلاب ضباط حركة "تركيا الفتاة" على الخليفة نفسه ، وفى عاصمة الخلافة ذاتها . وقد تركزت عملية المراجعة وتداعياتها فى الشام تحديدا ، خصوصا وأن مصر كانت إلى حد ما بعيد عن إطار الخلافة بالاحتلال البريطانى ، وإن كانت القاهرة فى ذلك الوقت قد أصبحت موئلا ومعقلا لكثيرين من ثوار الشام ومفكريه المسلمين والمسيحيين على السواء .

وكان "المكتب العربى" ـ تحت رئاسة "كلايتون" ــ يحاول أن يرصد صورة للحقيقة قبل أن تزحف جيوش النار وتتحدد مواقع الخطوط والخنادق .

مضافا إلى عملية الرصد ، فقد كان هناك سؤال يلح على السياسة البريطانية فى المشرق حول الطريقة التى يمكن أن يكون عليها رد فعل الشعوب الإسلامية والعربية ، إذا ما قرر الخليفة بعد دخول الحرب أن يعلن الجهاد ، وهو الفريضة المنوط به أداؤها إذا ما تهدد أرض المسلمين خطر أو داهمهم عدو .

وتضاعفت أهمية هذا السؤال بحقيقة أن القوات الإمبراطورية البريطانية كانت تضم فى صفوفها جيوشا من المستعمرات وبينها الهند ، وفى جيش الهند كان هناك قرابة ربع مليون مسلم ، وإذا أعلن خليفة المسلمين الجهاد وبريطانيا فى جانب الأعداء فماذا يكون

موقف هذه القوة ؟ وماذا يكون الموقف فى الهند المسلمة ــ (باكستان فيما بعد) ــ هذا إلى جانب أقاليم أخرى شاسعة فى آسيا وشمال أفريقيا يحتمل أن يؤثر فيها نداء الجهاد صادرا من مقر الخلافة فى إستانبول ؟!

. . . .

. . . .

وفى خلفية التفكير الإستراتيجى البريطانى كان هناك قلق عما يمكن أن يصيب المستوطنات اليهودية فى فلسطين إذا احتشد الأتراك ومعهم الألمان حول هذه المستوطنات ضمن استعدادهم لبدء الحرب بهجوم كبير عبر سيناء فى اتجاه قناة السويس !

٢

عـزيـــز الـمـصـــــرى

" قابلـت نـورى السعيـد . بـدا لى ضابطـا حالمـا
لـه ميـول اشتراكيـة "

(السير "بيرســى كوكـس" بعــد أن عــثر علــى
"نـورى السعيـد")

فى الوقت الذى كان فيــه "المكتـب العربـى" يحـاول استكشـاف الفكـر والنوايـا العربيـة والتيارات الفاعلة فى العالم العربى ، كان بعض العرب المطالبين بالحرية والاستقلال يحاولون استكشاف النوايا البريطانية فى الشرق الأوسـط ، وقبل أن تقـوم الحـرب أيضا .

وتكشف الوثائق البريطانية التى فرضت عليها السرية ـ بعضها لمدة خمسة وسبعين عاما وبعضها لمدة مائة عام ـ وبينها الوثيقة ٢١/٤٦٢٦١ ـ ٧٣١ ـ المعنونة "حديث بـين الكولونيـل عزيز المصرى"[١] والمستر ر. أ. م. راسـل" بمكتب المستشار الشرقي لـدار المعتمـد البريطـانى فـى مصــر ـ وبتاريخ ١٦ أغسطس ١٩١٤ ـ عن تفاصيل بالغة الأهمية بخصوص القيـادات العربيـة التى كانت تبحث عن الحرية والاستقلال بعيدا عن تركيا ، وتتصور أنهـا تستطيع أن تتعــاون مع بريطانيا لتحقيق هذا الهـدف .

---

(١) "عزيز المصرى" باشا شخصية مصريـة فريـدة ، فقـد كـان ضابطـا فـى الجيـش الـتركى ووصـل إلى مراكـز قيادية ، وشارك فى الثـورة العربيـة ، وعمل فيما بعد مشرفا على تربيـة الملك "فاروق" ودار صراع بينه وبين المشـرف الآخر على نفس المهمـة وهو "أحمد محمد حسنين" باشا (وهو رئيس الديوان الملكى فيما بعـد) ، وقـد أصبـح "عزيـز المصرى" باشا مفتشا عاما للجيش المصرى بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، واختلف مع الإنجليز واعتقل مدة الحرب العالمية الثانية بتهمة التعاون مع الألمان . وقد اعتبر أبـا روحيا لحركـة الضباط الأحـرار التى قـادت ثــورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ فى مصــر .

فى هذه الوثيقة التى كتبها "راسل" بعد لقائه بـ "عزيز المصرى" ، تمضى تفاصيل اللقاء على النحو التالى :

" اليوم ١٦ أغسطس جاء إلى مقابلتى الكولونيل عزيز المصرى ، وهو شخصية لها مكانتها فى العالم العربى ويجب أن تؤخذ أقوالها باهتمام وتوضع للدراسة بعناية ، لأن عزيز المصرى أحد القادة البارزين لثورة تركيا الفتاة ، وقد خدم بامتياز كضابط بالجيش التركى . وهو أيضا ضابط عربى قومى شديد الإيمان بأفكاره . وقد ألف فى بداية هذا العام ١٩١٤ جمعية سرية ، اسمها جمعية "العهد" ، اشترك فيها مع عدد من زملائه الضباط العرب فى الجيش التركى وهدفهم استقلال العرب والكفاح من أجل تحقيقه . إننا - لا نحن ولا الأتراك - كنا نعرف كثيرا عن هذه الجمعية . كنا نعرف اسمها من خلال معلومات غير مؤكدة ترددت فى أوساط استانبول ودمشق . لكننا منذ فبراير هذا العام تابعنا اهتمام الحكومة التركية بهذه الجمعية مما أدى إلى القبض على عزيز المصرى . ثم علمنا أن مجلسا عسكريا شكل لمحاكمته فى ابريل ، وحكم عليه بالإعدام . ونظرا لنفوذه بين الضباط النشطين ، ونظرا لحقيقة أنه مصرى، فإن الحكم لم ينفذ واكتفى بترحيله إلى وطنه الأصلى: مصر، منفيا فى حقيقة الأمر .

بهذه الخلفية فى ذهنى استقبلت عزيز المصرى اليوم ، وقد أراد أن يحدثنى عن أهداف جماعته ، ولكنه لم يعطنى تفاصيل كافية عن جمعية العهد ولا عن رفاقه فيها ، وإنما اكتفى بأن قال لى إنه يجىء إلى مفوضا مما أسماه "اللجنة التنفيذية لجمعية العهد" بقصد استكشاف نوايا الحكومة البريطانية تجاه احتمال قيام دولة عربية مستقلة عن تركيا وعن كل القوى الأجنبية ، مع رغبتهم فى إيجاد علاقة خاصة بينهم وبين الحكومة البريطانية فى مجال السياسة الخارجية .

إن عزيز المصرى عرض أمامى تصوره لحدود الدولة العربية المستقلة التى يفكر فيها هو ورفاقه . وقد حددها بخط يمتد شمالا ما بين ميناء الإسكندرونة (جنوب تركيا على شمال البحر الأبيض) ، وولاية الموصل امتدادا إلى حدود فارس . وهو ورفاقه يعتبرون أن قلب هذه الدولة ومكمن قوتها سوف يكون المثلث ما بين بغداد والحجاز ونجد وسوريا . وهم لا يفكرون الآن فى جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن وعسير) لأن هذه المنطقة ممزقة بالصراعات فى الوقت الحالى ، وغير قادرة على الإسهام فى المشروع العربى كما يفكر فيه عزيز المصرى ورفاقه . سألت عزيز المصرى عمن يكون قائد هذه المجموعة ؟ ولم يفصح لى عن جواب .

إن عزيز المصرى متحمس إلى أقصى حد لمشروع الدولة العربية المستقلة . وهو يعتقد أن العرب عموما جاهزون للثورة . ويعتقد أيضا أن غالبية المسيحيين السوريين (فى لبنان) وكذلك الدروز، يؤيدون حركتهم . و لعل عزيز المصرى يبالغ فى هذه النقطة .

إن عزيز المصرى تحدث معى بصراحة عن أن كل ما يريدونه هو بيـان بريطـانى بإعلان حسن النية تجاه الأمة العربية ، وبالحياد فى حالة تحركهم للعمل فعلا فـى طلب الحرية والاستقلال. وقد سألته عما إذا كان يريد منا مساعدات عملية إلى جـانب التأييد المعنوى ؟ وكان تقديره أن أى مساعدة نستطيع تقديمهـا علـى شـكل مسـاعدات مادية ـ خصوصا بالسلاح والذخيرة ـ سوف تكون موضع تقديرهم . وفـى هـذه الحالـة فإنه يطلـب توصيـل الأسلحـة وأية مساعدات أخرى سـرا إلى مكان معين موجود فى العراق أو أى مكان آخر نتفق عليه . وفى مقـابل ذلك فإن عزيز المصرى كان مخولا أن يقول لى بأن الدولة العربية المستقلة بعد تأسيسهـا تتعهد لنـا باحـترام مصالحنـا فـى الهند وأيضا فى فارس ، وأن توفر لنا معاملة تجارية تفضيلية من خلال معاهـدة مـع دولـة عربيـة مستقلـة قـادرة على النمـو بسرعـة . "

□

ويوم ٢٤ أكتوبر عاد عزيز المصرى فاتصل بـ "جلبرت كلايتون" ـ مسئول مكتب القاهرة ـ طالبا مقابلته ، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن تركيا على وشك أن تدخل الحرب أخيرا فـى صـف الألمان . وكتـب "كلايتـون" بنفس التاريخ مذكـرة يقـول فيهـا :

" بادرت عزيـز المصـرى بـك على الفور بسـؤال قلـت له فيه "هـل ينوى العـرب تأييد تركيا عندما تدخل الحرب ؟" وأضفت "إن ذلـك إذا حـدث سـوف يكـون شيئا تأسف له بريطانيا العظمى التى تحتفظ بعلاقات ودية مع العرب ، وهـى لا تريـد أن تتأثر هذه العلاقات بأى خطوات عدوانية تقوم بها تركيـا ." ثـم سـألته مباشـرة أن يقول لى رأيه فى كيف تستطيع الحكومة البريطانية أن تؤكـد للقادة العـرب نواياهـا الطيبـة تجاهـم ؟

إن عزيـز بـك كان صريحا إلى أبعـد الحـدود ، وقـال لى "إنه بدون تنظيم عربـى قادر فإن الاتجاه العربى العام سوف يميـل مـع الأقـوى أيـا كـان . ولـما كـانت تركيـا باحتلالها لأجزاء كبيرة من العالم العربـى هى الأقوى بالأمـر الواقـع النـاشـئ مـن حكمهـا لمعظـم البـلاد العربيـة ، فإن الميـل للأتـراك قـد يفـرض نفسـه بـالضرورة ، خصوصا إذا ما ساعدت تركيا عليه بابراز العامل الإسلامى والضغـط عليه" . ثـم قـال عزيـز بـك "إن الصورة يمكن أن تختلف إذا كـان هنـاك برنـامج كـامل لعمـل عربـى موحـد هدفـه تحريـر البلاد العربيـة مـن السيطرة التركيـة ، وذلـك يتـأتى بتنظيم ثـورة عربيـة عامة تثـير همـة وخيـال العـرب وتكتـل عملهـم نحو تحقيق استقلال بلادهـم" .

وكان رأى عزيز بك "إن العرب يستطيعون تكوين قوة عسكرية لا بأس بها . وإن نواة هذه القوة يمكن توفيرها من الجنود العرب في الجيش التركى ، وبالذات الجيش التركى فى العراق ، ففي أوساط هذا الجيش تسرى أفكار الثورة العربية" . وفى تقدير عزيز بك أنه "فى شهور قليلة يمكن جمع خمسة عشر ألف جندى وتدريبهم ليكونوا نواة جيش الثورة العربية . ثم إن هذا الجيش العربى عندما يقوم سوف يصبح الركيزة التى تتجمع حولها كل القيادات العربية الدينية أو القبلية" . وقد أضاف عزيز بك "إنهم لا يريدون قوات من الإمبراطورية البريطانية تدخل بلادهم للمساعدة على الثورة ضد الأتراك ، لأن ذلك يمكن أن يعطى الانطباع بأن بريطانيا تسعى إلى ضم العالم العربى إلى ممتلكاتها ، وليس إلى مساعدتهم على الاستقلال" . "

وختم "كلايتون" تقريره عن المقابلة بقوله :

"إننى استمعت إلى عزيز بك بكل الاهتمام الذى يستحقه رجل فى مكانته ، ولكنى لم أعده بشئ لأن تركيا لم تدخل الحرب بعد ، وأى خطوة من جانبنا الآن يمكن أن تتسرب وتحدث من المشاكل ما لا نستطيع توقعه . وكل ما وعدته به هو أن نظل على اتصال حتى تتضح الأمور ."

□

وبطبيعة العلاقات بين إدارات الإمبراطورية البريطانية فإن الاتصالات بين الكولونيل "عزيز بك المصرى" ممثلا لتنظيم "العهد" ، وبين كل من "راسل" و"كلايتون" ، وصلت تفاصيلها إلى الهند . وفى آخر نوفمبر كتب رئيس مكتب دلهى الكولونيل "بيرسى كوكس" تقريرا إلى نائب الملك ـ اللورد "هاردنج" ـ تم تحويله إلى لندن ، قائلا فيه :

" إننا فى حكومة الهند لا نرى تشجيع القوميين العرب . إن القوات البريطانية الآن احتلت البصرة ورفعت العلم البريطانى عليها دون أى مقاومة أو شعور بالعداء من السكان المحليين . بل على العكس فإن هؤلاء السكان نظروا إلينا كأصدقاء وحماة . ولم يعد هناك فى إقليم البصرة الآن أى أثر للإدارة التركية .

ولا بد أن يكون واضحا أن الجمعيات السرية العربية لها مثيلات هنا فى الهند ، وقد قامت الجمعيات الوطنية فى الهند بإضرابات إجرامية كما تذكرون فى الفترة ما بين ١٩٠٧ و١٩٠٩ . وكان ردنا عليهم هو إغلاق مقارهم وحظر منشوراتهم ومنع اجتماعاتهم وتظاهراتهم . وقد لجئوا إلى العمل المسلح وقاموا بعدوان على حياة نائب الملك اللورد هاردنج .

وإنه لمن الصعب علينا أن نتصور كيف يمكن أن نساعد التنظيمات القومية العربية على العمل من أجل الاستقلال ، ثم نمنع ذلك بالنسبة لمثيلاتها فى الهند . ورأينا هو أن سلامة الهند تقتضى الحذر فى إعطاء أى تعهدات باستقلال العرب، لأن ذلك يمكن أن يصل بالعدوى إلى شبه القارة الهندية . "

وأضاف اللورد "هاردنج" فى رسالة إلى لندن مهدت لمذكرة "بيرسى كوكس" ملاحظة قال فيها : "إنه يرى أن القوميين العرب يدخلون العراق فى مشروعاتهم ، بينما منطقة ما بين النهرين (دجلة والفرات) داخلة فى اختصاص حكومة الهند ، وليس من حق القاهرة إقحام نفسها فى شأن مصيرها" .

ورد مكتب القاهرة فكتب إلى لندن يقول : "إن قادة الحركة القومية العربية هنا من رأيهم أن نزول القوات البريطانية فى البصرة ، إلى جانب تحركات عسكرية ظاهرة فى البحر الأحمر ، تعطى الانطباع للعرب بأن الحكومة البريطانية تطمح لضم أراضيهم إلى ممتلكاتها. وهذا لا يساعدهم على حشد الرأى العام العربى فى الثورة على تركيا ."

ولعل "كلايتون" رأى ألا يكتفى بنقل ملاحظات سلبية للقوميين العرب ، وهكذا كتب برقية قصيرة إلى لندن يقول فيها :

" إذا كان هناك جهد مطلوب ومرغوب فيه هنا من جانب الحركة القومية العربية فإننا نرجو توضيحه وتزويدنا بتوجيهات محددة بشأنه . إن عزيز بك المصرى عنصر مهم جدا ، لكنه غير قادر على العمل إذا كنا سنعرقل جهوده وجهود زملائه ."

ورد وزير الخارجية البريطانى السير "إدوارد جراى" على ذلك ببرقية منه إلى المعتمد البريطانى فى مصر السير "هنرى ماكماهون" ــ وهو المسئول عن المكتب العربى وعن "كلايتون" ـ جاء فيها :

" تستطيع أن تقدم أية تأكيدات تقترحها لعزيز المصرى باسم الحكومة البريطانية . إن الحركة العربية لا بد من تشجيعها بكل وسيلة ممكنة ، ويمكن لعزيز المصرى أن يبدأ فى تنظيم القوة التى يريدها . وتستطيع أن تضع تحت تصرفه ٢٠٠٠ جنيه استرلينى إذا كنت ترى أن ذلك مفيد . ولك أن تطلب منه أن يظل على اتصال بمكتب القاهرة وبالمعتمد البريطانى ، وأن تتعهد له بأننا سوف نساعد الحركة القومية العربية بمقدار ما يبدو من تأثيرها ."

ودعى "عزيز المصرى" إلى مقابلة "كلايتون" الذى أبلغه باستعداد الحكومة البريطانية لمساعدة القوميين العرب . وكان أول ما طلبه "عزيز المصرى" هو مساعدته فى الاتصال بالضباط العرب العاملين فى الجيش التركى فى العراق ، وبواحد منهم بالذات هو فى نظره أنشطهم ، وهو ضابط شاب اسمه "نورى السعيد" .

□

كان لا بد للاتصال بالضابط العراقى "نورى السعيد" (الذى أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء العراق) من تعاون حكومة الهند التى كانت قواتها فى ذلك الوقت عاملة فى البصرة ، وأدى ذلك إلى إخطار نائب الملك فى الهند ورئيس مكتب دلهى - "بيرسى كوكس" - بما يدور فى القاهرة من اتصالات مع القوميين العرب . ولم يكن نائب الملك فى الهند ولا رئيس مكتب دلهى على اتفاق مع سياسة المعتمد البريطانى فى مصر ولا مكتب القاهرة . وعلى أى حال فإن "بيرسى كوكس" (رئيس مكتب دلهى) تمكن من العثور على الضابط العراقى الشاب "نورى السعيد" وسهل له أن يجىء ليلقاه فى البصرة . وكتب "بيرسى كوكس" بعد ذلك تقريرا عن المقابلة قال فيه :

" قابلت نورى السعيد . بدا لى ضابطا حالما له ميول اشتراكية . إنه شاب فى حوالى الخامسة والعشرين سنة من العمر ، وهو يعانى من مرض فى الصدر ، وبدا لى أوروبيا فى مظهره . وقد حدثنى عن المشروع العربى الذى يشارك فيه هو ورفاق له أبرزهم عزيز المصرى الذى تعرفونه من القاهرة . وقال إن هدفهم هو تحقيق أهداف الأمة العربية بصفة عامة . وأبدى لى موافقته على قيامنا باحتلال البصرة إذا كان ذلك بداية لتشجيع عمل عربى يحقق تحرير العرب الذين يريدون أن يحتفظوا بعلاقات ودية معنا . وقال لى إنه يستطيع أن يساعد على سحب كل الضباط العرب الذين يخدمون فى جيش جاويد باشا (والى بغداد) ، كما أنه يستطيع مع عدد منهم أن يحصلوا على ولاء كثيرين من قادة القبائل فى وادى الفرات للتعاون معهم ، وإنه بالتنسيق بين الضباط وشيوخ القبائل فإن قيادة الثورة العربية سوف تستطيع أن تشد إليها أحلام الشعوب العربية الراغبة فى الاستقلال .

ومن جانبى ، فإننى أنظر إلى هذه الأفكار والمشروعات بشك كبير ، وأراها خيالية وغير عملية . ولست أعتقد أنه سيكون فى استطاعة الضباط والشيوخ أن يتعاونوا معا . إن تصورات الضباط العرب ، بمن فيهم نورى السعيد ، عن أن احتلالنا للبصرة هو مقدمة لتحرير العرب جموح إلى الخيال سقيم . فنحن نزلنا هناك لتأمين الهند ، وهذا يتأتى بضم العراق إلى ممتلكات التاج البريطانى . وبصفة عامة فإننى أخشى من كل هذا المشروع العربى ، وأقترح عليكم حتى تنجلى الأمور تجميد مشروعات عزيز المصرى ورفاقه ، ومنعه إذا أمكن من مغادرة مصر."

وفى هذه اللحظة كانت حكومة الهند هى الأكثر نفوذا فى لندن . وهكذا فإن وزير الخارجية "إدوارد جراى" ما لبث أن بعث للقاهرة ببرقية حازمة جاء فيها بالنص :

" فى الوقت الحاضر ، وحتى صدور تعليمات أخرى ، يجب الامتناع عن إعطاء أى تشجيع محدد لعزيز المصرى ."

٣

مـــــارك سـايكـــــــــس

" مـن الذى قـال لنائـب الملـك فـى الهنـد إننـا نريـد حكومـة عربيـة موحـدة ومستقلـة؟"

(تأشـيرة لوزيـر خارجيـة بريطانيـا السـير "إدوارد جراى" علـى مذكـرة مـن الحاكـم العـام البريطـانى للهنـد)

مع دخـول تركيـا الحرب عاد المركز الإمبراطورى فـى القاهـرة يسـتعيد ثقلـه ووزنـه فـى صنـع السياسة البريطانية . وبالفعل فإن القاهــرة فـى بدايـة سـنة ١٩١٥ تحولـت إلى قيـادة متقدمة للجهـدين العسكرى والسياسـى للحلفاء . ولاح على الفـور أن ما توقعته الاسـتراتيجية البريطانية من هجوم تركى فى اتجاه قناة السويـس على وشك أن يتحقق . وبالتـالى فـإن قـائد القوات البريطانية فى مصـر ـ الجنرال "ماكسويـل" ـ صـدرت إليه الأوامر بأن يسـتعد لصـد هجوم تركـى محتمل ، وأن يكون جاهـزا بعـده لأخـذ زمـام المبـادرة والتقـدم عـبر سـيناء إلى فلسطـين .

وهكذا أصبح مستقبل الممتلكات التركية فى المشرق مطروحا للمناقشة وللقرار . ومع تدفـق قوات عسكرية من كـل أرجـاء الإمبراطوريـة علـى مصــر استعدادا لملاقـاة الهجـوم التركـى المحتمل والـرد عليه ، فإن النشـاط السياسـى فى القاهـرة بلـغ ذروة عالية :

١ ـ كان مكتب القاهرة طرفا فى التنسيق الضرورى الذى قامت به لنــدن مـع بـاريس ، فالظروف فرضت بنفسـها قيام مسرح رئيسى للعمليات خارج أوروبا . ثم إنهـا طرحـت واقعيـا

ضرورة الاتفاق على خطوط عامة لقسمة التركة العثمانية . وكانت لندن وباريس قد اتفقتا على خطوط رئيسية :

- إنه لا بد من فصل بين "الساحل" و"الداخل" فى خريطة جديدة للعالم العربى . فالقوى الأوروبية يمكن أن تتقاسم النفوذ فى "الساحل" المطل على البحر الأبيض والمحيط به.[٢] وأما "الداخل" بكل ما فيه من الصحارى والقبائل فأمره معقد ويمكن تركه للعرب إذا ما ساعدوا على هزيمة تركيا .
- وهكذا أضيف إلى تقسيم العالم العربى خط رأسى مواز للخط الأفقى .

ـ الخط الرأسى يعزل "الساحل" عن "الداخل" .

ـ والخط الأفقى يعزل مصر عن سوريا (بوطن قومى لليهود فى فلسطين طبقا للسياسة البريطانية من "بالمرستون" إلى "دزرائيلى" إلى "لويد جورج") .

وكانت فرنسا تريد سوريا الشمالية وتعتقد أن لها حقوقا تاريخية فى بيروت وجبل لبنان وما حولهما إلى وديان الشام ، بما فى ذلك دمشق وحمص وحلب وحماة والموصل (شمال العراق) .

وفى مقابل ذلك فإن بريطانيا كانت تريد إلى جانب مصر والسودان منطقة ما بين النهرين (العراق) والخليج . كما أن عينها كانت على فلسطين ، فهى لازمة لخطتها فى الفصل ما بين مصر وسوريا .

٢ ـ ولم يكن مكتب القاهرة راضيا عن هذه الخطوط العريضة ، معتقدا أن لندن أعطت لباريس فيها أكثر مما تستحق . ولأن باريس كانت تشك فى النوايا البريطانية ، فإنها أرسلت إلى القاهرة خبيرا مقيما فى المفوضية الفرنسية هو "جورج بيكو" . وفتح "جورج بيكو" فى القاهرة فعلا مكتب اتصال كبيرا ، وراح يقيم منه علاقات وثيقة مع كثيرين من اللاجئين من الشام ، وبينهم كثيرون من الشخصيات المسيحية التى اختارت القاهرة موطنا فى ذلك الوقت هربا من الاضطهاد العثمانى . ثم إنه راح يرسم مع بعض قياداتهم خططا لمستقبل الحكم فى شمال سوريا بعد تحريرها من السيطرة العثمانية ..

٣ ـ وكان مكتب القاهرة متمسكا بحقه وبسلطته فى العمل . وفى هذا الوقت كان همه بالدرجة الأولى منصرفا إلى محاولة الاتصال بالداخل العربى رغم ما بدا من تراض على مستقبله ومصيره بين باريس ولندن .

---

(٢) كانت الإمبراطورية البريطانية قد طبقت هذه السياسة بالفعل فى الخليج، من رأسه عند البصرة نازلة منها إلى مضيق "هرمز" ومتجهة بعد ذلك غربا حتى عدن فى طوق ساحلى محيط بشبه الجزيرة العربية كله

كان مشروع "عزيز المصرى" قد أوقف ، لكن هناك بدائل غيره راحت تطرح نفسها. وكان من أهم البدائل التى طرحت نفسها أن تركيا التى سارعت تعزز سيطرتها على ممتلكاتها الشرقية ، رأت استبعاد الشيوخ وزعماء القبائل ممن راودها الشك فى ولائهم لها، وكان من بينهم والى مكة الشريف "حسين بن عون" . وبحكم آلية الفعل ورد الفعل فإن الشريف الذى كان يضمر الكراهية لتركيا ويخشى من إقدامها على خلعه لأسباب محلية بحتة ، مضى يساير ابنه الثانى الأمير "عبد الله" الذى كان من رأيه الاتصال بالإنجليز فى مصر والحصول على تأييدهم كثقل مواز لأية تصرفات تركية إزاء والى مكة .

وكان ذلك يتفق على نحو أو آخر مع خطط بريطانيا فى الاهتمام بالداخل الذى لم يتم الاتفاق عليه بين باريس ولندن ، على عكس الساحل الذى تم الاتفاق عليه

وفى البداية فإن مكتب القاهرة كان على استعداد لأن يتصل بالشريف "الإدريسى" والى عسير . ولكن حكومة الهند اعترضت طريقه مرة أخرى لأن عسير ملاصقة لعدن التى تحتلها بالفعل قوات حكومة الهند .

٤ ـ فى نفس الوقت فإن القوميين العرب من أنصار الاتجاه الإسلامى فى مصر ، وزعيمهم فى ذلك الوقت هو الشيخ "رشيد رضا" (تلميذ الإمام "محمد عبده" ومحرر جريدة "المنار" العتيدة ـ راحوا يتصلون بمكتب القاهرة وشاغلهم هو المحافظة على الخلافة ونقلها من الخلفاء الأتراك إلى خلفاء من المسلمين . وكان مصير الخلافة يطرح نفسه بالفعل بعد هزيمة تركيا . وكان هناك إحساس عام بأن مستقبل الخلافة يشغل بال جماهير عربية وإسلامية واسعة . وكان على الحكومة البريطانية أن تواجه هذه المشاعر بتصرف يهدئ الخواطر ويطمئن جموع المسلمين فى العالم العربى وخارجه .

٥ ـ ومن أثر هذا كله أن وزير الخارجية البريطانى السير "إدوارد جراى" بعث ببرقية إلى السير "هنرى ماكماهون" المعتمد البريطانى فى مصر ، جاء نصها على النحو التالى :

" إنك مخول إذا وجدت ذلك مناسبا أن تعلن أن حكومة صاحب الجلالة سوف تصر ضمن شروطها بعد النصر على أن تقوم حكومة إسلامية مستقلة تنتقل إليها مسئولية الخلافة . إنك لست مطالبا الآن بأن تقول أى شىء عن حدود هذه الدولة الإسلامية ، و يكفيك أن تقول بطريقة دبلوماسية إن أمر الخلافة سوف يقرره المسلمون ودون تدخل من قوى أجنبية . وإذا قرر المسلمون قبول خلافة عربية ، فإن هذا القرار سوف يكون موضع الاحترام من جانب حكومة صاحب الجلالة ."

وبـدأت هذه الخطـوط تتلاقى فى القاهـرة عندما جاء الأمير "عبد اللـه" إليها لفتـح أول قناة اتصال بين والـده الشريف "حسين" والى مكـة وبين دار المعتمـد البريطـانى فـى القاهـرة ممثـلا للحكومـة البريطانيـة . وبـدأ الاتجـاه إلى الهـاشميين فـى مكـة (الشـريف "حسـين" وأبنـاؤه ، وبالذات "عبد اللـه" و"فيصـل") ، لكى يكونوا الركـيزة المبدئيـة لفكـرة الخلافـة الإسلاميـة .

وفى اتصالات لاحقة مع مكتب القاهرة قـدم الشـريف "حسـين" خريطـة لمستقبل دولـة عربية إسلاميـة تنتقـل إليها خلافـة المسلمـين . ولاحـظ مكتب القاهـرة على الفور أن خريطـة الشريف "حسين" تتفـق إلى حـد كبير مع ما كان يقول به كـل مـن "عزيـز المصـرى" والشـيخ "رشيد رضـا" ، رغم أن أولهما كان يمثل التيار القومـى ، والثـانى يمثـل التيـار الإسـلامى . وكتب السير "هنرى ماكماهون" إلى وزيـر الخارجيـة البريطـانى ــ السـير "إدوارد جــراى" ــ يقـول لـه :

" إن كبير خبرائى فى الشئون العربية "رونالد ستورز" (وهـو شخصية بـارزة فى المخابرات البريطانية فى الشرق الأدنـى ومؤلـف كتـاب شـهير هـو "مشرقيــات" Orientations) يرى أن هناك تطابقا واضحـا بين الأفــكار التـى يعرضهـا الشـيخ "رشيد رضـا" وبين خطـة الشريف "حسين" ، خصوصا فيمـا يتعلـق بمسألـة حــدود الدولة العربية المستقلة المقترحة ، الأمر الذى يقطـع بأن الشيخ على اتصال بشريـف مكـة . كذلك فإن هذه الخطط لا تبتعد كثيرا عما قاله "عزيـز بـك المصـرى" . ويظهـر أن هناك اتصالا من نـوع ما بين الجميـع ."

وكانت الخريطة الأولى التى بعـث بها الشريف "حسـين" إلى القـاهرة لا تتوافـق بـالطبع مع التنسيق المتفق عليه بين لنـدن وباريـس . فلم يكن فيها ذلك الفـاصل بـين مصـر وسـوريا (أفقيا) ، ولا كان فيها ذلك الفاصل بين الساحـل والداخـل (رأسيا) فى العالم العربـى . وإنمـا كانت خريطة الشريف "حسين" تشمل سوريـا كلهـا بمـا فيهـا فلسطين ، والعـراق ، وشبه الجزيرة العربية . ثم إن الخريطة لم تدخل مصـــر فـى إطارهـا لأن مصـــر كـان لهـا وضـع خاص مختلف إلى حـد ما عن بقيـة العالم العربـى ، كما أن الأسرة المالكة فيها ـ وهــى أسـرة "محمد على" ـ كانت ذات وضع متميـز يفـرق بينها وبين كل الأسـر القبليـة الحاكمـة وقتهـا فى المنطقـة .

وكانت الخطـط والخرائـط لا تزال بعد فــى مراحـل الإعـداد الأولى ، ومـع ذلـك فـإن مـا تسرب من أمرها دعـا أطـرافا كثيرة إلى التطـير من أمرهـا . وكـان أول المتطـيرين هـو حكومـة الهنـد التى لم تكن تريد بالقطع حكومة إسـلامية عربيـة مسـتقلة ــ حتـى وإن كـانت مواليـة لبريطانيا ـ مجـاورة لشبه القـارة الهنديـة . وتعللـت حكومة الهنـد فى معارضتهـا لما يجرى

فى القاهـرة من مناقشات حول مستقبل العالم العربـى ومستقبل الخلافة ، بأن صديقهـا "ابـن سعود" حاكم نجـد ، وهو على صلـة وثيقـة بها ، لن يقبل بأى حال من الأحوال أن يعطـى بيعته للشريف "حسين" خليفة للمسلمين ، ولن يقبـل بنفس الدرجة سلاطين وشـيوخ اليمـن وعسـير وغيرهما من الأقاليـم العربية الواقعة فى اختصاص حكومـة الهنــد .

وعلـق "جـراى" وزيـر الخارجية البريطانى على هذه البرقية بعبـارة كتبها على هامشـها قـال فيها : "من الذى قـال لنـائب الملـك فـى الهنـد إننـا نريـد حكومـة عربيـة موحـدة ومستقلـة؟"!

وكان التعليـق بليغـا فى دلالتـه !

وأما مصدر المعارضة الثانى فقد كان باريـس التى أحسـت أن بريطانيـا تجـرى اتصـالات ومشاورات وترتيبات فى المشرق العربـى دون تشاور معها .

وهنا طلـب "جورج كليمنصو" ـ رئيس الوزارة الفرنسـية ـ مـن نظـيره البريطـانى ضـرورة الاتفاق بين الحليفين الكبيرين ، على مستقبل المنطقة بطريقة أوضـح وأصـرح . ووافقت لنــدن على الطلب الفرنسـى حتى لا يتعقد مسار الحــرب ، وتقـرر تـأليف لجنـة بريطانيـة فرنسية تجتمع فى باريس لكـى تضـع خريطـة جديـدة للشرق الأوسـط تعـدل فـى قسمـة التركـة العثمانية بين القوتين الكبيرتين . واختارت فرنسا رجلها فى هذه اللجنـة وهـو قنصلهـا العـام فى القاهـرة "جورج بيكـو" ، كما أن الحكومة البريطانية اختارت السير "مارك سايكس" لكى يكون ممثلها فى مقابل "بيكـو" .

□

لا يزال ظهور "مارك سايكس" على مسرح الشرق الأوسـط والدور الذى قـام بـه فـى تلـك اللحظة لغـزا من الألغاز . ولم يكن "مارك سايكس" يهوديا وإنما كان كاثوليكيا ، وكان إضافة إلى ذلك صهيونيا بالمعنى المسيحـى . ويمكن أن يقال إضافـة إلى ذلـك إن التأثـيرات اليهوديـة عليه كانت غالبة ، فوالدته الليدى "هنريتا سايكس" كانت لسنوات طويلـة عشـيقة للسياسـى البريطانى الشهير "بنجامين دزرائيلى" أول وآخر يهودى يتولى رئاسـة الـوزارة فـى بريطانيـا (وذلك طبقا لما ورد فى تاريخ حياته المعتمد الذى نشرته "جين رايدلى" فى لندن سنة ١٩٩٥). وكان "مـارك" ابن "هنريتا" موضع اهتمام "دزرائيلى" الذى ظـل فى رئاسة الوزارة أو خارجها سياسيـا واسع النفوذ شديد الارتبـاط بـالفكرة الصهيونيـة ، مؤمنـا وعـاملا مـن أجـل توطـين اليهود فى فلسطـين . ومن المعقول أن كثيرا من قناعات "دزرائيلى" رسخت فى وعـى "مـارك

سايكس" من أيام طفولته وشبابه ، كما أن شخصيته تأثرت أيضا بروح المغامرة واللامبالاة التى اشتهر بها "دزرائيلى" .

وقبل الحرب كان "مارك سايكس" قد أصبح عضوا فى مجلس العموم البريطانى ، واشتهر ـ بالفعل ـ بتعاطفه مع اليهود ومع الحركة الصهيونية . وكانت صلاته وثيقة بكثيرين منهم ، وأولهم اللورد "روتشيلد" .

وطبقا لرواية "مارك سايكس" نفسه فإنه فور نشوب الحرب التحق بفرقته وذهب معها إلى خنادق القتال فى فرنسا . وذات يوم من ربيع سنة ١٩١٥ (بعد نشوب الحرب بعدة شهور) كان اللورد "كيتشنر" ـ قائد القوات البريطانية السابق فى مصر والقائد العام للجيش البريطانى وقتها ـ يتفقد مواقع الجبهة فى فرنسا ، ووصل إلى مركز قيادة متقدم ، فإذا عينه تقع على "مارك سايكس" . ويروى "مارك سايكس" فى مذكرة كتبها أن اللورد "كيتشنر" فوجئ به موجودا فى جبهة القتال ، فوجه إليه إحدى نظراته التى اشتهرت بحزمها ونفاذها، وقال له بحدة : "سايكس ، ماذا تفعل هنا؟" ورد "سايكس" قائلا لـ "كيتشنر" : "أؤدى واجبى يا سيدى" . وقال له "كيتشنر" بسرعة : "مكانك فى هذه الحرب ليس هنا ، مكانك فى الشرق ، فاذهب إلى هناك" . ثم استطرد "كيتشنر" محددا أمره وقائلا لـ "مارك سايكس" : "سلم كتيبتك الليلة إلى نائبك وتوجه إلى لندن ، وستجد هناك تعليمات تنتظرك بما يتعين عليك أن تعمله" .

□

وعندما وصل "مارك سايكس" إلى لندن عرف أن مهمته فى الوقت الراهن هى رسم خريطة الشرق العربى بالتنسيق مع فرنسا ، بما فى ذلك الاتفاق على قسمته بين القوتين. وسافر "سايكس" من لندن إلى القاهرة ، ثم عاد بعد ذلك إلى باريس ليلتقى بـ "جورج بيكو" ـ الذى أصبح قنصل فرنسا فى القاهرة ـ ويبدأ معه المفاوضات التى انتهت بينهما بالاتفاقية التى اشتهرت باسم "سايكس ـ بيكو" .

إن الاتفاقية التى وقع عليها الاثنان ظلت سرا من أسرار الحرب حتى قامت حكومة "سان بيتسبرج" المؤقتة بعد سقوط حكم "آل رومانوف" فى روسيا ، وبعد قيام الدولة البولشفية فيها ، بإذاعة نصوصها وخرائطها . وأحدثت إذاعتها صدمة كبرى فى العالم العربى.

وكان أكثر من أصيبوا بالصدمة هو المعتمد البريطانى فى القاهرة السير "هنرى ماكماهون"، بالإضافة إلى مكتب المخابرات فيها (مكتب القاهرة) الذى يشرف عليه

"جلبرت كلايتـون" ، "لأن ما فيها جاء متناقضـا فـى كثير منـه مـع كـل مـا كـانت تجـرى مناقشته مـن خـلال الاتصـالات مـع الشـريف "حسـين" وأبنائـه ، وبـالذات "عبـد اللـــه" و"فيصـل" . "

وبالفعل فإن الأطراف العربيـة جميعها أخذت على غـرة ، فخريطة "سايكس ـ بيكـو" التزمت بالتقسيم بين "الساحل" و"الداخل" ، وهو أمـر لم يكن الشريف "حسـين" ، ولا كـان القوميـون والإسـلاميون العــرب ــ مـن أنصـار مشـروع الدولــة العربيــة المستقلــة والخلافــة الإسلاميـة العربية ـ على درايـة بـه . ثم إن الخريطـة ــ بعـد ذلـك ــ كـانت قاطعـة فـى أن فرنسا سوف تحصـل على سوريـا ، وهذا أمـر يعارضـه الشريف "حســين" ، كما يعارضـه كل الثوار العـرب ، وهو كذلك أمـر لا يوافق عليـه المركـز الإمـبراطورى فـى القـاهرة ، وعلـى رأسـه المعتمد البريطانى فى مصـر السير "هــنرى ماكمـاهون" ، ومكتـب المخـابرات (مكتب القـاهرة) الـذى يرأسـه "كلايتـون". وكـان رأى هـؤلاء جميعـا ، ومعهـم القـائد العـام للقـوات البريطانية فى مصـر، أن فرنسا بوجودها فى سوريا سوف تكون قريبة أكــثر مما ينبغـى مـن قناة السويس ، مما يعطيها الفرصة لإثارة المتاعب أمام بريطانيا فى مصــر ، مع العلم ــ علـى حد تعبير السير "هـنرى ماكماهون" ـ بأن "أصدقاء اليوم يمكن أن يصبحوا أعـداء الغـد ، وأن الحلفاء قد يتحولون إلى أضـداد إذا ما تغيرت الظـروف" .

وكانت ذريعة المعتمد البريطـانى فـى مصــر وكذلـك مكتـب القـاهرة فـى تحفظهمـا إزاء الاتفاقية أن نصوصها ظلـت سـرا عليهما ـ رغـم مسؤلياتهما الإمبراطوريـة ـ ، ثم إن الشريف "حسين" وكافة الأطـراف العربيـة القوميـة والإسلاميـة سوف يعتبرون المعاهدة خيانـة لهم ، وفى هذا الوقـت الحـرج بالذات فإن ذلـك قـد يـؤدى إلى مضاعفـات خطـيرة .

والغريب أن المعتمد البريطانى فى القاهرة تلقى تعليمات بإبلاغ الشريف "حسين" أن مـا قيل عن خريطـة مزعومة تـم الاتفاق عليها لتقسيم المشرق بين بريطانيا وفرنسا ، هو "محــض دعايـــة مغرضـة قـام بهـا البلاشفـــة الملاحـدة فـى روسيـا لإفسـاد الصداقــة العربيــة ــ البريطانيـة".

إن الشريف "حسـين" ـ رغم شكـوك راحت تعاوده بين حـين وآخر ـ كان على اسـتعداد لأن يصـدق ما تقوله الحكومة البريطانية . وربما أنه كان لا يزال بعد مؤمنا بـ "وعـد الشـرف" الذى تقطعه الحكومات الكبرى على نفسها لأصدقائها فى الحـروب . أو ربما أن وعيـه بأمـور السياسة الدولية كان ما زال مأخوذا بتجاربـه القبليـة السـهلة والبسـيطة . وأمـا الشـخصيات العربية من القوميين والإسلاميين الذين التفوا حوله وجعلوا منه رايـة ينـاضلون تحتهـا ، فقـد كانت صدمتهم كبيرة ، وضاعفت من وقـع الصدمـة حادثة غريبـة وقعـت فـى ذلـك الوقـت . فقـد حـدث والجيش البريطانى يتقدم تحت قيادة الجـنرال "اللنبى" إلى تخـوم فلسـطين أن

اقتحم الأتراك مبنى القنصلية الفرنسية فى بيروت ، فإذا هم هناك يعثرون على قائمة كاملة بأسماء الزعماء السوريين الذين يتعاونون فى حركة الثورة العربية مع الشريف "حسين" ، وكان أن قاموا بتشكيل محكمة عسكرية أصدرت حكم الإعدام على أربعة عشر من هؤلاء الزعماء ، وجرى تنفيذ الحكم فيهم فعلا بعد أيام من صدوره ، والتف حبل المشنقة على صفوة من الزعماء السوريين من أنصار دولة الخلافة العربية الجديدة . وأدى ذلك ومضاعفاته إلى نوع من الإحباط فى صفوف الثورة ، تبدى ضرره فى العلاقات بين العناصر القومية من الضباط والتجار والأعيان والموظفين ، وبين القيادة القبلية المتمثلة فى الشريف "حسين" وأبنائه .

كان هناك اعتقاد جازم فى صفوف الثورة العربية ومواقعها فى الشام ، بأن الأتراك لم يعثروا على هذه القائمة بأسماء القادة السوريين مصادفة ، وإنما كان الأمر ترتيبا فرنسيا قصد منه الخلاص من العناصر القومية المحركة للثورة والفاعلة فى صفوفها ، والمعارضة لتقسيم سوريا ، والمطالبة بدولة عربية موحدة . ومن المفارقات أن مكتب القاهرة البريطانى كان مشاركا فى هذه الظنون ، ولكنه مع ذلك أكمل اتصالاته مع الشريف "حسين" وكأن شيئا لم يحدث .

٤

الشريـــف حســـــين

" المفاوضة على الحـدود والتخـوم سابقـة لأوانهـا وهى مضيعـة للوقت الآن "

(المعتمد البريطانى فى مصـر "ماكمـاهون" فـى خطاب إلى شريـف مكـة)

يستطيع أى قارئ لمجموعات الوثائق البريطانية لرئاسة مجلس الوزراء ولوزارة الخارجية ولوزارة المستعمرات ولوزارة الحربية ولوزارة شئون الهنـد ، أن يكتشف بدون عناء أن السياسة البريطانية ، لم يكن فى نواياها ولا فى خططها ما يشير إلى أنها تريد أن تفى بكل التعهدات التى قطعتها على نفسها أثناء الحرب . يستوى فى ذلك تلك العهود التـى اتفقت عليهـا مـع فرنسا بمقتضى اتفاقية "سايكس ـ بيكـو" ، أو تلك التى أعطتها لقيـادات الثـورة العربيـة فـى ذلك الوقت : الشريف "حسـين" وأبنـاؤه ، أو "عزيز المصـرى" ورشيد رضـا" ، وغيرهـم .

والشاهد أن أكثر ما يكشف الرغبات الحقيقية للحكومة البريطانية ، هو مجموعة محاضر وزارة الحـرب التى ناقشت الاستراتيجية العليا لبريطانيـا فـى منطقـة الشـرق الأوسـط . وقـد اعتمدت هذه المناقشـة بالدرجة الأولى على تقرير قدمه اللورد "كيتشـنر" وزير الحربيـة ، وهـو فى نفس الوقت خبـير بقضايا المشرق من تأثير خدمته الطويلة فى مصـر .

وفى مجموعة الوثائق السرية لمجلس الحرب البريطانى ، (مجموعة الوثائق التى تبدأ من محضـر اجتماع لمجلس الـوزراء رقـم ١/٢٧ (مجلس الوزراء) إلى برقيـة وزارة الخـارجيـة رقـم م س ٦٣٥٤٩) ـ وهى مجموعة يضمها دولاب كامل فى محفوظات سنوات الحـرب وتصل إلى

قرابة ثلاثة آلاف صفحة ـ فإن صورة النوايا والخطط البريطانية الحقيقية تتكشف على النحو التالى :

١ ـ إن بريطانيا يجب أن تحتفظ بسيطرة فاعلة على الساحل السورى بدءا من فلسطين وانتهاء بالإسكندرونة على الحدود التركية ، فتلك ضرورة لتكملة سيطرتها على الساحل المصرى فى شمال أفريقيا . وأقصى ما يمكن أن تسمح به بريطانيا هو أن تترك لفرنسا جزءا من ساحل سوريا الشمالى تحت اشتراطات معينة . ولما كان احتلال القسم الأكبر من الساحل السورى بأكمله قد يثير مشاكل مع فرنسا ، فإن مواقع منه يمكن أن يسمح لها بطابع خاص يستجيب لمطالب السيطرة البريطانية . (وكان التفكير الذى ورد فى مناقشات مجلس الحرب هو أن يكون هناك موزاييك من القوميات والأديان فى منطقة الساحل . وقد أشار اللورد "كيتشنر" فى هذه النقطة إلى حبات عقد بينها : مسلمون فى سيناء ــ يهود على ساحل فلسطين الجنوبى ـ مسيحيون فى وسط الساحل السورى ـ طوائف عربية غير سنية فى شمال الساحل السورى ـ ثم يكون من شأن هذا الموزاييك المتجاور وربما المتنافر أن يجد لنفسه مصلحة بشكل من الأشكال مع بريطانيا تحقق هدفا مزدوجا : يتخفف الموزاييك الساحلى من ضغط الداخل عليه ، وفى ذات الوقت فإن ذلك يعطى لبريطانيا ـ إذا استلزمت مصالحها ـ منافذ تضغط منها على هذا الداخل نفسه).

٢ ــ إن الأماكن المقدسة لكل الأديان فى الشرق يجب أن تكون تحت الحماية البريطانية. وعلى لسان "كيتشنر" نفسه فقد وردت عبارة قال فيها أثناء مناقشات وزارة الحرب : "إن الأماكن المقدسة للـ"محمديين" (كتبت فى محضر الجلسة Mohametans) فى مكة وفى المدينة يجب أن تكون تحت الحماية البريطانية بطريق غير مباشر لمراعاة التعصب الإسلامى . وكذلك يجب أن تكون كربلاء والنجف فى العراق . ونفس الشىء ينطبق على كنيسة القيامة وقبة الصخرة وحائط المبكى فى القدس . فذلك يعطى الإمبراطورية البريطانية حق أن تواجه العالم باعتبارها حامية كل المقدسات الدينية ."

٣ ـ إن بريطانيا يمكن لها أن تفكر جديا فى التمهيد لإقامة خلافة إسلامية عربية شريطة أن تجد "البيت الإسلامى" الذى تعطيه تأييدها فى مقابل ضمان ولائه لها . ومن المفهوم أن يكون قيام الدولة العربية الإسلامية محصورا فى الداخل الصحراوى من العالم العربى ، فهذه المنطقة بين الخليج الفارسى والبحر الأحمر سوف تظل مهمة للإمبراطورية ولضرورات الدفاع عنها .

٤ ـ إن بريطانيا لا بد أن تضمن سيطرتها على ما بين النهرين (يقصد العراق) لأن هذه هى المنطقة التى يمكن منها منع روسيا من الوصول إلى المحيط الهندى . ولا بد لبريطانيا أن تمد فيها وتحت إشرافها خطوط مواصلات ـ ضمنها سكك حديدية تمتد من الموصل إلى البصرة ـ لربط شبكة المواصلات الإمبراطورية .

□

كانت هذه هى الخطوط الاستراتيجية . وأما أساليب تنفيذها فإن الوثائق البريطانية تتكفل باعطاء صورة عنها ، وبالذات الوثيقة رقم ٢٧٦٨/٧٨٣ - ٣٧٩ ، وهى تحمل تعليمات موجهة إلى السير "هنرى ماكماهون" المعتمد البريطانى فى مصر ، و إلى البريجادير "جلبرت كلايتون" رئيس مكتب القاهرة ، وقد جاء فيها ما يلى :

" إن الوقت قد أزف لكى يقوم العرب بدورهم فى مساعدة المجهود الحربى البريطانى فى المشرق . ونحن نرى أن ذلك يمكن أن يبدأ بدون نظر للحساسيات الفرنسية التى تريد منا أن نتشاور معهم فى كل كبيرة وصغيرة . إنه من الضرورى لنا أن نلاحظ أن لدينا صداقات مع العرب لا تملكها فرنسا . بل إن بعض أصدقائنا العرب يكرهون الحكومة الفرنسية أكثر من كراهيتهم لحكومة السلطان فى إستانبول .

لقد ناقشنا أفكار عزيز المصرى الجديدة كما عرضها عليكم . وكذلك ناقشنا أفكار غيره مثل نورى السعيد والسيد الفاروقى وحسن خالد والدكتور شهبندر ، وكذلك الشيخ رشيد رضا .

إننا نرى أن عزيز المصرى يحمل أفكارا متشددة وقد يثير صعوبات فى المستقبل ، ولذلك فإن التعامل معه يجب أن يكون بحذر دون اعطائه الفرصة لكى يتنصل من التعاون معنا . وفى نفس الوقت فإن نورى السعيد يظهر قدرا من الاعتدال يشجع على التعامل معه . وأما الشيخ رشيد رضا فيمكن ترك أمره إلى مرحلة لاحقة .

وفى الاتصالات مع هؤلاء جميعا فإننا نريد مراعاة القواعد التالية :

١ - إن التعامل مع الشيوخ أثبت أنه أفضل ، فمطالبهم بسيطة ومحددة ، وهم لا يضيعون الوقت مثل الآخرين فى تفاصيل لم يحن وقتها بعد .

٢ - ليس من الضرورى لنا أن نتعامل مع كل من يتصل بنا على نفس المنهج . فكل واحد من العرب الذين يتصلون بنا له منطقه وله أهدافه .

٣ - يجب أن نحاذر فى هذه المرحلة من إعطاء أية تعهدات تفصيلية ومحددة ، خصوصا بشأن المطالب الخاصة باستقلال العرب . فنحن فى هذه المرحلة من الحرب لا نستطيع أن نربط أنفسنا بأكثر من وعود بسيطة تاركين التفاصيل إلى ما بعد الحرب .

٤ - ليس من الحكمة ترك الكتائب العربية تعمل فى مواطنها عندما تبدأ عمليات الثورة لأن ولاء هذه الكتائب بين أهلها قد لا يكون مضمونا . ومن المستحسن أن يكون هناك تنسيق أفضل مع دلهى ، لأن اللورد هاردنج قد تعهد بتدبير

قوات مسلمة من جيش الهند لأداء بعض الأعمال الرئيسية وخصوصا على خطوط المواصلات الحيوية .

٥ ـ لا بد من ملاحظة أنه فى هذه المنطقة فإن مواقف معينة يمكن شراؤها بالمال بدلا من اضاعة الوقت والجهد فى عمليات عسكرية قد لا تكون ضرورية . وعلى سبيل المثال فإننا عرضنا مليون جنيه استرلينى على خليل بك قائد القوات التركية فى العراق حتى يرفع الحصار عن القوة البريطانية المعزولة فى "الكوت" تحت قيادة الجنرال "تاونسند" . وهذا نموذج يمكن تطبيقه فى مواقع أخرى . "

كانت الترجمة المباشرة لمثل هذه التعليمات ـ وهناك اشارات متناثرة فى كل المجموعة لبريطانية فى تلك الفترة ـ تظهر أسلوبا فى التعامل يعكس أساسيات واضحة لا لبس فيها:

● إن الحكومة البريطانية تعطى نفسها حق العمل منفردة فى كل المنطقة . وهى تعرف أن فرنسا لها مطالب تاريخية واستراتيجية قد تتمسك بها . لكن المرونة مطلوبة . ففى فترة من الفترات يكون التأجيل أو السكوت أسلم ، وفى فترة أخرى تستطيع بريطانيا أن تتصرف على الأرض بما يناسب مصالحها ، ثم تتصور لنفسها القدرة على تهدئة مشاعر فرنسا وتطويع عصبية ممثليها (مثل "جورج بيكو") ، وحجتها عليهم أن العرب لا يريدون فرنسا ، ثم إن تعاون هؤلاء العرب مع الحلفاء ضرورى الآن . وبالتالى فإن فرنسا مطلوب منها أن تضبط أعصابها وتترك بريطانيا تتصرف بحرية ، وهى سوف تفعل ذلك مراعية لضرورات الحرب ولصالح النصر .

● إن الحكومة البريطانية تحاول التفرقة بين العناصر التقليدية (السلطنات والقبائل والمشايخ) وبين العناصر الجديدة فى العالم العربى (الضباط والتجار والأعيان والمفكرون). ومن أثر هذه التفرقة يمكن أن يحدث تنافر بين الطرفين يكون الممثلون السياسيون البريطانيون هم المرجع فيه والحكم .

● إن الحكومة البريطانية يمكن أن تمارس مناورات تتكفل بالتفرقة داخل معسكر العرب التقليديين المطالبين بالملك والنفوذ ، وداخل معسكر العرب الذين يمثلون التيار الجديد المطالب بالحرية والاستقلال . والمقصود أن يكون من شأن تطور الأمور وضغوط الحوادث أن يتعمق الخلاف بين التقليديين ـ مثل الهاشميين والسعوديين ـ وأن تترسخ العداوة بينهم . كما أن العناصر الجديدة ـ تحت نفس الضغوط ـ سوف تواجه تباعدا وخصاما بين أفرادها الذين سوف ينقسمون بالتأكيد إلى متشددين يطلبون التعهدات مسبقة وتفصيلية مثل "عزيز المصرى" ، وآخرين معتدلين يقبلون بالتعاون الآن على أمل وضع التفاصيل بعدالحرب مثل "نورى السعيد" .

• إن الحكومة البريطانية خلال هذا كله لن تقدم أى تعهدات أو ضمانات تقيد حريتها مستقبلا وبعد انتهاء الحرب بأية نصوص محددة أو قاطعة فى شأن المستقبل . وليس من حق أحد أن يحاسبها أو يطلب منها إيضاحا على نصوص تذاع بواسطة طرف من الأطراف، فتلك كلها إما دعايات سياسية ، وإما ضرورات ظروف سوف يتكفل النصر بتوضيح حقيقتها جميعا وتحديد قيمة كل منها .

□

وعندما بدأت الثورة العربية تقترب من مرحلة العمل الفعلى ، كانت العناصر الجديدة فى العالم العربى فى ميادين القتال فى الحجاز - وفى مواقع عديدة فى الشام والعراق - بعيدة إلى حد كبيرعن المراسلات التى تدور بين الشريف "حسين" وبين السير "هنرى ماكماهون" .

وفى نفس الوقت كان الإنجليز - بصلات مباشرة - أقرب إلى خطط الشريف "حسين" منهم إلى العناصر القومية صاحبة حلم الثورة والدولة العربية المستقلة . وكان أبرز تواجد بريطانى مع الشريف يتمثل فى "توماس إدوارد لورانس" ضابط الارتباط البريطانى الذى اختير من مكتب القاهرة ليتولى التنسيق بين مكتب القاهرة وبين "قيادة الثورة العربية فى الحجاز".

وكان "لورانس" قد أعجب بثالث أبناء الشريف "حسين" ، وهو الأمير "فيصل" ، على حساب ابنه الثانى "عبد الله" ، والذى كان أرشد الأبناء وأكثرهم قربا من دائرة الاتصالات بين والده وبين القوى العربية المشاركة فى الثورة .

وكان رأى "لورانس" أن "عبد الله" أكثر ثقافة وألمع ذكاء ، لكنه رجل يصعب الاطمئنان إليه . وأما "فيصل" فقد قال فى وصفه باختصار : "عندما قابلته لأول مرة عرفت أنى عثرت على الرجل الذى جئت إلى الصحراء العربية باحثا عنه" .

وكان "لورانس" يغرى "فيصل" بأن يتقدم بما لديه من قوات وبأسرع ما يمكن إلى العقبة، ومنها إلى دمشق ، وبعدها إلى الإسكندرونة ، لكى يقطع طريق التراجع على الجيش التركى عندما تهاجمه القوات البريطانية الزاحفة على فلسطين ، وتعمل فى مؤخرته فى الوقت الذى يضغط فيه الجيش البريطانى على مقدمته .

ومن المفارقات أن جيش الأمير "فيصل" الذى اندفع شمالا إلى العقبة كان يضم قوات مدفعية مصرية رتبها "مكتب القاهرة" وألحقها بجيش "فيصل" .

وفى هذه الظروف كتب السير "هنرى ماكماهون" المعتمد البريطانى فى مصر إلى الشريف "حسين" رسالة جاء فيها بالنص :

" إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز . وقد سرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأى واحد وأن مصالح العرب هى نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس . ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كيتشنر التى وصلت إلى سيادتكم . . . ، وهى التى كان موضحا بها رغبتنا فى استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها .

وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربى صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة .

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم ، فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها وتصرف الأوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل فى حالة أن الحرب دائرة رحاها ."

وكان الشريف "حسين" فى عجلة من أمره ، ولم يتوقف كثيرا عند حديث الحدود والتخوم كما فعلت العناصر العربية القومية (مثل "عزيز المصرى" و"رشيد رضا" وغيرهما) . وهكذا فإن الشريف "حسين" رد على السير "ماكماهون" كما يلى:

" إلى حضرة ذى الأصالة فخامة نائب جلالة الملك دام مرعيا

وبعد ،

فبأيدى التوقير والاحتشام تلقينا رقيمكم (خطابكم) الأخير ، وإن مضامينه أدخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب . أسأل الله أن يسهل المقاصد وينجح المساعى ، ومن الإيضاحات الآتية نفهم الفخامة الأعمال الجارية والأسباب المقتضية .

أولا ـ قد أعلمنـا فخامتكـم بأنـا بعثنـا بأحـد أنجالنـا إلى الشـام لـيرأس مـا يقتضى عمله هناك ....

....

ثانيا ـ عزمنا على إرسال نجلنـا الكبير إلى المدينـة المنـورة بقـوة كافيـة ليكـون دعما لأخيه الذى بالشـام ....

بقـى علينا بيان ما نحتاجه والحالة هـذه هـو :

أولا ـ مبلغ ٥٠٫٠٠٠ جنيه ذهبا لمشاهرة القوات المجندة ونحوها ممـا ضرورتـه تغنى عن بيانه. فالرجا إحضارها بوجه السرعة الممكنة .

ثانيا ـ إحضار ٢٠٫٠٠٠ كيس أرز و ١٥٫٠٠٠ كيس دقيـق و٣٠٠٠ شـعير و١٥٠ كيس بـن قهـوة ومثلها سكـر ومقدار ١٠٠ صندوق من النوع المرسل منه مرميتين طيه

....

....

النقود المطلوبة يقتضي إرسالها فى الحال إلى أمير بورسودان وسيرده مـن طرفنـا معتمد يتسلمها إما دفعة أو دفعتـين علـى حسـب اسـتطاعته . وهـذه علامـة اعتمـاد الرجـل (T) ."

٥

لــورانـــــــــس

" بسيفك لا بسيف الإنجليز "

(قصيدة لشاعر الملك "عبد العزيز فى وصف دخول الأمير فيصل إلى دمشق)

عند هذا المنعطف الخطير من التاريخ العربى الحديث لم يكن العرب يتفاوضون أو يتحاورون مع العالم باعتبارهم قوة لها رأى ولها دور فى مستقبل المنطقة التى يعيشون فيها . ولقد كان مؤسفا فى تلك اللحظة أن العناصر القومية التى كان يمكن أن تتوافر لديها المعرفة وبعد النظر الكافيان للمشاركة فى صنع المستقبل بعدت وغابت .

ومن ناحية أخرى ، فإن الشريف "حسين" راح يحاول أن يدير أموره مع الحكومة البريطانية بطريقة مستقلة ، لكنه لم يكن يملك المعرفة بشئون العالم أو الثقافة السياسية الكافية للتعامل مع خطط إمبراطورية واسعة ومعقدة . وقد بدأ يحس على نحو ما أنه حتى أولاده يتصرفون بمعزل عنه .

ولم يكن الشريف "حسين" راضيا فى أعماقه عن تقدم "فيصل" مع "لورانس" إلى الشام دون تشاور كاف معه ودون أمر صريح منه . وبدأت المخاوف تراوده من أن "فيصل" يريد سوريا لنفسه . وفى ذات الوقت فإن "فيصل" كان يشكو لـ "لورانس" ولغيره من الضباط الإنجليز "إن الوالد لا يعرف ما فيه الكفاية عن العصر الحديث ، وهو غير قادر على التعامل مع عالم جديد سوف يظهر بعد الحرب" .

وكان الأمير "عبد الله" لا يخفى ضيقه هو الآخر بـ "سياسات الوالد" ، ولا يكف عن إظهار قلقه من انفراد شقيقه الأصغر "فيصل" برضا الإنجليز دونه ، وقد أقلقه أن "لورانس" انفرد بـ "فيصل" وأخذه مع جيشه فى اتجاه العقبة ، وبعدها إلى دمشق .

وبدوره فإن الأمير "عبد الله" سحب جيشه وراءه وتوجه هو الآخر شمالا حتى وصل إلى منطقة عمان فى شرق الأردن ، وتوقف هناك بمعسكره ينتظر ما سوف يحدث سواء فى جدة أو فى دمشق .

ولم تكن حكومة الهند راضية بالمرة عن سياسات مركز القاهرة ، معتبرة أن هذا المركز الذى أنشأته وقوته ظروف الحرب يرسم خططا قد تؤثر على الأوضاع فى الهند . وفى ذلك الوقت فإن السير "بيرسى كوكس" (رئيس مكتب دلهى) راح يناوئ خطط التعاون البريطانى ـ الهاشمى ، ويعطى كل تشجيعه وتأييده لأمير نجد "عبد العزيز آل سعود" ، ويشير له من طرف خفى بخلافة المسلمين ، فهو العربى الأصيل الخارج من قلب الصحراء ، والذى لم يتأثر بالثقافة وطرق الحياة التركية ـ كما حدث للهاشميين الذين عاش معظمهم سنوات شبابه فى إستانبول .

ويوم وصل "فيصل" بجيشه إلى مشارف دمشق بعد أن انضمت إليه أعداد من بقايا القوميين والوطنيين فى سوريا الذين كانوا يعللون أنفسهم بأى أمل يستبقى فى أيديهم ولو جزءا من حلمهم ، فإن سلطان نجد كان على استعداد لأن يسخر علنا من خصومه الهاشميين . ووقف شاعر بلاطه ، وهو وقتها "فؤاد حمزة" (أصبح فيما بعد سفيره فى تركيا) ، يلقى قصيدة يسخر فيها علنا من دخول "فيصل" إلى دمشق . وكانت بداية القصيدة بيتا يقول :

" بسيفك لا بسيف الإنجليز   دخلت الشام "ايزى" ثم "ايزى"

مستعملا كلمة (easy) الإنجليزية ، ومعناها "سهل" ، لتكملة الشطرة الثانية من بيت الشعر وتركيب قافيتها على نفس الروى .

□

وكان التخطيط البريطانى لترتيب أمور الشام ينتقل بسرعة للتركيز على فلسطين ، وبالتحديد للعمل على إقامة وطن لليهود فيها يؤدى دوره المرسوم فى الاستراتيجية البريطانية .

وفجأة مرة أخرى عاد إلى الظهور فى القاهرة نفس الرجل الذى تولى اتفاقية "سايكس بيكو"، وهو السير "مارك سايكس" ، وقد جاء هذه المرة لكى يرتب لما بعد تقسيم العالم العربى ، وأوله التمهيد لإنشاء الوطن اليهودى الموعود فى فلسطين .

وتروى وثيقة وزارة الخارجية رقم ١٠٦٧٦٤ - ٣٧١/٢٤٧٦ بتاريخ ١٢ يوليو ١٩١٥ أن

القائد العام البريطانى فى مصر الجنرال "ماكسويل" تحدث فى شأن فلسطين مع السير "هنرى ماكماهون" ، وعرض عليه اقتراحا أطال التفكير فيه وهو أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية شأنها شأن مصر ، ثم يعهد بإدارتها إلى سلطان مصر "لأن القدس لا بد فى هذه الظروف أن تبقى تحت الحماية الظاهرة لأمير مسلم" .

كان السلطان "حسين كامل" هو سلطان مصر وقتها ، وكانت شواغله المحلية تفرض عليه هموما تطرد أى حلم يتجاوز حدودها ، مما يدخله فى صراع حول مستقبل العالم العربى فى المشرق ، بما فيه الصراع على الخلافة بين الهاشميين والسعوديين الذين دخلوا الحلبة الآن. ولم يكن الجنرال "ماكسويل" بهذا الاقتراح مهتما بوجود أمير مسلم (مصرى) على القدس ، وإنما كان ذلك بحثا عن غطاء يتيح الفرصة ودون متاعب كثيرة لإمكانية تغيير التوازن السكانى فى الأرض الموعودة . فقد كان عدد المستوطنين اليهود فى فلسطين حتى هذه اللحظة لا يزيد عن خمسين ألفا . وكان يمكن لولاية سلطان مصر على القدس أن تتصدى لطموحات وطنية وقومية عربية معينة ، بحيث تجرى فى مناخ هادئ عملية استبدال بشرى على نطاق واسع ، يفسح مجالا أكثر أمانا لعشرات ألوف من اليهود كان منتظرا أن يتوجهوا فور انتهاء الحرب إلى الوطن الموعود من معسكرات مؤقتة أقيمت لهم فى أوروبا.

□

كانت الحركة الصهيونية قد اجتازت مرحلة صعبة من حياتها أعقبت وفاة "تيودور هيرتزل" فى يوليو سنة ١٩٠٤ .

وبعد وفاة "هيرتزل" اختارت اللجنة التنفيذية مجموعة صغيرة من أعضائها ، لإدارة شئون الحركة الصهيونية حتى ينعقد مؤتمر صهيونى عام جديد يختار زعيما آخر . وكان أبرز أعضاء اللجنة المؤقتة "ناحوم سوكولوف" ، رفيق "هيرتزل" وصديقه وناقده فى بعض الأحيان . وكان أهم ما واجه هذه اللجنة أن عرب فلسطين تنبهوا إلى خطورة المستعمرات اليهودية التى تظهر كل يوم فى أنحاء مختلفة من وطنهم . وكانت مواقع إنشاء هذه المستعمرات تشى بخطة أوسع : فهى أولا أخصب الأراضى فى فلسطين يتم شراؤها ، ثم هى ثانيا أهم المواقع الحاكمة على مفارق الطرق ، مما يشير إلى استعداد للعمل العسكرى إذا اقتضى الأمر . وبالفعل فإن الفترة ما بين ١٩٠٦ إلى ١٩١٤ (قيام الحرب العالمية الأولى) شهدت معارك دامية بين عرب ويهود سقط فيها قتلى وجرحى بالمئات فى معارك ساخنة وقع أخطرها فى منطقة الناصرة .

وكان من نتيجة وصول الأمر إلى درجة الاحتكام للسلاح أن المندوبين العرب فى المجلس النيابى العثمانى ، تقدموا فى مارس ١٩١١ بمشروع قانون يطلب وقف الهجرة الصهيونية الجماعية فى فلسطين . وقبل نشوب الحرب العالمية مباشرة كانت صيحات التحذير والإنذار تسمع فى كل قرية ومدينة فى الأرض المقدسة . وكتبت صحيفة "فلسطين" افتتاحية شهيرة كان أول سطر فيها يقول : "إن المستوطنين اليهود يزحفون على أرضنا ويسيطرون على بلادنا قرية بعد قرية، وبلدة بعد أخرى" .

وخلال السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى فإن اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيونى ، والمسئول عنها وقتئذ هو "ناحم سوكولوف" ، اعتبرت أن أمامها مهمتين :

١ ـ إنشاء وإقامة معسكرات مؤقتة لليهود النازحين من الشرق ومن البلقان فى أوروبا الغربية ، وترتيب أمورهم هناك حتى يمكن نقلهم بعد أن تخف المعارك إلى فلسطين .

٢ ـ إن اللجنة التنفيذية ينبغى أن تنتهز فرصة الحرب وإعادة رسم خريطة المنطقة من جديد بمقتضى اتفاقية "سايكس ـ بيكو" ، لكى تطالب بما تعتبره حقها فى فلسطين وتحصل عليه فى مناخ أصبح ملائما .

□

قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب ، كانت السياسة البريطانية تعرف ما تريد، تفكر فيه وتناقش احتمالاته ، وتتردد مرة ثم تحزم أمرها وتتصرف . كانت التصورات القديمة لا تزال سارية . بل إن عملية تجديد طرأت عليها بتوصية تقدم بها رئيس الوزراء البريطانى "كامبل بانرمان" فى الفترة السابقة على الحرب مباشرة ، وجاء فيها بالنص : "إن إقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر الذى يربط أوروبا بالعالم القديم ، ويربطهما معا بالبحر الأبيض والبحر الأحمر هو مطلب يجب أن يكون هاديا لنا باستمرار . ويتعين علينا أن نضع فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة معادية لأهل البلاد وصديقة للدول الأوروبية وعارفة لمصالحها . ومن المحتم أن نجد الوسيلة العملية لتنفيذ هذا المطلب ."

ولم يكن ذلك يعنى شيئا آخر غير إنشاء دولة يهودية فى فلسطين .

وأثناء الحرب طلبت الحكومة البريطانية سنة ١٩١٥ من السير "هربرت صمويل" ، أن يضع تصورا لما ينبغى أن يكون عليه أمر فلسطين بعد النصر . وكتب "هربرت صمويل" ،

بوصفه عضوا فى وزارة الحرب - إلى جانب كونـه يهوديـا وصهيونيـا أيضـا - مذكـرة بعنـوان "مستقبل فلسطين" تاريخها ٥ فبراير ١٩١٥ ، توصـل فيها إلى نتيجتـين :

١ - إنه مهما يكن من شأن أية اتفاقات مع فرنسا ، فإن فلسطين يجـب أن تخـرج مـن هذه الاتفاقيات ، لأن سيطرة دولة أوروبية عظمـى على موقع قريب من قناة السويس إلى هـذه الدرجة يشكل تهديـدا مستمرا ومخيفـا لخطـوط المواصـلات الإمبراطوريـة (البريطانيـة) . إن الحزام الصحراوى الذى تمثله سيناء استطاع أن يـؤدى دوره كحاجز إستراتيجى كـاف ضـد الأتراك، لكنه ليس كافيا للصمود أمام حملـة عسـكرية تقـوم بهـا دولـة أوروبيـة قويـة . "ولا نستطيع أن نفترض أن علاقاتنا الطيبة مع فرنسا سوف تستمر كذلك طـوال الوقت ."

٢ - إن الحـل الذى يوفر أكبر فرصة للنجـاح ولضمـان المصـالح البريطانيـة ، هـو إقامـة اتحاد يهودى كبير تحت السيادة البريطانية فى فلسطين . إن فلسطين يجـب أن توضـع بعـد الحرب تحت السيطرة البريطانية ، ويسـتطيع الحكـم البريطـانى فيهـا أن يعطـى تسـهيلات للمنظمات اليهودية فى شراء الأراضى وإقامة المستعمرات وتنظيم الهجرة والمساعدة على التطور الاقتصادى بحيث يتمكن اليهود من أن يصبحوا أكثريـة فـى البـلاد . "هـذا مـع ملاحظـة أن هناك عطفا واسع الانتشار وعميق الجذور فى العالم البروتستانتى لفكرة إعادة الشعب العبرانى إلى الأرض التى أعطتها له النبوءات القديمـة ."

□

ولم يكن المؤتمـر الصهيونى ولجنتـه التنفيذيـة ، ولا يهـود أوروبـا بكـل نفوذهـم فـى عواصمها - وبخاصة لنـدن - ينتظرون غير هذه الفرصـة .

وهكـذا عـاد إلى المسرح لحظـتها السـير "مـارك سايكـس" موظفـا كـل مـا تعلمـه مـن "دزرائيلـى" ، وحامـلا كل ما حصلـه من تأثـير نفوذ عائلـة "روتشيلـد" ، ومعـززا بنجاحـه فى ترتيب الأمـور مع فرنسـا باتفاقيـة "سايكس - بيكـو" .

ويكتـب "نـاحوم سـوكولوف" وهـو وقتئـذ المسئول الأول فـى اللجنـة التنفيذيـة للمؤتمـر الصهيونـى بعد وفـاة "هيرتزل" ما نصـه :

"إنه من واجبى أن أوجـه تحية خاصة إلى السير مارك سايكـس . فقـد كـان هـو الروح الملهمة والمحركة فى توجيه عملنا تلك الفترة الدقيقة والحساسة . إن سايكس أصبح الرجل الذى يتولى فى واقع الأمر معظـم أمورنـا ، ويقـوم بالتنسـيق بـين وزارة المستعمرات ووزارة الحـرب والقيـادة العليـا ووزارة الخارجيـة واللجنـة التنفيذيـة للمؤتمر الصهيونى .

لقد سألنى سايكس فى أول لقاء بيننا :

ــ هل أنت المسئول عن الحركة الصهيونية ؟

ورددت عليه قائلا :

ــ نعم ... وسوف ننجح إذا ساعدتنا .

ورد على بنبرة قاطعة وحاسمة :

ــ حسنا . هذه مسئوليتى !

وأحسست بجرعة قوية من الاطمئنان ."

ويواصل "سوكولوف" شهادته فيكتب :

"كنا نعتبر أن هذه الحرب هى التى ستعطينا بعد النصر وطننا اليهودى فى فلسطين . وفى الفترة الحاسمة من عملنا كان مارك سايكس هو الذى يقوم بكل الاتصالات ، وينسق كل الجهود من أجل تعهد واضح من الحلفاء بعد النصر بأن يعطونا الفرصة والحق فى إنشاء وطننا اليهودى فى فلسطين . إن سايكس لم يقم بهذه المهام فى لندن وحدها ، ولكنه أخذ على عاتقه أن يمهد لنا الطرق فى باريس مع الحكومة الفرنسية ، وفى روما مع الحكومة الايطالية ومع الفاتيكان .

إن سايكس فى هذه الفترة لم يكن يسمح لنفسه بفرصة للراحة أو للنوم . فقد كان يعمل بلا كلل وقد جعل من الصهيونية جزءا أساسيا من حياته . وهو لم يقم بجهده فقط مع الدول ، وإنما مهد لنا أيضا مع الرأى العام الإنجليزى . فقد كان هو الذى رتب للدكتور حاييم وايزمان فرصة أن يلتقى بأهم صحفى فى إنجلترا ، وهو س. ب. سكوت رئيس تحرير جريدة "المانشستر جارديان" . ولن أنسى له أبدا أنه صحبنى معه حينما كان برفقة رئيس الوزراء لويد جورج والأميرال جيليكو القائد العام للأساطيل البريطانية ، وفى هذه المقابلة أتيحت لى الفرصة لأن أتحدث إلى رئيس الوزراء الذى قال لى "إن هذه الحرب سوف تكون بلا فائدة إذا لم نستطع أن نعطى للشعوب حقها فى تقرير مصيرها ، بمن فى ذلك اليهود فى فلسطين" ."

٦

بلفـــــــور

" سوف تحدث فى المستقبل محاولة مصرية
لاعتراض حقنا فى قناة السويس "

(مذكرة مرفوعة لرئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٢١)

كانت تلك هى الظروف التى صدر فيها "وعد بلفور" الشهير موجها من وزير الخارجية البريطانى اللورد "آرثر بلفور" إلى زعيم اليهود الإنجليز وراعى المنظمة الصهيونية اللورد "جيمس روتشيلد" . كان نص الوعد بسيطا واضحا وقاطعا ، وكان على النحو التالى:

"وزارة الخارجية ـ ٢ نوفمبر ١٩١٧

عزيزى اللورد روتشيلد

إنه من دواعى سرورى الكبير أن أنقل اليكم باسم حكومة صاحب الجلالة الإعلان التالى عن التعاطف مع الأمانى اليهودية والصهيونية الذى تم عرضه وإقراره بواسطة مجلس الوزراء ونصه كما يلى :

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بالعطف إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين . وسوف تبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف . ومن المفهوم أن هذا الإعلان لا يمثل تحيزا ضد الحقوق المدنية والدينية لطوائف غير يهودية موجودة فى فلسطين . كما أنه لا يؤثر على الأوضاع القانونية أو السياسية

التى يتمتع بها اليهود فى البلاد الأخرى . وسأكون شاكرا لكم إذا تفضلتم وأبلغتم هذا الإعلان لعلم الاتحاد الصهيونى .

المخلص

آرثر بلفور "

وربما أن أهم ما يمكن ملاحظته فى الظروف المتصلة بصدور "وعد بلفور" ، هو ما تقول به وثيقة بريطانية تحوى محضرا لجلسة مجلس الوزراء بتاريخ ٣ سبتمبر ١٩١٧ (أثناء مناقشات صدور "وعد بلفور" وفى التمهيد لإعلانه) ، وقد ورد فى محضر الجلسة أن وزير الحربية "ايرل ديربى" أبلغ المجلس أن "وفدا يهوديا على مستوى عال يمثل المؤتمر الصهيونى توجه لمقابلته وعرض عليه رغبة يهود العالم فى مشاركة الحلفاء فى تضحية الدم ، وذلك بتشكيل قوة من اليهود يطلق عليها اسم "الفيلق اليهودى" حتى تحارب فى صفوف الحلفاء ، ومن ثم يكون لهم دور فى تحقيق النصر ."

ومن المفارقات أن الصوت الوحيد الذى ارتفع فى مجلس الوزراء لمعارضة الاقتراح كان صوت اللورد "مونتاجو" وزير شئون الهند (وهو يهودى أيضا) ، وقد بنى معارضته على أساس أن هناك أربعين ألف يهودى يحاربون فى صفوف الجيش البريطانى ، وإنه ليس من العدل نحوهم ونحو سمعتهم تمييز لواء واحد وتسميته باسم "الفيلق اليهودى" .

وضاع صوت اللورد "مونتاجو" هباء . وأقر المجلس مشروع تكوين فيلق يهودى يشارك فى الحرب العالمية الأولى وتكون منه قوة عسكرية يهودية مستعدة للمستقبل جاهزة له .

□

وبعد انتهاء الحرب ، وأثناء إعداد وثائق مؤتمر السلام فى "فرساى" ، أصرت الحركة الصهيونية على ضرورة أن يحتوى قرار المؤتمر بانتداب بريطانيا على فلسطين إشارة واضحة فى مقدمته لـ "وعد بلفور" ، تأكيدا إضافيا بأن المهمة الرئيسية للانتداب البريطانى هى العمل على إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

وكان ذلك كله يرتب ويدبر فى غيبة مصر وفى انشغالها بثورة سنة ١٩١٩ ، التى كان مطلبها الرئيسى جلاء القوات البريطانية عن مصر وإعلان استقلالها .

واللافت للنظر أن كل ما يتصل بفلسطين كان لا يزال مؤثرا أساسيا على مصر سواء عرفه قادتها أو غابت عنهم معرفته .

كان اللورد "اللنبى" قائد الجيوش البريطانية ـ التى غزت فلسطين وأخرجت الأتراك منها ـ قد عين معتمدا بريطانيا فى مصر . وكانت الأوضاع الاستراتيجية العامة فى المنطقة تشغله ، وقد عقد عدة اجتماعات لمناقشتها ، وانتهت المناقشات إلى توصيات محددة جرت صياغتها فى مذكرة بتوقيع الكولونيل "ريتشارد ماينرتزهاجن" مدير العمليات فى الشرق الأوسط ، وقام "اللنبى" بتحويل المذكرة إلى رئيس الوزراء البريطانى "لويد جورج" .

كان نص المذكرة كما يلى بالنص :

" عزيزى رئيس الوزراء

طلب منى الماريشال اللنبى أن أرسل اليكم مذكرة غير رسمية عن السيادة على سيناء . وهو موضوع له أهمية خاصة لا بالنسبة إلى الظروف الراهنة فحسب ، بل بالنسبة إلى السنوات القادمة أيضا . واسمحوا لى بتناول هذا البحث بإسهاب : إننا نسير بحكمة زائدة ، مستهدفين السماح لليهود بإنشاء وطنهم القومى فى فلسطين ، فقد حررنا العرب من النير التركى ، ولن نستطيع البقاء فى مصر إلى الأبد ، وقد تمخض مؤتمر الصلح عن وليدين ، القومية اليهودية والقومية العربية ، وشتان بينهما : فالأول يمتاز بحيويته ونشاطه ، على حين يمتاز الثانى بكسله وخموله المكتسبين من الصحراء .

يضاف إلى ذلك أن اليهود بالرغم من تشتتهم يمتازون بولائهم ورقة شعورهم وعلمهم ... كما أنهم قدموا لبريطانيا أحد رؤساء حكوماتها المتازين ("دزرائيلى") ، وسيلتصق العرب واليهود من الآن إلى خمسين سنة بقوميتهم ، وسوف يزدهر الوطن القومى اليهودى إن عاجلا أو آجلا ويصل إلى مرحلة السيادة ، وإنى أفهم أن بعض أعضاء حكومة جلالته يتطلعون إلى هذه المرحلة .

وكذلك ستتطور القومية العربية إلى مرحلة المناداة بالسيادة من المحيط إلى الخليج ـ!ـ ومما لا شك فيه أن السيادتين العربية واليهودية ستصطدمان . وإذا قدر لمشروع الهجرة اليهودية إلى فلسطين أن ينجح ، فإن الصهيونية ستتوسع على حساب العرب دون سواهم . وسيبذل العرب قصارى جهودهم للقضاء على قوة وعظمة فلسطين اليهودية ، وهذا يعنى سفك الدماء.

وبريطانيا تتحكم الآن فى الشرق الأوسط ، ونحن لا نستطيع أن نكون أصدقاء للعرب واليهود فى آن واحد ، وإنى أقترح منح الصداقة البريطانية لليهود وحدهم بتقدير أنهم الشعب الذى سيكون صديقنا المخلص الموالى فى المستقبل . إن اليهود

مدينون لنا كثيرا ، وهم يحفظون لنا هذا الجميل ... وسيكونون ثـروة لنـا ، بعكس العـرب الذين سيكونون سلبيين معنا برغم خدماتنا لهـم .

وسوف تكون فلسطـين حجـر الزاويـة فـى الشرق الأوسـط ، فبينمـا تحدهـا الصحراء من جهـة يحدهـا البحـر مـن جهـة أخـرى ، ولهـا ميناء طبيعـى ممتـاز (حيفا) ، وهو أحسن ميناء على السـاحل الشـرقي للبحـر الأبيـض المتوسـط ، ثـم إن اليهود برهنوا على كفاءتهم الحربية منذ احتل الرومـان البـلاد ، علـى حـين يمتـاز العربـى بقسوته فى الحـرب ، وحبه للسلـب والتدمير والقتـل .

والآن دعنى أتكلم عن فلسطين بالنسبة إلى مصـر : ففى حالـة تطور السـلاح مـن طائرات ودبابات، سيكون الفصل فى المعركـة للسـلاح الأحـدث ، وللشجاعة وقـوة الأعصـاب والصـبر، ولذلـك فـإنى أرى فـى مصـر العـدو المسلح لليهـود . وبتطـور القوميتين العربية واليهودية إلى مرحلـة السيادة ، وبخسـارتنا قنـاة السويـس فـى سنـة ١٩٦٨ : أى بعـد ٤٧ سنـة ، فـإن بريطانيـا ستخسر مراكـزها فـى الشـرق الأوسـط . ولتقوية هذه المراكز ، أقترح ضـم سـيناء إلى فلسطـين . فقبـل سنـة ١٩٠٦ كان الحـد التركى المصـرى ممتدا من رفـح فى الشمال إلى قرب القنـاة . وكـان شرقـى سيناء وجنوبيها قسما مـن الحجـاز الخـاضع للعثمـانيين . وفـى أكتوبـر سـنة ١٩٠٦ منحت مصـر حـق إدارة سيناء حتى الخـط المتد من رفـح إلى رأس خليـج العقبـة . أما ملكيتهـا فبقيـت لتركيـا . وقـد احتلهـا اللـورد اللنـبى بجيشـه البريطـانى دون مساعدة الجيش المصـرى ، فـأصبح مصيرهـا منوطـا بقـرار مـن الحكومـة البريطانيـة المحتلـة ... وفـى حالـة ضـم سيناء إلينـا ، فإننـا نربـح حـدا فاصـلا بـين مصـر وفلسطـين ، ونؤكد لبريطانيـا مركـزا قويـا فـى الشرق الأوسـط، مـع اتصـال سهـل بالبحرين المتوسط والأحمر، وقاعدة استراتيجية واسعة النطاق مع ميناء حيفـا المتاز الذى سنستعمله بموافقة اليهـود .

ومن حسنات هذا الضـم أنه سيحبط أية محاولة مصرية لاغلاق القناة فـى وجـه ملاحتنا، كما سيمكننا من حفـر قناة تربـط بين البحريـن المتوسـط والأحمـر ، ثـم إن ضـم سيناء لن يثـير أية قضيـة قومية ضدنـا ، إذ إن البـدو الرحـل المقيمـين فيهـا لا يتجاوزون بضعـة آلاف .

امضـاء

ماينرتزهاجـن "

وبصرف النظر عن الأوصاف والنعوت ، مدحا فى اليهـود أو قدحـا فـى العـرب ، فـإن مذكرة الكولونيل "ماينرتزهاجن" تبدو وكأنها تصور مستقبل أكثر منها مذكـرة مكتوبـة لرئيس وزراء بريطانيـا سنـة ١٩٢١ .

. . . .

. . . .

ولم يكن هناك اتصال أو تفاوض مع أهل المنطقة ، لا فى فلسطين التى كانت أبوابها على وشك أن تفتح إلى مصاريعها ، ولا فى مصر التى كانت منافذها إلى الشرق معلقة فى الهواء مرهونة بالأهواء !

٧

فيصـــــــــــل

" يجـب أن تتخـذ الإجـراءات الكفيلـة بتشجيع الهجـرة اليهوديـة إلى فلسطـين والحـث عليها "

(اتفاق "فيصـل وايزمان")

كانت الأمـة العربيـة لا تزال تعتقد أنها شاركـت فـى ثـورة عربيـة كـبرى ، وأنهـا اختارت بمشيئتها الحـرة شريـف مكـة وأبنـاءه لكـى يتولـوا قيادتهـا . وهكـذا فإن إعلان "وعـد بلفـور" بعد اتفاقية "سايكس ـ بيكـو"، جـاء ضربـة صاعقـة لهـؤلاء الذيـن ظنـوا أن الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية سوف يستتبعهما بـالضرورة قيـام دولـة عربيـة جديدة تشمـل الشـام كله والعـراق والحجـاز .

وكان أول رد فعل للأمـة هو أنها راحت تتلفت بمشاعر يختلط فيها القلق والأمـل صـوب الأمراء الهاشميين، تنتظر ردهـم على الصدمـة وتتوقع منهم حلـولا لمفاجآت الأمـور وعواقبها.

ومن الحـق أن ذلك كان فيـه تحميـل للأمـور بـأكثر ممـا تحتمـل ، ذلـك أن المخططـات الدولية كانت أقـوى من علـم ومن طاقة الأمراء ، ثم إن هؤلاء الأمراء كانوا بشـرا يعـتريهم مـا يعـترى البشـر من أسباب للضعـف والقصـور .

وقد وجـدت الحكومة البريطانية على أى حال أنه من المفروض عليها أن تتصـل بالأمراء لكى تشرح لهم أسبابها فيما يتعلق باتفاقية "سايكس ـ بيكـو" (وقـد أذيعـت نصوصهـا سنة ١٩١٧) ـ وتوافـق ذلـك بالضبط مع صدور "وعـد بلفـور" . فقد ذهـب الكومـاندر "هوجـارت" (ممثلا لمكتـب القاهـرة) لمقابلـة الشريـف "حسـين" فـى جـدة يبلغـه رسـالـة تختـص

بمشروع "سايكس - بيكو" وبـ "وعد بلفور" ، وكتب الكوماندر "هوجارت" تقريرا عن المقابلة قال فيه :

- "فيما يتعلق بـ "سايكس - بيكو" ، قال الشريف "حسين" إنه إذا كان هناك تعديل ثانوى فى الخطط الأصلية تفرضه ضرورات الحرب ، فهو مستعد لأن يعترف بمثل هذه الضرورة بصراحة. ولكنه طلب أن نبلغه بمثل هذه الصراحة تفاصيل التعديلات المطلوبة والضرورات التى تقتضيها . ثم أثار الشريف "حسين" مطالب فرنسا فى سوريا ، ورد عليه الكوماندر "هوجارت" قائلا :

"إن فرنسا صارت ترى الأمور بعيوننا (يقصد عيون الإنجليز) فيما يتعلق بسوريا ، وكل ما تريده فرنسا هو أن تحمى وتساعد على استقلال سوريا" .

وبدا أن الشريف "حسين" كان مقتنعا .

- وفيما يتعلق بـ "وعد بلفور" فإن الكوماندر "هوجارت" راح يشرح للشريف "حسين" تفاصيل طويلة عن نمو الحركة الصهيونية خلال الحرب ، وعظم قيمة المصالح اليهودية والنفوذ اليهودى ، وإنه من المفيد التعاون معهم (يقصد اليهود ومصالحهم ونفوذهم) .

- كان رد الشريف "حسين" يفيد باستعداده لقبول صيغة "وعد بلفور" .

وروى الكوماندر "هوجارت" فى تقريره لوزارة الحرب فى لندن "إن الشريف وافق بحماسة قائلا إنه يرحب باليهود فى كل البلاد العربية" .

● وجاء الدور على الأمير "فيصل" وأقنعه مستشاره الكابتن "لورانس" بعقد اجتماع مع "حاييم وايزمان" فى العقبة . ثم رتب بعد ذلك لقاء بينهما فى لندن تمهيدا لمؤتمر الصلح فى "فرساى" ، وهناك فى الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩١٩ تم توقيع اتفاق مكتوب بين الاثنين أورده المؤرخ الكبير "جورج أنطونيوس" فى كتابه المرجعى "يقظة العرب" (The Arab Awakening) على النحو التالى :

"إن صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها ، والدكتور حاييم وايزمان ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنها ، يدركان القرابة فى الجنس والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودى . وهما متأكدان أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما الوطنية هو فى الأخذ بأقصى ما يمكن من أسباب التعاون فى سبيل تقدم الدولة العربية وتقدم فلسطين (!) ، ولكونهما يرغبان فى زيادة توطيد حسن التفاهم الذى يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

١ ـ يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين (!) أقصى درجة من النوايا الحسنة والتفاهم المخلص ، وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس وتقوم وكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول فى بلد كل منهما (!) .

٢ ـ تحدد بعد إتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدولة العربية وبين فلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين .

٣ ـ عند وضع دستور لإدارة شئون فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التى من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر ١٩١٧ ("وعد بلفور" !)

٤ ـ يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين فى الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة . ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب مساعدتهم فى سيرهم نحو التقدم الاقتصادى .

٥ ـ يجب ألا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأى طريقة فى ممارسة الحرية الدينية ....

٦ ـ إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين .

٧ ـ تقترح المنظمة الصهيونية العالمية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية فى البلاد، وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها . وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية فى الدولة العربية ، وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها . وسوف تستخدم المنظمة الصهيونية العالمية أقصى جهودها لمساعدة الدول العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية فى البلاد .

٨ ـ يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملا بالاتفاق والتفاهم الكاملين فى جميع الأمور التى شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح .

٩ ـ كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم .

فيصل ـ وايزمان "

كانت نصوص الاتفاق حقل ألغام بأكمله :

فـ "وايزمان" وضع نفسه طرفا موازيا لـ "فيصل" على قدم المساواة ، أحدهما عن الدولة العربية والآخر عن الشعب اليهودى . والكلام عن الدولة العربية يجعلها شيئا وفلسطين شيئا آخر . وهناك حدود نهائية بين الطرفين من قبل لجنة يتفق عليها الطرفان . والاعتراف بـ "وعد بلفور" صريح . وكذلك بحق اليهود فى الهجرة . ثم إن الحكومة البريطانية هى الحكم بين الطرفين فى حالة نزاع يطرأ بين الفريقين ، إلخ ... إلخ ...

ويبدو أن بعض مستشارى "فيصل" العرب كانوا يستهولون النصوص التى تنتظر توقيع أميرهم، ولذلك فإن "فيصل" حين جلس ليوقع الاتفاقية أضاف إليها تحفظا بخط يده قال فيه بالحرف:

"يجب على أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه شرط أن يحصل العرب على استقلالهم . ولكن إذا وقع تعديل أو تحويل فى مطالبهم فيجب ألا أكون عندها مقيدا بأى كلمة وردت فى هذه الاتفاقية التى يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ، ويجب ألا أكون مسئولا بأية طريقة مهما كانت .

فيصل "

ولم تكن هناك جدوى عملية لهذا التحفظ ، لأن الأمير "فيصل" فى هذه الوثيقة اعترف فى واقع الأمر بفلسطين دولة لليهود ، وقبل كل ما من شأنه التمهيد لإقامة هذه الدولة.

● بقى من بين الأمراء الهاشميين الشريف "عبد الله" وكان ممرورا مما بدا له من أن السياسة البريطانية تفضل "فيصل" عليه . وقد راح يتهم شقيقه بخيانته وخيانه والده والتعامل مع الدول والأطراف من وراء ظهريهما ، ويعتبر أن "لورانس" هو الذى شجعه وحرضه عليهما.

□

وكان المؤتمر الصهيوني العالمي ـ تحت قيادة "حاييم وايزمان" ـ الآن يتحرك بطريقة مختلفة ، ويبدو ذلك جليا في خطاب ألقاه "وايزمان" نفسه في لندن بعد شهور قليلة من اتفاقه مع الأمير "فيصل" . فقد قال في هذا الخطاب :

"إن الدولة اليهودية سوف تأتي . ولكنها لن تتحقق بالوعود والتصريحات السياسية ، بل بعرق الشعب اليهودي ودموعه . هذه هي الطريقة الوحيدة لبناء الدول . وأما وعد بلفور فهو مجرد مفتاح ، وقد يكون مفتاحا ذهبيا ، لكنه المفتاح الذي يفتح أبواب فلسطين ويعطينا الفرصة لبذل كل جهودنا هناك .

لقد سألونا (يقصد الدول الكبرى) عما نريد ، فقلنا نريد خلق أوضاع في فلسطين من شأنها أن تسمح لنا عندما ينمو ذلك البلد أن نصب فيه أعدادا ضخمة من المهاجرين اليهود حتى نستطيع أن ننشئ في آخر الأمر مجتمعا يجعل فلسطين يهودية بمقدار ما إن إنجلترا إنجليزية وأمريكا أمريكية .

هل ستصبح فلسطين دولة يهودية في المستقبل أم لا ؟ وعلى من سوف يتوقف هذا المستقبل؟ وعلى من يتحدد مداه ؟ قريبا أم بعيدا ؟

إني أقول لكم إن ذلك يتوقف علينا نحن . إنه يتوقف إلى حد كبير على الدول الكبرى ، ولكن استجابة الدول الكبرى ـ ولا سيما بريطانيا ـ لنا سوف تتوقف على الضغط الذي نمارسه ، وهذا الضغط سوف يتوقف على قوة تنظيمنا وعلى امتلاء خزائننا ، وعلى معرفتنا بما يتوجب علينا عمله لكي نأتي بالشعب إلى بلده ."

وكانت ثقة "وايزمان" في الحكومة البريطانية في محلها ، فإن هذه الحكومة ـ التي حصلت على سلطة الدولة المنتدبة في فلسطين بقرار من مؤتمر "فرساي" أشار في ديباجته إلى "وعد بلفور" ـ لم تلبث أن عينت حاكما عاما لفلسطين هو بنفسه السير "هربرت صمويل" ، وهو الوزير اليهودي الصهيوني صاحب المذكرة الشهيرة إلى مجلس الوزراء البريطاني ، والتي أوصت بأن الفرصة مناسبة في أعقاب الحرب للبدء في مباشرة إقامة الدولة اليهودية في فلسطين .

وأصبح "هربرت صمويل" حاكما عاما على فلسطين ومهمته طبقا لاعتقاده وطبقا لـ "وعد بلفور" وهو سياسة حكومته : العمل على إنشاء الدولة اليهودية .

وراحت نيران "الثورة العربية الكبرى" تخبو ، ثم مضت صفوفها تتفرق وتتباعد ، ولم يعد لدى بريطانيا شيء تقدمه للعرب الذين وقفوا معها ومع الحلفاء في الحرب العالمية

الأولى . وفى الحقيقة فإنهـــا لم تكـن تعـاملت مـع الشعوب ولا ربطـت نفسـها بـأى الـتزام تجاهها ، وإنما كان التزامها تجاه الأمراء الهاشميين . وقد أحست بضرورة تعويضهم ، وربمـا أحست أيضا أن تعويضهم قد ينشئ توازنات عائلية أو قبلية تساعد أكثر على تحقيق المصالح البريطانية . وهكذا فإن وزير المستعمرات البريطانى ، وهو وقتها "ونسـتون تشرشـل" ، جـاء إلى القاهرة وعقـد فيها مؤتمرا لتوزيع بقايا الدولـة العربيـة على الأمـراء الهاشميـين .

كان الشريف "حسـين" لا يزال فى الحجاز يبكـى خروج أبنائه عليه وشـرود كـل واحـد منهم إلى ما يحقـق مصلحته الذاتية . فقد ذهب "فيصل" بمشورة "لورنس" إلى الشـام ، ودخل دمشـق آمـلا أن يؤسـس فيها دولة عربية ، لكن الفرنسيين أخرجوه منها بمقتضى حقهم وفق نصوص اتفاقية "سايكس ـ بيكو" . ثم إن الأمير "عبد الله" توجه هـو الآخـر شمـالا يبحـث عن فرصــة ملائمــة ، وقد وصـل ركبـه إلى مدينـة عمـان (فـى شـرق الأردن) وعسـكر فيهـا ينتظر التطورات .

والآن جاء مؤتمـر القاهــرة برئاسـة "تشرشـل" وإذا هو يصـدر القـرار التالى :

" عقد وزير المستعمرات البريطانية المستر ونستون تشرشـل مؤتمرا عاما لشـئون الشرق الأوسط فى القاهـرة فى الفترة ما بين ١٢ إلى ١٤ مارس ١٩٢١ . وقد شارك فـى المؤتمر معه السير بيرسى كوكـس (ممثـل مكتـب الهنـد) والسـير هربـرت صمويـل (الحاكم العام المعين لفلسطين). وشارك فيــه مـن الخـبراء كـل مـن الميجـور لورانـس والميجـور كلايتـون (مـن المخـابرات العسـكرية والسياسية) والمسـتر كورنواليـس والآنسة جرتـرود بـل (مـن مخـابرات وزارة المسـتعمرات) . وأصدر المؤتمـر قـرارا يقـدم عـرش العـراق إلى الأمـير فيصل (ملـك سوريـا المخلوع) ..

وقـرارا ثانيـا يقــدم إمـارة شــرق الأردن إلى الشـريف عبـد اللــه ، الابـن الأكبر للشريف حسين ."

وكان الأمير "عبد اللـه" يعتبر نفسه مظلوما فى هذه القسمـة ، فأخـوه الأصغر أخـذ منـه عرش العراق ، وأما هو الأخ الأكبر فلم تتبق له غير إمارة شـرق الأردن ، وأمـل بعيـد يـراوده بأن الظـروف ، فى يوم من الأيام ، قد تمهـد له الطريق إلى عـرش فى سوريا . لكن أحلامـه توجهت فـى الوقـت الراهـن نحـو فلسطـين ، ولعلـه أحـس ـ فـى أعماقـه ـ أن الحركـة الصهيونية ـ الفاعلـة والنشيطة فيها الآن ـ طـرف رئيسـى فى أقـدار المنطقة . وهكذا راح يمد بصـره واتصالاته عبر نهر الأردن ، ويفتح قنوات اتصالات سريـة مع الوكالة اليهودية فى تـل أبيب ، ويبعث بالرسائل متتالية إلى زعمائها يعرض عليهم أن يساعدوه لإنشاء مملكـة موحـدة

تضـم فلسطـين وشرق الأردن ـ ضفتى النهر ، وفى مقابل ذلك فإنــه يتعهـد لهـم بـأن يعطـى اليهود فى هذه المملكة استقلالا ذاتيا وضمانات للأمـن تحقـق مطالبهـم .

وكان الوسيط الذى ينقـل رسـائل الأمــير إلى تـل أبيـب فـى ذلـك الوقـت هـو "بنحـاس روتنبرج" ، وهو صاحب شركة لتوليد الكهرباء تقع منشـآتها علـى نهـر الأردن . لكـن زعمـاء الوكالة اليهودية ردوا على الأمير بـعرض مقابل ، وهو أن يقوموا بالإشراف على تنميــة ثروتـه الخاصة واستثمارها، ويضمنوا له منها دخـلا وفيرا ، ثم يكون عليه فــى المقـابل أن يسـاعدهم بنفوذه فى تخفيف معارضة الفلسطينيـين لمشروعات الهجـرة والاستيطان .

٨

لـويـــد جــــــورج

" لـك أن تأخـذ القـدس أيضا ... هـل هـذا
يرضيـك ؟! "

(رئيس وزراء فرنسا لرئيس وزراء بريطانيا)

كانت شعـوب المشـرق العربـي في حالـة يرثـي لهـا :

● فالشعـب السـوري الذي كان حاضنة الثـورة العربية الكبرى وجد آمالـه تخيب ، ثـم عاوده شـيء من الأمل عندما نـودي بالأمير "فيصـل" ملكا على دمشق لأشهر معـدودات ، ثـم جرى خلعـه وإخراجه من سوريا لكي يدخلها الجيش الفرنسـي تنفيـذا لاتفاقيـة "سـايكس ـ بيكو" . ثم إن أربعة ألوية من الأرض السورية سلخت عنها وأعطيت لتكملة دولة لبنانية تقـوم تحت الانتداب الفرنسي هي الأخرى .

وقد تـم خلـع "فيصـل" من عـرش سوريـا بعد مشهـد مزعـج آخـر بـدا وكأنـه نـوع مـن اسـتجواب متهـم فـي مخفـر بوليـس . والحقيقـة أن المشهـد جـرى فـي وزارة الخارجيـة الفرنسية ـ الـ "كـي دورسيـه" ـ وقد ذهـب إليه الأمير "فيصـل" ليشـكو مـن أنـه منـع مـن المثول أمام مؤتمـر الصلـح في "فرسـاي" لإبـداء وجهـة نظـره .

وكان الذي التقاه في وزارة الخارجية هو المسيو "جان جـوت" مساعد مديـر شـئون آسـيا في الوزارة . وجرى الحديث بينهما ـ طبقا لمذكرة بخـط "لورانس" قدمت إلى وزير الخارجيـة البريطاني وأودعت سجلات الوزارة تحت رقم ٦٠٨/٩٧ ملف ٧ – ٤٤٥ ـ على النحو التالي :

فيصل : إنني لا أستطيع أن أفهـم لماذا جـرى استبعادي مـن قائمـة الممثلـين الذيـن يحـق لهم الكلام أمام مؤتمـر الصلـح ؟

جـوت : هذه مسألة من السهل عليك أن تفهمها . لقد ضحكوا عليك . إن الإنجليز تخلوا عنك ، ولو أنك وقفت معنا لكان فى وسعنا ترتيب أمورك .

إننا نعترف بوجودك هنا كضيف كريم ، ولكن ضيف لا علاقة له بمؤتمر السلام ، والخطأ يقع عليك لأنك جئت إلى هنا دون أن تحصل على إذن "بيكو" ودون إخطاره .

كنت واقعا تحت نصيحة خاطئة . والنصائح التى أعطيت لك لا تنفعك .

فيصل : الجنرال اللنبى فى دمشق أبلغنى أن الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية كليهما ، تعترفان بقواتى كطرف محارب .

جـوت : هذه أكذوبة . نحن لا نعرف شيئا عن جيش عربى فى سوريا .

فيصل : الجنرال اللنبى كان قائد جيوش الحلفاء ، وكانت قواتى تحت قيادته . كان هو قائدنا الأعلى ، وقد قال لى فى دمشق إنه يعتبرنا طرفا محاربا ، وقد صدقته .

جـوت : هذه مشكلتك . وعليك أن تفهم أنك إذا أردت صداقة فرنسا فيجب أن تطيع ما نقول به نحن ."

. . . .

. . . .

● والشعب العراقى وجد نفسه يستبدل السيطرة التركية بانتداب بريطانى يسلخه عن فكرة الدولة العربية الكبرى ، ولا يعطيه استقلالا كان يطمح إليه بديلا عن الحلم الكبير . ثم استيقظ ذات يوم فإذا الاستعدادات تجرى لإنشاء عرش فى بغداد هدفه بالدرجة الأولى تعويض الملك "فيصل" عن كل ما قام به وعن كل ما انتهى إليه أمره بعد ضياع عرش سوريا .

ولم يكن "فيصل" راضيا بالعراق بعد سوريا . وقد راح "لورانس" ـ طبقا لما كتبه بنفسه فى خطاب بخط يده إلى صديقه وزميله فى المكتب العربى "جريفز" ، وقد أورد "جريفز" نصه فى صفحة ٣١ من مذكراته فى هذا الخطاب يحاول إقناعه بأن العراق أهم من سوريا فقال :

"إن العراق هو الذى سيصبح مركز حركة الاستقلال العربى وليس سوريا . وبغداد ستصبح القاعدة وليس دمشق . إن تعداد سكان سوريا الآن خمسة ملايين ، وتعداد سكان العراق ثلاثة . لكنه فى المستقبل لن يزيد عدد سكان سوريا عن سبعة ملايين ، فى حين سيصل تعداد سكان العراق إلى ٤٠ مليونا . إن ذلك سوف يتحقق خلال عشرين سنة لا أكثر ."

● والشعب فى الحجاز يتابع ما يجرى من تطورات متلاحقة ويجد نفسه متفرجا على صراع شيوخ . فقد بقى فيه الشريف "حسين" لبعض الوقت محسورا وممرورا وسط نصائح تقدم إليه بأن يتنازل عن العرش لابنه الشريف "على" ويكتفى هو بدور "أبو الملوك" ، لكن السلطان "عبد العزيز آل سعود" ما لبث أن وجد فرصته سانحة ، فإذا هو يزحف بجيوش الإخوان من نجد ويستولى على الحجاز لكى يعلن فيما بعد قيام المملكة العربية السعودية .

وفى مجمل الأحوال فإن مشهدا آخر من أغرب مشاهد التاريخ العربى الحديث يكفى فى حد ذاته لشرح وتصوير الطريقة التى كانت تتقرر بها مصائر العرب .

إن راوية المشهد هو اللورد "هانكى" سكرتير مجلس الوزراء البريطانى ، وقد عاشه بنفسه أثناء حوار مباشر بين رئيس الوزراء البريطانى "لويد جورج" وبين رئيس الوزراء الفرنسى "جورج كليمنصو" .

ففى يوم أول ديسمبر ١٩١٩ وصل رئيس وزراء فرنسا ورئيس وزراء إيطاليا إلى لندن لمباحثات مع رئيس وزراء بريطانيا .

والتقى الاثنان فى مبنى السفارة الفرنسية ، وبينهما اللورد "هانكى" الذى جرى تكليفه رسميا بوضع مذكرة عن حديثهما .

وفى البداية ـ كما ورد فى مذكرة اللورد "هانكى" ـ كان رئيس الوزراء الفرنسى يشعر أن الحكومة البريطانية متضايقة من بعض تصرفات الرسميين الفرنسيين ، وهى تعتبر أنها أحيانا تجاوزت حدود المقبول إزاء الحليف الأكبر فى الحرب وهو بريطانيا . وكان "كليمنصو" حريصا على استرضاء رئيس الوزراء البريطانى لأنه ما زال يشعر بالحاجة إليه فى التسوية النهائية وما يترتب عليها . وبدأ الحوار بين الاثنين ودار على النحو التالى على حسب ما سجله اللورد "هانكى" فى مذكرته بالحرف (وثيقة مجلس الوزراء رقم ١١٦/١٤ بتاريخ ١ ديسمبر ١٩١٩) :

"كليمنصو : إننى حريص ألا تكون هناك خلافات كبيرة بيننا ، فما زالت أمامنا ظروف تقتضى لقاءنا المستمر . إن تحالفنا نجح فى تجربة الحرب ، وليس من المعقول أن يرسب فى تجربة السلام .

ثم استطرد رئيس الوزراء الفرنسي يقول لزميله البريطاني :

"دعنا نسوى الأمور بيننا مباشرة ، وقل لى ما الذى تقترح أن نبحثه معا الآن؟"

لويد جورج : دعنا نبحث مصير العراق وفلسطين .

كليمنصو : إذن قل بصراحة ماذا تريد ؟

لويد جورج : أريد الموصل . أنتم تطالبون بهذا الإقليم ونحن نعتبره تكملة لجنوب العراق الذى اتفقنا على أن يكون من نصيبنا .

كليمنصو : حسنا . لك أن تأخذ الموصل . سوف نتركه لكم ... هل هناك شىء آخر ؟

لويد جورج نعم ... أريد القدس أيضا . إنكم تثيرون متاعب لنا ، وتطالبون بالحق فى فلسطين باعتبارها جنوب سوريا .

كليمنصو : لك أن تأخذ القدس أيضا ... هل هذا يرضيك " .

لويد جورج : هذا شىء طيب .

كليمنصو : إن بيشون (وزير خارجية فرنسا) سوف يثير لى مشاكل بسبب الموصل ، وأرجوك أن تساعدنى إزاءه .

لويد جورج : ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

كليمنصو : اتركوا لنا سوريا شمال فلسطين دون أن تثيروا المتاعب فى وجهنا . أنا لا أعنى المنطقة المسيحية فى لبنان فقط ، ولكن أريد سوريا الداخل أيضا : دمشق وحلب وحمص وحماه .

لويد جورج : ليست لنا مصالح حيوية فى هذه المناطق ولن نعارضكم عندما تضعونها جميعا تحت حكم فرنسى موحد ! "

وانتهت المناقشة بين الرجلين لأن رئيس وزراء إيطاليا انضم إليهما فى صالون السفارة الفرنسية .

☐

ولم يكن الشعب العربى فى فلسطين مستعدا لما نزل عليه .

كانت أجود أراضيه تنزع من ملكيته بالشراء أو بالاغتصاب . وكانت موجات الهجرة تتدفق على ربوع وطنه ومستعمراتها الاستيطانية تقوم وتتوسع كل يوم . وكان ذلك يتم بأساليب وسياسات امتزج فيها العنف بالخديعة ، والاغتصاب بالرشوة ، بينما السلطة البريطانية القائمة بالانتداب تنفذ سياسة مرسومة لا تحيد عنها لأى سبب أو اعتبار

وفى الواقع فإن ما كان يجرى فى فلسطين تلك الأيام كان نموذجا كلاسيكيا للصدام بين عقليتين : عقلية الغرب المنظم والمصمم ، وعقلية الشرق القدرى والمستضعف .

وكانت عرائض الاسترحام هى الأسلوب الذى طرح نفسه فى ذلك الوقت موجهة إلى عصبة الأمم ، أو إلى الحكومة البريطانية ، أو إلى الحاكم العام البريطانى . وكان ذلك يتناسى أن هؤلاء جميعا مسئولون ومكلفون عن مهمة معينة هى تنفيذ "وعد بلفور" .

ولعله مما يثير الأسى أن يقوم أحد الآن بدراسة مضمون العرائض التى كانت تقدم سواء إلى عصبة الأمم أو إلى الحكومة البريطانية أو إلى الحاكم العام البريطانى فى فلسطين من كل سكانها مسلمين كانوا أو مسيحيين .

ومن عرائض المسلمين مثلا فقد كانت العرائض العربية تشكو بالدرجة الأولى من :

- "إن المهاجرين اليهود متأثرون بالمبادئ البولشفية ، فهم فى معظمهم قادمون من روسيا ، ولا هم لهم إلا الترويج للفكر الشيوعى ، وهم يطبقون تعاليمه فى مستوطناتهم" (الكيبوتز) .

- "إن المهاجرين اليهود متعجرفون ويتعاملون مع السكان العرب باستعلاء وقسوة" .

- "إن المستوطنين اليهود يتصرفون بطريقة إباحية ، ويخرج الشبان والشابات منهم إلى الشوارع بملابس "خارجة عن اللياقة" متأبطين بعضهم بعضا ذراعا بذراع ، ينشدون الأغانى ويسلكون مسلكا مخالفا "لمبادئ التأدب والحشمة" ."

- "إن الحياة فى مستعمرات المستوطنين اليهود تتسم باباحية سافرة "يندى لها الجبين"."

ومن عرائض المسيحيين مثلا تجىء عريضة مقدمة إلى الجنرال "واتسون" الحاكم العام فى فلسطين يرد فيها ما نصه :

"إننا قوم مطيعون لولى الأمر ، ومصالحنا لا تمتزج مع حكومة غير الحكومة البريطانية . ونحن أقنعنا الأهالى بأن حكومة بريطانيا العظمى هى أفضل حكومة تنظر فى عمران بلدنا وترقيه . ونحن نرى المزايا التى حصل عليها اليهود ,, ونأسف كلية لأحوالنا ، ونبكى لحرماننا من مثلها ، خصوصا ونحن قوم طائعون ومحبون لمن تولى أمرنا ."

□

وفى مرحلة لاحقة ، مع أوائل الثلاثينات ، أدرك الفلسطينيون أن عرائض الاسترحام لا تكفى فأنشئوا ما سمى وقتها بالمجلس الفلسطينى الأعلى ليواجه المجلس الصهيونى العالمى . لكن محاضر اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا لهذا المجلس لسنة ١٩٣٣ لا تشير إلى أن المجلس الفلسطينى الأعلى عثر بعد على صيغة ملائمة لمقاومة ما يجرى على أرض فلسطين. وفى محاضر هذه اللجنة التنفيذية لسنة ١٩٣٣ ما يشير إلى بحث يجرى حول قيام بعض الأغنياء العرب ـ وبينهم لبنانيون وسوريون وفلسطينيون ـ ببيع أراضيهم للوكالة اليهودية فى فلسطين . ويسجل أحد المحاضر مناقشات دارت على النحو التالى :

"السيد جمال الحسينى : علمت أن عضوا من أعضاء اللجنة التنفيذية موجود بيننا الآن قابل المندوب السامى البريطانى ليحتج على بيع الأراضى لليهود . ورد عليه المندوب السامى قائلا: "إن هناك رجالا يمثلونكم يبيعون أراضيهم لليهود ، فلماذا تحتج عندى أنا ؟"

السيد عونى عبد الهادى : هذه الواقعة حدثت معى ، وقلت للمندوب السامى "أعطونا المال واضمنوا لنا موافقة الحكومة الفرنسية ونحن نشترى كل أراضى باريس" .

ورد على المندوب السامى بقوله "إن الفلاحين ليسوا هم الذين يبيعون الأراضى ، وإنما الذين يبيعونها هم الأثرياء" .

الشيخ صبرى عابدين : أقترح إخراج من يبيع أرضه لليهود من حظيرة الدين الإسلامى ، وأنا مستعد لأن أثبت شرعيا أن من يبيع أرضه لليهود يحرم من حق الدفن فى مقابر المسلمين ومن الصلاة عليه عندما يتوفى .

السيد عبد اللطيف صلاح : أنا متحمس لهذا الاقتراح ، وأضيف إليه أن نعلن فى المساجد فى فلسطين وفى كل بلاد الإسلام ظلم بريطانيا لنا ، والدعاء على الظالمين بأن يبتليهم الله بظالمين أشد منهم ، ثم نطلب بعد ذلك من المسيحيين فى البلاد المسيحية أن يقوموا بمثل ذلك فى الكنائس . وأنا ضامن أن حكومة الانتداب سوف تغير رأيها بعد ذلك ."

□

ومع مجىء سنة ١٩٣٦ كان الشعب الفلسطينى قد بدأ يقترب من حقائق العصر ، فإذا نيران الثورة تندلع فى فلسطين تحت قيادة مفتى القدس الحاج "أمين الحسينى" .

كانت الشرارة التى أشعلت نيران الثورة هى مقتل فلسطينى قرب مستعمرة "بتاح تكفاه" يوم ١٦ ابريل ١٩٣٦ . وعلى الفور جرى تأليف لجان وطنية للمقاومة ، ودعت كل الأحزاب الفلسطينية إلى تنظيم إضراب عام . ثم تم تشكيل لجنة عربية عليا للمقاومة أسندت رئاستها إلى الحاج "أمين الحسينى" مفتى القدس . ولم يقتصر الأمر على الإضراب ، وإنما ظهرت عمليات مسلحة للمقاومة قادها الشيخ "عز الدين القسام"(٣) الذى استشهد فى معارك الثورة

كانت الثورة مفاجأة قاسية للسلطة البريطانية فى فلسطين ، وكانت كذلك مفاجأة لحركة الاستيطان الصهيونى فيها . وبرغم تعزيزات عسكرية حاشدة أتت بها السلطات البريطانية من مصر ومن مالطا فإن نيران الثورة كانت تنتشر كل يوم ولا تنحصر .

وقررت الحكومة البريطانية أن تبعث بلجنة تحقيق تتقصى أسباب الثورة . وجاءت اللجنة برئاسة اللورد "بيل" وأصدرت توصية بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ، ودولة عربية يتم دمجها مع شرق الأردن ، على أن يظل الانتداب البريطانى قائما عبر الضفتين . ورفضت قيادة الثورة الفلسطينية اقتراح التقسيم ، وطالبت بإنشاء دولة فلسطينية واحدة مستقلة توفر الحماية والحقوق المشروعة لليهود وغيرهم من الأقليات .

واستمرت الثورة تهز فلسطين لثلاث سنوات كاملة ، وقدم الشعب الفلسطينى خمسة آلاف شهيد فى معاركها .

---

(٣) قامت الكتائب التى تحمل اسمه الآن بمعظم أعمال المقاومة الإسلامية فى قطاع غزة ضد الاحتلال الإسرائيلى فى النصف الأول من التسعينات أثناء وقائع "الانتفاضة" .

وكان مما يلفت النظر فى وقائع الثورة أن ثلاثة من ملوك العرب وأمرائهم ، وهم ملك السعودية وملك العراق وأمير شرق الأردن ، تدخلوا فى مسارها لتوجيه نداء إلى اللجنة العربية العليا لتوقف الإضراب العام حتى تعطى للحكومة البريطانية فرصة لإعادة تقييم الأمور . واستجابت اللجنة العربية العليا للنداء ، وأوقفت الإضراب فعلا . لكن الحكومة البريطانية لم تفعل شيئا . وعادت نيران الثورة تتأجج مرة أخرى حتى اضطرت الحكومة البريطانية ـ بعد مؤتمر دولى عقد فى لندن سنة ١٩٣٨ ، وشاركت فيه بعض الدول العربية وبينها مصر لأول مرة ـ إلى إصدار كتاب أبيض سنة ١٩٣٩ يشرح تصورها لحل المشكلة الفلسطينية . وكان الحل الذى قدمه "مالكولم ماكدونالد" وزير المستعمرات البريطانى هو : "استقلال مشروط لدولة فلسطينية بعد فترة انتقالية مدتها عشر سنوات ، مع السماح بدخول ١٥٫٠٠٠ مهاجر يهودى كل سنة إلى فلسطين لمدة خمس سنوات .

وثارت ثائرة المنظمات اليهودية ، وراحت كلها تكشف من عملها المسلح، كما ظهرت بينها فرق تطالب بشن الحرب الشاملة على العرب واقتلاع جذورهم أساسا من كل فلسطين .

وكانت الأجواء الدولية ملبدة بالغيوم .

ومرة أخرى يلفت النظر أن الحركة الصهيونية لم تتفاوض مع أصحاب البلد الأصليين ، أى الفلسطينيين .

كان ممثلو الحركة الصهيونية قد تفاوضوا مع بريطانيا فى البداية : "روتشيلد" مع "بالمرستون". ثم قاموا بنوع من التفاوض لصفقة شراء بلد بأكمله : "هيرتزل" مع السلطان "عبد الحميد" . ثم عادوا للتفاوض مع بريطانيا فى التمهيد لـ "وعد بلفور" : "روتشيلد" مع "بلفور". ثم جربوا نوعا من التفاوض مع الأمراء الهاشميين : "وايزمان" مع "فيصل" .

لكن التفاوض مع الفلسطينيين لم يكن واردا على الإطلاق ، وكانت محاولته اعترافا بوجود "آخر" لا بد من إنكار وجوده أساسا .

وبالنسبة لمصر فلم يكن عزلها أو حجزها وراء سيناء أو وراء قناة السويس يحتاج إلى تفاوض معها . ولم تكن مصر مدركة لما يدبر لها ، ولم تكن هناك مصلحة لأحد فى لفت نظرها إليه ولو حتى من باب دعوتها إلى الحديث عنه مجرد حديث ، فضلا عن أن يكون الحديث من باب التفاوض !

الفصــــل الرابـــع

مصـــر تعـــود إلى الساحـــة

"حتى الذين يؤمنون بأنها مصـر أولا ومصـر ثانيا ومصـر أخيرا
لا بـد لهـم أن يعرفـوا أن مصـر القوية القادرة
لم تكن مصـر داخل حدودها .
بالأمـس واليـوم وغـد ، ليس هناك أمـل ولا أمـن لمصـر
معزولـة عن أمتهـا ومحصـورة داخـل حدودهـا السياسيـة .
وإذا تحدثنـا بالأنانية ـ وتركنا جانبا حديث الانتماء ـ فإن "مصـر
الأنانيـة" يتحـتم عليها أن تكون عربيـة .
وليس ذلـك حكـم التاريخ وحـده ،
وإنما هـو حكـم المستقبـل قبلـه ."

١

الملك فؤاد

" صفر + صفر يساوى كام يا عزام "

("سعد زغلول" باشا لـ"عبد الرحمن عزام" باشا)

كان ظهور مصر واشتراكها فى مؤتمر فلسطين ـ الذى عقد فى لندن سنة ١٩٣٨ ـ نقطة تحول بارزة فى سياسة مصر وفى سياسات الشرق الأوسط كلها .

كان المؤتمر قد انعقد على خلفية وقائع ثورة ١٩٣٦ التى هزت فلسطين وما جاورها من الأقاليم العربية . كذلك كان انعقاد المؤتمر عشية الحرب العالمية الثانية وتحسبا لاحتمالات نشوبها ، مع شبه يقين بأن الشرق الأوسط كما حدث فى الحرب العالمية السابقة سوف يكون من أهم ميادينها .

وكان اللافت للنظر أن وفد مصر فى هذا المؤتمر ـ فى لندن سنة ١٩٣٨ ـ جاء على أعلى مستوى يمكن تصوره فى ذلك الوقت . فرئيسه هو نفسه رئيس الوزراء "على ماهر" باشا ، وهو واحد من الساسة المرموقين فى مصر قبل الثورة . وكان "على ماهر" ـ بصرف النظر عن رئاسته للوزارة ـ معروفا بكونه رجل الملك القوى ، وكان "فاروق" فى ذلك الوقت صبيا تولى العرش بعد أبيه ـ (الملك "فؤاد") ـ قبل عام واحد تقريبا ، وكان عهده ما زال بعد فى بواكيره الأولى ، وكان الصبى يحاول أن يسمع وأن يفهم وأن يعى . ومن الإنصاف القول إنه كان فى تلك الفترة مفتوحا لآمال وطموحات كبرى كان من أهمها ذلك الاتجاه الواضح القوى نحو الشرق .. المشرق العربى وما وراءه أيضا .

□

كانت مصر قبل اشتراكها فى مؤتمر فلسطين ١٩٣٨ قريبة من المشرق العربى على المستوى الإنسانى والثقافى والفنى ، ولعلها اقتربت قليلا من المستوى الاقتصادى مع قيام "طلعت حرب" بتأسيس بنك مصر - الذى مد نشاطه بسرعة إلى سوريا ولبنان ـ لكنها رغم ذلك كانت بعيدة عن المستوى السياسى إلا من ناحية التأثير الذى كانت تحدثه الحركة الوطنية المصرية من أصداء شعبية فى المنطقة ، وما كانت تثيره من تعاطف تغذيه قوة الاتصال التاريخى فى حد ذاته ، حتى وإن لم يتحقق وعى كاف بقوة هذا الاتصال التاريخى وأسبابه ودواعيه . ومن الإنصاف القول بأن العالم العربى فى مشرقه ومغربه كان يعرف عن مصر وشئونها بأكثر مما تعرفه مصر عما حولها وشئونه .

فمنذ عصر "محمد على" ومنجزاته الضخمة ، و إلى عصر "إسماعيل" وأضوائه اللامعة ، و إلى ثورتى "عرابى" و"سعد زغلول" ، كانت الأمة العربية فى المشرق تعتبر القاهرة عاصمتها الحضارية ، لكن الحركة على طريق العلاقات كانت - غالبا - من جانب واحد ، فالعرب هم الذين يأتون إلى مصر دائما ، بينما مصر تذهب إليهم نادرا . ولعل السبب أن مصر كانت مشغولة بشىء آخر أو أشياء أخرى حجبت عنها ما كان يجرى فى بقية العالم العربى .

وربما ظهرت فى بعض اللحظات بوادر تنبه مصرى إلى المحيط العربى حولها ، ولكن تلك كانت نوبات اهتمام إنسانى يظهر بسرعة ثم يخفت أثره بنفس السرعة التى ظهر بها ، كما حدث فى مناسبات معينة ، كانت آخرها موجة حماسة لفلسطين فى الأيام الساخنة من ثورة سنة ١٩٣٦ . لكن الحماسة بصفة عامة ظلت مقصورة فى أثرها على عدد من الشخصيات وعلى عدد من التجمعات ، وإن رافقتها فى بعض المرات مشاعر شعبية أوسع نسبيا .

ولم تكن هذه الحالة العامة طبيعية بحقائق الجغرافيا والتاريخ التى جعلت مصر بجوهر هذه الحقائق جزءا من الأمة العربية ، لكن هذه الحالة - وفى ذلك الوقت ـ جاءت نتيجة منطقية لمجموعة من العوامل راحت تحدث تأثيراتها ، وتراكمت هذه التأثيرات فوق بعضها حقبة بعد حقبة :

● إن مصر جرى قطعها قطعا وبشبه عملية جراحية بعد الحملة الفرنسية عليها فى أخريات القرن الثامن عشر . فقد نزلت فيها جيوش "نابليون" وعزلتها عن بقية العالم العربى فى المشرق . وحتى من قبل هذا الغزو ولزمان طويل فإن ضعف الدولة العثمانية ، مع انحطاط مستوى الحكم المملوكى فى فترة احتضاره ، أضعفا حركة الاتصال والتعامل بين الولايات العربية ، حتى جاء "نابليون" واحتجز مصر رهينة .

● وبعد ضرب مشروع "محمد على" فى سوريا ، فإن حاكم مصر الطموح قبع فى ولايته حزينا ومريضا أيضا ، وكان أهم أهداف ضرب مشروعه هو تأكيد عزل مصر عن سوريا ـ أى عن المشرق العربى كله فى الواقع ـ وترسخ ذلك أكثر حينما بدأ النفوذ البريطانى يزيد فى مصر تمهيدا لاحتلالها أرضا وإرادة .

● وطرأت فى هذه الفترة عناصر مستجدة لكل منها أهميته الخاصة فى إلهاء مصر عن المشرق :

◊ فقد نجحت بعثات اكتشاف منابع النيل فى عصر "إسماعيل" ، فى لفت نظر مصر إلى الجنوب ، وإعطائها الإحساس بأن مستقبلها وأمنها هناك وليسا فى أى مكان آخر .

◊ وترافقت هذه الاكتشافات الجغرافية مع اكتشافات تاريخية فى حفائر مصر الفرعونية ، وكان من أثر ذلك أنه لفت نظر مصر إلى تاريخها القديم ، وداخلها وهم أن المستقبل هو مجد بناة الأهرام والمعابد والمسلات .

● ومع غروب شمس القرن التاسع عشر وشروق شمس القرن العشرين كانت مصر غارقة حتى أذنيها فى قضية الاستقلال الوطنى ، ومطالبة بريطانيا بالجلاء عن أرض مصر والسودان .

وكانت التنظيمات السياسية ـ الحزبية ـ التى ظهرت على ساحة الحياة العامة فى مصر مشغولة بالقضية الوطنية ، وغير قادرة بواقع الأمور على تجاوزها وعلى إدراك أن هذا التجاوز للحدود الوطنية يعطيها قوة مضافة أكثر مما يحملها هما إضافيا .

● وربما ساعد على هذا الإنحصار فى التفكير أن الحركة الوطنية المصرية اعتمدت بشكل أساسى على ملاك الأراضى ، والزراعة عادة تعطى أصحابها شعورا بحدود المكان يركزون جهدهم عليه ولا يخرجون منه إلى غيره خصوصا إذا بدا "غيره" هذا من بعيد مثقلا بالمشاكل، مزدحما بالمطامع ، موزعا وممزقا بين القوى والأطراف . ولعل ذلك هو التفسير لملاحظة "سعد زغلول" الشهيرة حين جاءه "عبد الرحمن عزام" ينبهه إلى أهمية "البلاد العربية"، وكان رد "سعد زغلول" هو قوله : "صفر زائد صفر يساوى كم يا عزام ؟"

□

كان هناك بعد آخر قد لا يظهر تأثيره المباشر لكن فعله كان واسعا ونافذا ، وذلك أن الفكر المصرى كان قد مد جسوره إلى الشمال عبر البحر الأبيض ، واعتبر أن ذلك طريقه إلى العلم والثقافة والتنوير .

لم يوجه الفكر المصرى نظره شرقا ولا غربا حوله ، وإنما مد بصره إلى الشمال عبر البحر مبهورا بأوروبا ، و إلى باريس بالذات . وكانت البداية هى رحلة الشيخ "رفاعة رافع الطهطاوى" مع أولى بعثات "محمد على" ، وقد عاد منها يحمل ومضات من فكر "فولتير" و"روسو" و"مونتسكيو" . وتحولت هذه الومضات فى مصر إلى كشافات منيرة توسعت مساحة نورها فيما بعد بأفواج البعثات العلمية إلى أوروبا فى عصر "محمد على" ، ثم استؤنفت فى عصر "إسماعيل" الذى كان حلمه تحويل مصر إلى قطعة من أوروبا بصرف النظر عن عوائق الجغرافيا وموانع التاريخ .

ومع بداية القرن العشرين كان أعلام الفكر ـ وبالتالى السياسة ـ فى مصر من تلاميذ الثقافة الأوروبية . الفرنسية على وجه التحديد .

وأكثر من ذلك فإن هؤلاء الأعلام من تلاميذ الثقافة الأوروبية توزعوا على المدارس المختلفة والمتصارعة لهذه الثقافة كما عبرت عن نفسها فى ذلك الوقت ، دون ملاحظة أن عوامل الجغرافيا والتاريخ فى منطقة من العالم تختلف عنها فى غيرها من المناطق . كما غاب أيضا عنصر هام وهو أن مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى ، ومن ثم السياسى، غالبة على أمرها . ومهما يكن فإن هؤلاء الأعلام ـ على توزع مدارسهم ـ كانوا يحملون هم التقدم من أى سبيل التمسوا منه مهربا من التخلف والاستعمار .

وهكذا فإنه من بداية القرن العشرين وحتى الثلاثينات منه برزت فى مصر عدة مدارس فكرية وسياسية متنوعة :

- كانت هناك مدرسة ليبرالية مع تنوع ألوان وظلال الليبرالية ، وكانت هذه هى المدرسة الأوسع والأكبر ، وإليها انتمى حزب الوفد وهو حزب الأغلبية فى ذلك الوقت ، وأقطابه من ملاك الأراضى والمتعلمين من أبنائهم أو عائلاتهم ، وأغلبهم ممن درسوا الحقوق واشتغلوا بالقانون . والاشتغال بالقانون يشغل نفسه عادة بـ "النص" سواء فى ذلك النص المكتوب أو النص الواقعى ، وبالتالى فإن هذا التيار فى أغلبه حصر نفسه فى "نص" الاستقلال الوطنى لم يخرج عنه .

- وكانت هناك مدرسة لنوع من الاشتراكية المثالية أو الفابية أو الماركسية فى نزعاتها الثورية الأولى ، وكانت هذه المدرسة بعيدة عن مواقع التأثير إلا فى دوائر محدودة من المثقفين . وقد بدت دعاواها فى تلك الفترة بعيدة عن الواقع الاجتماعى والاقتصادى فى

مصر، بحيث أن دور هذه المدرسة ـ على اختلاف تنويعاتها الاشتراكية ـ بدا هامشيا وبعيدا عن الأولويات التى طرحها ظرف طلب الاستقلال كمدخل لا بديل عنه لحلم التقدم الوطنى .

● وكانت هناك مدرسة لدعاة المادية أخذهم "داروين" بنظرياته إلى بعيد ، مما قطع صلتهم عن أى فعل حقيقى ، وقد تصادموا منذ اللحظة الأولى بالرواسى الدينية وتحطمت دعاويهم على صخور هذه الرواسى العتيدة ، وجرفهم النسيان فانزووا يلومون الناس ولا يلومون أنفسهم .

● إلى جانب تلك المدارس كلها كانت هناك مدرسة إسلامية على نحو ما تخلط الإسلام بالعروبة دون تحديد ، وقد قادها إلى ذلك الخلط اهتمامها بمسألة الخلافة واتصالها على نحو أو آخر بأفكار الثورة العربية . وبالطبع كان الشيخ "رشيد رضا" هو عمدة هذه المدرسة ، لكن دورها شحب باختفائه وبقدر ما انكمش تأثير جريدته : "المنار" .

وفى كل الأحوال فإن هذه المدارس جميعها انشغلت فى قضية واحدة هى قضية طلب الاستقلال داخل الحدود المصرية ، إلى جانب نوع ما من العلاقة مع السودان . وكان فى ذلك نسيان لقضية أساسية تسبق الاستقلال ، وهى قضية الهوية ، فليس فى استطاعة كائن ما أن يحدد ما يريده إذا لم يعرف مسبقا من هو ؟

كانت مصر طوال تاريخها دولة بر وليست دولة بحر على حد تعبير الدكتور "جمال حمدان" . ومعنى أنها دولة بر أن طريقها إلى آسيا ـ عبر سيناء ـ كان هو الأشد فعلا وأثرا فى تكوينها وتشكيلها الحضارى من أى طريق آخر : منه جاءتها الهجرات والغزوات والديانات ، ومنه جاءتها معظم عناصر التكوين والتشكيل الإنسانى والحضارى.

وربما أحس بعض المفكرين بأن قضية الهوية تحتاج إلى تأصيل ، وكان اختيارهم السهل أنها هوية البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تلك عملية توفيق فكرى مقبولة فى ذلك الوقت لقضية الهوية . وربما أن كتاب الدكتور "طه حسين" الشهير عن "مستقبل الثقافة فى مصر" هو خير تعبير عن هذه المحاولة للتوفيق الفكرى .

وكان هناك فريق شذ عن هذه المدارس كلها ، مد بصره خارج الحدود نحو الشرق ، وراح بالشعور والضمير ينحى منحى مختلفا فى الحقيقة ، فقد كان ذلك دوره سواء أداه بوعى أو توجه إليه بنداء الوجدان التلقائى الذى لا يهتم كثيرا بالتحليل والتأصيل ، وكان ذلك فى الغالب الأعم هو طريق الأدباء والشعراء والفنانين . فهؤلاء جميعا راحوا مثل دود القز ينسجون خيوطا من الحرير تكاد تكون غير مرئية إلى الشرق ، وبالذات إلى سوريا

ولبنان والعـراق ، وإذا خطوط الحرير تتحول إلى جسور لها قـوة الحديـد . وفـى النهايـة فـإن هذا الفريق استطاع أن يحقـق بأكـثر مما كان يمكن أن تحققـه فـرق السياسـة فى تلك الأيام .

□

فى تلك الفترة ظهـر واختفى بسرعة خاطـر عربـى تمثـل فـى طمـوح الملـك "فـؤاد" إلى الخلافـة . وكان الملـك فيما يبدو قد عـرف بما جرى عـرضه علـى السـلطان "حسـين كامـل" من أمـر ولايـة أمـير مسلـم على القدس ، كما أنه وجـد فـى نفسـه الأهليـة أكـثر مـن غـيره ليدخل فى سباق الخلفاء المرشحين ، سـواء مـن الهاشميـين أو السعوديـين . لكـن الإنجليـز كانوا قد غـيروا رأيهـم بعد الثـورة المصريـة سنـة ١٩١٩ .

قبل هذه الثـورة وفى وقت السلطان "حسين كامـل" فكروا له فـى إمـارة القـدس ، وقـد بـدت مصـر لهم محمية هادئة مطيعة يمكن أن يعهد إلى أميرها بالمدينة المقدسة ومـا حولهـا ، ويمكن فى ظله أن يتحقق تغيير التوازن السـكانى فـى فلسطـين مـن عـرب إلى يهـود بـدون ضجـة كبرى . لكن ثـورة سنـة ١٩١٩ غيرت هذه التقديرات وأظهرت أن مصـر ليسـت تلـك المحمية الهادئة المطيعـة التى تصورهـا بعضهـم .

وهكـذا فإن مسعـى الملـك "فـؤاد" للخلافـة توقـف فى الواقع قبـل أن يبـدأ ، ثـم لـم تمـض إلا شهور حتى كان موضوع الخلافـة كله ، وبالنسبة للأسـر الثلاثة الطامحة إليه ، قد طواه النسيـان وعفـت عليه الأزمـان .

ومن الملفت أن إثارة موضوع الخلافة فى ذلك الوقت أحـدثت نوعا من القلـق وسـط التيار الليبرالى فى مصـر ، وكان قلقـا لـه مبرراتـه .

فمن ناحية بـدا أن الملك "فـؤاد" يحاول أن يخلـط الديـن بالسياسة ، وهى لعبـة خطـرة.

ومن ناحية أخرى فقد بـدا أن الملـك يحـاول تعزيـز سلطتـه فـى مصـر بمكانـة أكـبر يحققها لنفسه خارجها بدعـوى خلافـة المسلمـين ، وهى لعبـة أشد خطـورة .

ومع تغـير رأى الإنجليز فى موضوع ولايـة أمـير مصـرى على القدس وما حولها ، ومع نفـور أبـداه التيار الليبرالى فى مصـر ـ وهو أقـوى التيارات وقتها ـ فإن الملـك "فـؤاد" نفسـه آثـر أن يترك قضية الخلافة ويلتفت إلى تعزيـز سـلطته فـى مصـر بدعـوى حمايـة حقوقـه الدستورية إزاء "سعـد زغلـول" و"مصطفى النحـاس" .

وهكذا فإن اتجاه مصـر سياسيا ورسميـا نحـو الشـرق تعطـل ، وبـدت آفاقـه مغطـاة بأسراب من السحـب العابـرة لا تتيـح الفرصـة كافيـة لإعمـال الفكـر والنظـر .

٢

الملك فاروق

" لا أستطيع أن أرسم لوحة إلا إذا
أحسست بموضوعها "

(الضابط البريطانى "سيمون إلويس" فى تبرير
علاقته بالملكة "فريدة")

فى منتصف الثلاثينات كانت هناك تغييرات هامة تقع فى مصر . ومع أن كل تغيير منها جرى على غير ما صلة ظاهرة بالآخر ، فإن صلات من نوع ما كانت تربط هذه التغييرات كلا منها بالآخر :

● كانت هناك مرحلة من الكفاح الوطنى على وشك أن تصل إلى نهايتها ، وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ (بين مصر وبريطانيا) هى علامة هذه النهاية . والحاصل أن الرعيل الأول من جيل المطالبين بالاستقلال كان قد تعرض كثيرا لعوامل النحر والتعرية وأصبح مكشوفا لقبول أى حل مع بريطانيا يرد فيه ذكر "الاستقلال" وذكر "الجلاء" ، حتى وإن كان ذكر الاثنين يجىء مبهما .

● وكان هناك جيل من الشباب الطامح الذى نشأ بعد مناخ ثورة ١٩١٩ ، وكان هذا الجيل هو الذى مهد لحركة طلبة الجامعة ــ سنة ١٩٣٥ ــ التى فرضت على الزعماء التقليديين للأحزاب أن يجتمعوا معا فى جبهة وطنية لمفاوضة الإنجليز . وفى حقيقة الأمر فقد كان هناك ما يمكن تسميته "نصف ثورة" أشاعت فى مصر جوا فوارا . لكن هذا الجو الفوار ما لبث أن خمد بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ .

● وكانت مغامرة "طلعت حرب" العظيمة قد بنت هياكل بنك مصر وشركاته ، وشاع بشكل ما إحساس بأن هناك كثيرا يمكن عمله فى مجال النمو الاقتصادى . وفى أقل القليل فإن مصريا بارزا أثبت عمليا أن النمو ممكن وأن المصريين قادرون عليه .

● وفى سنة ١٩٣٦ مات الملك "فؤاد" . وكان حكم هذا الملك المتأثر بالثقافة الإيطالية والقريب من فكر أسرة "آل سافوى" المالكة فى إيطاليا يومها ، قد تراجع مع السنين ـ وأمام ضغوط الحركة الشعبية ـ إلى نوع من حكم "آل بورجيا" الذى تغلب فيه دسائس القصور على طموحات الملوك .

● ثم إن ولاية العرش انتقلت بعد الملك "فؤاد" إلى ولى عهده "فاروق" الذى بدا فى ذلك الوقت صبيا جميلا ذكيا ناقص التعليم والثقافة معا ، لكنه بصباه قادر على التعويض . وفى كل الأحوال فإن صباه أعطى مصر إحساسا بأنها قرب وعد جديد .

● مضافا إلى ذلك أن الموقف الدولى كان يتحرك بسرعة ــ مع ظهور الفاشية فى إيطاليا ، والنازية فى ألمانيا ، والبلشفية فى روسيا ـ إلى حافة حرب عالمية يمكن أن تندلع فى أوروبا ، ويمكن أن يصبح الشرق الأوسط واحدا من ميادينها . وذلك المناخ أعطى مصر شعورا بالخطر إلى جانب الشعور بالأمل ولقاء الشعورين معا يمكن أن تنتج عنه شحنة كهربية لها ظواهر مدوية مثل البرق والرعد .

إن ذلك المناخ العام المشحون صاحبته علامات تستدعى التأمل :

● كان الرجل الذى اختاره الملك "فؤاد" للإشراف على تربية ابنه "فاروق" ، والذى رافقه فى رحلة العلم التى لم تكتمل إلى بريطانيا ، هو نفسه : "عزيز المصرى" (باشا) ، وهو أول رسول من قوى الثورة العربية الأولى ــ إبان الحرب العالمية الأولى ــ للاتصال والتفاوض مع بريطانيا . وهو نفسه صاحب شرط الدولة العربية المستقلة ، وهو الشرط الذى رفضه الإنجليز وحاولوا بعده عزل "عزيز المصرى"، وفضلوا عليه ـ وعلى غيره من القوميين العرب ـ أن يكون تعاملهم مع الأمراء الهاشميين والسعوديين الذين شغلتهم التيجان والعروش المعروضة وقتها فى واجهات العالم العربى !

وليس معروفا لماذا وقع اختيار الملك "فؤاد" على "عزيز المصرى" بالتحديد ، ولعل الملك الذى يئس من الخلافة العربية الإسلامية لنفسه ، حلم بها لابنه ، واختار "عزيز المصرى" ليكون جسرا يمشى عليه الحلم والفكرة من جيل إلى جيل . ربما .

وربما كانت هناك أسباب أخرى ، بينها أن الملك أراد أن ينشأ ابنه نشأة تتفق مع رؤى عصر جديد لمحه الملك العجوز قادما ، وتمنى لابنه الشاب أن يلحق به أو يمسك بأطرافه . ربما .

وربما أن الملك "فؤاد" أراد تربية ابنـه تربية عسكرية صارمـة تصـور أن "عزيز المصـرى" يمكن أن يعطيها لـه ويعـوده عليها . ربمـا .

ولعل الخطأ الذى وقـع فيه الملك "فـؤاد" ، أن اختياره لـ "عزيز المصرى" كـالمرافق الأول لابنـه فى إنجلترا ، صحبه اختياره لـ "أحمد محمد حسنين" أحد أمنائه لكـى يكـون المرافـق الثانى لابنـه . وكان هناك تناقـض شديـد بين شخصية وفكـر كل من الرجلـين .

فأولهما كان يريد للأمير الشاب حياة جـادة صعبـة ، فى حـين كـان الثـانى مـن أنصـار حيـاة سهلـة ورخـوة .

والحاصل أن وجـود الرجلـين فى حيـاة الأمـير الصـبى أصابـه بتناقـض عانـى منه فيما بعـد ـ وعانـت مصـر معـه ـ عنـاء شديـدا .

وفى منتصف الثلاثينات ، كان تأثـير "عزيز المصرى" ملحوظا على الملـك الشـاب .

● وكان الرجـل الذى وقـع عليـه الاختيـار لرئاسـة الـوزارة فـى تلـك الظـروف المفعمـة بالأمـل وبالخطر معا ـ فى أعقاب معاهـدة سنـة ١٩٣٦ ـ هـو "علـى ماهـر" (باشـا) . وكـان "علـى ماهـر" سياسيا مستقـلا خارج الأحـزاب ، ومحاطـا بمجموعـة مـن الرجـال يتصورونـه "رجـل الساعـة" ، وقد استخدموا هذا التعبـير فعلا ذلك الوقـت . وكان بـين هـؤلاء الرجـال مجموعة من هؤلاء الذين أطالـوا النظـر فى قضيـة انتماء مصـر القومـى ، وقضية مسـتقبلها ، وكان معظمهم من أنصار التوجه إلى الشـرق . و إلى جانب "عزيـز المصرى" كان هنـاك آخـرون من أمثال "عبد الرحمـن عـزام" ، و"محمـد علـى علوبـة" ، و"صـالح حـرب" ، و"محمـود عزمـى"[1] ، وغيرهـم . وكان تصـور هؤلاء جميعا للشـرق غير محـدد فـى ذلـك الوقـت ، فلـم يكن الشـرق هو الأمـة العربيـة وحدها ، وإنما كان الشـرق متراميـا وراء ذلـك واصـلا إلى إيران.

ولعل هذا التوجـه شرقـا كان واحـدا من الأسباب التى دفعـت فى ذلـك الوقـت إلى زواج ملكـى يجمع ما بين الأميرة "فوزيـة" شقيقـة الملك "فـاروق" و"محمـد رضـا بهلـوى" ولـى عهـد إيران .

وحتى إذا قيـل بأن صاحب فكـرة هذا الزواج ابتداء هو "رضا خان" شـاه إيـران الأب ـ فى محاولة للبحث عن أصـل عريق فى المنطقة لأحفاده ـ فإن القبول المصـرى بهذا الزواج كان يحمل فى طياته إحساسا بأهمية الشرق فى المنظور المصرى الإسـتراتيجى ، وبالوسـائل التـى يمكن أن تخدمـه بمنطـق تلك الأيـام !

---

(١) بدأ الدكتور عزمى حياته العامة نصيرا لفكرة الاتجاه شمـالا إلى أوروبـا ، ووصـل إلى حـد المنـاداة باتخـاذ القبعة غطاء للرأس ، وسبق هو غيره إلى ذلك فعلا . لكن تأثير مدرسة الشرق ما لبث أن شده إليه وضمه إلى صفوفه .

• وكان من العلامات المثيرة للاهتمام فى ذلك الوقت ، أن تلك كانت الفترة التى ظهرت فيها تنظيمات انبعثت من حركة الشباب .. نصف الثورة سنة ١٩٣٥ .

كانت جماعة "الإخوان المسلمين" قد ظهرت فى أواخر العشرينات ، لكنها اكتسبت لنفسها قوة جديدة فى ظروف الفوران الذى صاحب أجواء مصر فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة . وكانت علاقة "الإخوان المسلمين" بـ "على ماهر" وثيقة ، وعن طريقه كانت العلاقة بالقصر سالكة .

ونفس الشىء حدث لجماعة أخرى من الشباب ، وهى حركة "مصر الفتاة" وقد تزعمها "أحمد حسين" ، وبرز إلى جواره جمع من الشباب المرموق بينهم "فتحى رضوان" و"نور الدين طراف" .

هكذا فإن اهتمام مصر بثورة الشعب الفلسطينى سنة ١٩٣٦ لم يكن عشوائيا ، وكذلك لم يكن من قبيل المصادفات اشتراك مصر فى مؤتمر فلسطين فى لندن سنة ١٩٣٨ .

ثم حدث أن الحرب العالمية الثانية زحفت بجيوشها إلى ميادين القتال بما فيها مصر.

ومما يستحق الاهتمام مراجعة ما حدث لمدرسة الشرق وقت الحرب العالمية الثانية ، وحين فرض الإنجليز فى ظروفها سلطتهم العسكرية على مصر ، كما كانت تقريبا فى وقت الحماية أثناء الحرب العالمية الأولى .

لقد تم اعتقال "على ماهر" باشا ، والمزعج أنه اعتقل داخل مجلس الشيوخ بطلب من السفير البريطانى وقع عليه "مصطفى النحاس" باشا .

كذلك جرى اعتقال "عزيز المصرى" (باشا) بصرف النظر عن الظروف ، وجرى تحديد إقامة آخرين من رجاله مثل "صالح حرب" (باشا) ، كما جرى حصر نشاط آخرين منهم مثل "محمد على علوبة" (باشا) و"عبد الرحمن عزام" (باشا) وغيرهما .

ونفس المصير : السجن أو العزل أو الحصار ، لحق برجال من أمثال "أحمد حسين" و"فتحى رضوان" و"نور الدين طراف" والشيخ "حسن البنا" .

بدا أن أعدى أعداء الإنجليز فى مصر وقت الحرب هم أنصار مدرسة الشرق . فقد كانت السياسة البريطانية ما زالت تعمل وفق الخطوط التقليدية القاضية بعزل مصر فى أفريقيا بعيدة عن تفاعلات ما كان يجرى فى الشرق .

وفى نفس الوقت وتحت ضغط الظروف وبإدراك أعمق لحقائق التاريخ فإن الاتجاه نحو الشرق فى مصر بدأ يرى بوضوح خطوط المستقبل وآفاقه .

□

وكان التاريخ يؤكد نفسه حتى من خلال تصرفات هؤلاء الذين يعملون على عكس اتجاهه .

والحاصل أن الإنجليز أنفسهم كانوا أول من أعطى للحركة العربية مرة أخرى رخصة للفعل . وهكذا فإن ما حدث فى الحرب العالمية الأولى ، عاد ليعرض نفسه بطريقة مختلفة فى ظروف الحرب العالمية الثانية .

ثم كان ـ لضرورات استمرار الحرب قبل معركة العلمين الفاصلة التى أنهت حلم "هتلر" بالوصول إلى قناة السويس ثم سوريا والعراق وما بعدهما ـ أن الشرق العربى كله وُضع تحت سلطة وزير بريطانى ـ عضو كامل فى مجلس الوزراء ـ مقيم فى الشرق الأوسط . ونظرا لصعوبة وسائل المواصلات والاتصالات بسبب ظروف الحرب ، فإن الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط أصبح حاكم المنطقة ، فى مجالى السياسة والاقتصاد .

ودون أن يقصد أحد فقد برزت خلال الحرب حقيقة كبرى ، تلك هى أن المنطقة من وادى الفرات إلى وادى النيل ـ وسوريا وسطها ـ ضلع مكمل للضلع المصرى على الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض، أصبحت وحدة واحدة ، لها خصائص مشتركة . وبينها تكامل جغرافى لا يمكن قطعه ، وأمن يصعب الفصل بين مقتضياته ، ومصالح متصلة ، وتماثل ثقافى من نوع فريد ، ومركز ثقل واحد ـ فى القاهرة ـ ليس من السهل تعويضه.

وفى هذه الفترة تبدى المعدن الحقيقى لخيوط الحرير التى نسجها الشعراء والفنانون والكتاب ، فإذا خيوط الحرير تتحول إلى جسور من حديد .

كانت قيادة الشرق الأوسط ـ وتحت إشراف الوزير البريطانى المقيم ـ تنسق على اتساع المنطقة كل شىء :

الإنتاج ، التموين ، المواصلات ، القرار السياسى . إلى جانب المشاركة بالجهود العسكرية اللازمة لتحقيق النصر ضد ألمانيا وإيطاليا وشركائهما فى الحرب .

ولم يكن ممكنا لذلك أن يحدث إلا ويصاحبه ، يسبقه ويلحقه ، تفاعل من داخل

المنطقة ذاتها يتصل بما يجرى فيها ويجرى حولها ، خصوصا إذا كانت هناك من الأصل قواعد ولحقت على القواعد وبقوة الأشياء .. جسور .

والحاصل أنه فى سنوات الحرب ، سواء والقتال يجرى قريبا من المنطقة أو عندما ابتعدت الجيوش متحركة إلى ميادين أخرى كانت منطقة الشرق الأوسط قائمة بذاتها ، معتمدة على بعضها ، متصلة بغير عوائق أو فواصل لأنها كانت فى إطار مسرح استراتيجى واحد .

ولعل الحكومة البريطانية - دون أن تقصد - سمحت للقواعد والجسور أن تؤدى دورها فى جلاء حقائق ، وفى ربط أطراف ، وفى تنسيق حركة تيارات . وقد فعلت ذلك لأغراضها وكان فى بعضه تكرار لما حدث فى الحرب العالمية الأولى .

ثم إن الحكومة البريطانية تمنت أن يخلص لها الشرق الأوسط بغير شريك ، وقد تصورت أن فرنسا التى شاركتها مرة من قبل فى قسمة المنطقة خرجت من القسمة باستسلامها لـ "هتلر" سنة ١٩٤٠ وبقيام حكومة موالية فى فيشى للمحور يتزعمها الجنرال "بيتان" .

واستغلت بريطانيا سقوط فرنسا فى الغرب ومدت يدها إلى ممتلكاتها فى الشرق - سوريا ولبنان - فأخرجت منها الإدارة التابعة لحكومة "فيشى"، ودخلت إلى بيروت ودمشق محررة بجيش يقوده الجنرال (جامبو) "ويلسون" .

لكن ضرورات الحرب فى الغرب اقتضت مهادنة فرنسا التى يمثلها الجنرال "ديجول" ، وهو وقتها لاجئ بحكومته إلى لندن . ومن أجل بناء مصداقية حركة فرنسا الحرة - وقائدها "ديجول" - وعلى أمل دور منتظر لهما فى إعادة غزو أوروبا عندما يجىء الوقت ، فإن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية سمحتا مرة أخرى لفرنسا - "ديجول" - أن تعود إلى سوريا ولبنان . لكن المشكلة أن "ديجول" بشخصيته العنيدة ، وبتصوره لعظمة فرنسا ، أخذ الموضوع جدا أكثر من اللازم ، واعتبر إدارته فى سوريا ولبنان فعلا سلطة حاكمة .

وقامت بريطانيا بتشجيع حركة وطنية فى سوريا ولبنان وجدت أن متغيرات الأحوال وسرعة هذه المتغيرات تتيح لهما فرصة تاريخية فى الاستقلال عن فرنسا .

ونشط جنرال بريطانى من المخابرات مرة أخرى - هو الجنرال "سبيرز" - إلى الاتصال بزعماء الثورة الوطنية فى الشام ، وإذا الجنرال "ديجول" يفقد أعصابه للحظة ويسمح للحاكم الفرنسى العام (فى ديسمبر ١٩٤٣) بأن يلقى القبض على صفوة الزعماء السياسيين فى دمشق وبيروت ، وأن يودعهم فى السجون والقلاع البعيدة !

ولم تكن بريطانيا قادرة علـى أن تتصدى للتصرفـات الفرنسية بنفسـها ، وهكـذا فإنهـا تركت الحركة الشعبية العربيـة تعـبر عـن نفسـها ، وقد كـان . وتقدم رئيس وزراء مصـر "مصطفى النحـاس" فـى هـذه الظروف يقـود مـن القاهـرة موجـة رد فعـل واسـع ضـد تصرفـات فرنسـا .

ومع جرعـة من الضغط البريطانـى ، بدواعى أن شبح الحـرب لم يبتعـد بعـد عـن آفـاق المنطقة ، اضطر "ديجول" إلى التراجع ، وجرى إعلان استقلال سوريـا ولبنـان .

وكانت تلك تجربـة للقوى القوميـة لا بـأس بهـا بصرف النظر عن كـل الملابسـات الدولية التى أحاطت بهـا .

□

كان "أنتونى إيـدن" وزير خارجية بريطانيا قد وقـف يعلن فى مجلس العموم فـى صيـف ١٩٤٢ أن بريطانيا سوف تنظر بعين العطـف بعـد الحـرب إلى آمـال الشعوب العربيـة فـى تحقيق نوع من الوحـدة بينهـا . وفـى هـذا التصريـح الأول علـى لسـان "إيـدن" فـإن وزيـر الخارجية البريطانى لـم يشر إلى مصـر .. وإنما تحـدث عن العـرب بدونهـا .

لكنه بعد شهور وقـف "أنتونى إيـدن" فى مجلس العمـوم مرة أخـرى يكـرر تصريحـه . وفى هذه المرة أضـاف مصـر إلى العالـم العربـى .

ولم تكن تلك نوبـة تطوع بالإحسان اعـترت وزيـر الخارجيـة البريطانيـة ــ فـى وزارة "ونستون تشرشـل" ـ وإنما كانت على وجـه القطـع استجابة لحقـائق جديـدة بـدأت تتضـح وراحت تكسـب لنفسها أرضـا جديدة كل يـوم .

وقبل أن تنتهى الحـرب وتتوقف معاركها فى أوروبـا ، كـان "مصطفى النحـاس" باشـا يواصل التزام مصـر العربى الذى تجلـى فى معركـة استقلال سـوريا ولبنـان ، بـالعمل علـى وضـع الأساس لجامعة الدول العربيـة . وكان "النحاس" باشا قـد تحـول هـو الآخـر بتجربـة الحـرب ودروسها ، وبما نشـأ وتراكم داخل مصـر وحولها مـن تيـارات سياسية وفكريـة إلى مدرسة الشـرق . وكان هو الذى تفاوض وقام بتوقيع ميثاق الجامعة العربيـة فى خريـف سنـة ١٩٤٤ ، ومن المفارقات أنه وقـع ميثاق الجامعـة ، ثم جـرت إقالتـه فى اليـوم التالى مباشرة .

وكانت سنوات الحرب وظروفها قد خصمـت ضرائبهـا مـن جميـع الأطـراف ، وأولهـا حـزب الوفـد الذى فقد قوتـه كممثـل رئيسـى للقـوى الشعبيـة فى مصـر نتيجة لعنصريـن :

* أولهما حادث ٤ فبراير (حين حاصرت الدبابات قصر عابدين وفرضت وزارة وفدية ع
الملك بدواعي سلامة الجهد الحربى . ومن الانصاف أن "مصطفى النحاس" باشا ــ ط
لما تقول به وثائق الحرب ـ لم يكن أمامه غير القبول بتأليف الوزارة .) ــ لكن ذلك
ينفى واقع أن قبوله الوزارة "على أسنة الحراب الإنجليزية" ـ كما كان يقال ـ أدى
نوع من الانكسار فى شرعيته السياسية .

* والعنصر الثانى أن ظروف الحرب أثرت فى نوعية قيادات الوفد ، ونقلت مركز الق
فى هذا الحزب العتيد من جماعات المثقفين ـ الذين قادوا حركته فى السنوات الصع
الأولى ـ إلى قيادة كبار ملاك الأراضى الذين كانوا على استعداد باستمرار لحلول و
تتصل بالمصالح الطبقية أكثر من اتصالها بحركة الوفد الأصلية وتوجهاتها السيا
والاجتماعية .

كانت سنوات الحرب وظروفها قد فعلت فعلها وأكثر فى موقع آخر ، وهو القد
الملكى الذى ظل لسنوات معقلا لسياسة الشرق فى السياسة المصرية .

إن الملك "فاروق" الذى شهدته بداية الحرب شابا وطنيا متحمسا ، خرج فى نه
الحرب رجلا آخر ، ومن الحق أن هناك عوامل ظاهرة لعبت دورها فى تغيير شخصية

● كان هناك أثر حادث من نوع ٤ فبراير عليه ، وقد تعرض فيه لإهانة كبر
وعامله المندوب السامى البريطانى ، السير "مايلز لامبسون" ـ (اللورد "كيلرن" فيما بعد
معاملة طفل شقى لا يستحق قطعة حلوى فى فمه وإنما يستحق علقة على مؤخرة
وكانت تلك تجربة مريرة أورثت الملك كراهية عميقة للتيارات الشعبية التى كان الو
يمثلها آنئذ .

● وكانت هناك المحنة الشخصية التى تعرض لها الملك كإنسان .

فقد خانته أمه الملكة "نازلى" مع رئيس ديوانه "أحمد حسنين" ونشأت بين الا
علاقة غير شرعية رغم محاولات لاحقة قاما بها لتغطية العلاقة بعقد زواج عرفى . وك
تلك ضربة لكبرياء الملك !

والحاصل أن الملكة الأم كانت ذات شخصية غير متوازنة فى أقل القليل ، ومن
أنها فى سنوات حياتها الأخيرة فى الولايات المتحدة ، قررت أن ترتد عن الإ
وتتنصر وتعتنق المذهب الكاثوليكى . وقد أثرت "نازلى" على ابنتيها اللتين عاشتا م
فى أمريكا، وهما "فايزة" و"فتحية" ، وكلتاهما ماتت وهى مسيحية كاثوليكية .

● والأدهى من ذلك أن أمه لم تكن وحدها التى خانته ، وإنما خانته زوجته "فريدة" أيضا (رغم محاولات لا لزوم لها لرسم صورة مغايرة) [1] .

والحقيقة المرة أن وثائق القصر ووثائق الخارجية البريطانية تحفل بتفاصيل كثيرة عن العلاقات المضطربة بين الملك الشاب وزوجته الشابة .

ويبدو فى الظاهر أن التماثل فى السن بين الاثنين خلق لدى "فريدة" حاجة إلى رجل أكثر نضجا ، وكان أن وقعت فى غرام "وحيد يسرى" (باشا) ، وهو بمثابة ابن عمة للملك (أو أسوأ لأن أمه الأميرة "شويكار" هى الزوجة الأولى للملك "فؤاد") .

لكن مشكلة الملكة "فريدة" كانت فيما يبدو أعمق من ذلك ، فوثائق القصر والسفارة البريطانية والخارجية البريطانية تربطها بعلاقة غير شرعية مع ضابط بريطانى اسمه الكابتن "سيمون إلويس" ، وكان قبل الحرب رساما له مستقبل ، وقادته خدمته فى مصر إلى التعرف على بعض العائلات الكبيرة بها ، ورسم بالفعل صورا لبعض شخصياتها بما فى ذلك صورة للسيدة "ناهد سرى" وهى قرينة "حسين سرى" باشا الذى كان رئيسا للوزراء ، وفى نفس الوقت خالة الملكة "فريدة" ، وهكذا فإن "سيمون إلويس" دخل القصر أول مرة يرسم صورة زيتية للملكة ، ثم تذرع بأن زحام القصر يفسد إلهامه فدعاها إلى تكملة الصورة فى "مرسمه" ، وتطورت الأمور بين الاثنين . وحين انكشفت العلاقة قام السفير البريطانى نفسه بالتحقيق مع الضابط الفنان الذى بلغ به السخف حد أن يقول "إنه لا يستطيع أن يرسم صورة إلا إذا أحس مباشرة بموضوعها" . وقد جرى ترحيل هذا الضابط إلى جنوب أفريقيا فى ظرف أربع وعشرين ساعة .

(إن تفاصيل القصة لسوء الحظ كاملة فى مذكرات لورد "كيلرن" ومخطوطاتها جميعا فى مكتبة كلية "سانت أنتونى" بجامعة أكسفورد ، وقد وردت أول إشارة للقصة فى يوميات ٣٠ مارس ١٩٤٣ ، وظل ذكرها يرد فى الصفحات حتى يوم ٤ يناير ١٩٤٤ . كذلك فإن اللورد "كيلرن" أشار إلى الواقعة فى برقية إلى وزارة الخارجية بتاريخ أول مارس ١٩٤٤ ، وهى تحت رقم ٣٧١/٣٥٥٣٠) .

ويظهر أن الملك "فاروق" مات فى آخر عمره مجروحا مما حدث له فى زواجه الأول ، وقد روى لبناته الثلاثة من "فريدة" وهن : "فريال" و"فوزية" و"فادية" تفاصيل

---

(١) لقد ترددت كثيرا قبل أن أضع هذه القصة فى سياق هذا الكتاب ، لكن مأساة الملك "فاروق" لا تتضح فى كامل أبعادها بدون فجيعته فى والدته وفى زوجته ، وتأثير ذلك على شخصيته وعلى تصرفاته فيما بعد .

ما جرى له معها ، وكان من نتيجة ذلك أن البنـات الثلاثـة قـاطعن أمهـن إلى درجـة رفـض زيارتها فى مـرض موتهـا !

ولعله كانت هناك ـ إلى جانب أوجاعه العائلية ـ أسباب قصـور وتهافـت فـى شـخصيته أثـرت عليه ، أو لعل حـادث السيارة الذى وقـع له فى قرية "القصاصـين" أصابه فـى رأسـه بما استعصى دواؤه .

لكن الحقيقة النهائية تبقـى مع الأسـف وهـى أن ملـك مصـر الـذى عـاش أول أيـام الحرب العالمية الثانية ـ شابا وطنيا يحمل بشارة أمـل ـ وصـل فى الأيام الأخيرة من الحـرب إلى أن أصبح كتلـة شحـم مترهلـة تبحـث عن الكرامة والسعادة ولا تعـثر للاثنتين على أثـرا!

كان ملـك مصـر الشـاب وعـدا ، لكنـه وعـد أخلـف موعـده !

ومهما يكن فإن مصـر وقعـت على ميثاق الجامعة العربيـة بقـوة الأشـياء وليس أكـثر . فحـزب الأغلبيـة ورئيسـه "مصطفـى النحـاس" لم يكونـا فـى وضـع يسـمح لهمـا بـالتخطيط للمستقبل، والملك الشاب ـ الذى راوده الحلـم فى سنوات ملكه الأولى ـ أضاع أحلامه بصـرف النظر عن أن ظروفه ساقته إلى الضيـاع !

وهكذا وجـدت مصـر نفسها تدخـل إلى عالمها العربـى ، وهى ليسـت بعـد واثقـة مـن خطاها، وكان ذلك تأثـير واقـع الحـال ، وربما ساعـدت عليه عوامـل إضافيـة .

٣

الحاخام حاييم ناحوم

" المسيحيون تركوا القدس إلى روما ، والمسلمون
تركوها إلى مكة ، واليهود وحدهم بكوا عليها "

(الحاخام الأكبر "حاييم ناحوم أفندى" للملك "فاروق")

كان وجود جالية يهودية قوية من بين العوامل الإضافية التى ساعدت على تحويل نظر مصر عن هويتها العربية . ومما يستحق الاهتمام أن تزايد دور الجالية اليهودية ترافق مع ظهور المشروع الصهيونى فى فلسطين ، وتوافق بشكل أو بآخر مع الاحتلال البريطانى لمصر.

كانت فى مصر جالية يهودية منذ عصور قديمة ، لكنه حتى عصر الخديو "إسماعيل" وقبل الاحتلال البريطانى مباشرة لم يزد عدد اليهود فى مصر عن سبعة آلاف نسمة ، وكان تركيزهم فى القاهرة والإسكندرية . ففى القاهرة كانت هناك حارة اليهود التقليدية ، وكانت حيا نشيطا من أحياء القاهرة على صلة مباشرة بالقلب التجارى للمدينة . وفى الإسكندرية كانت هناك جماعات من اليهود يمكن اعتبارهم جزءا من مجتمع البحر الأبيض المتوسط ، وأغلبهم عائلات تراجعت ضمن الخروج المسلم اليهودى من الأندلس بعد العودة الكاثوليكية إليه ، وتوزعت على شواطئ البحر الأبيض من المغرب حتى إستانبول فى شبه دائرة كاملة . واستقر بعضهم فى الإسكندرية كوسطاء ووكلاء للتجارة مع المدن الإيطالية ، مثل "جنوا" و"فينيسيا" (البندقية) و"فلورنسا" ، فى العصر الذهبى لازدهار التجارة الأوروبية مع الشرق عبر مصر .

لكنه مع بداية الاحتلال البريطانى لمصر راحت أعداد من اليهود تصل إليها . وهكذا فإن إحصاء سنة ١٩٠٧ يكشف أن عدد اليهود فى مصر ارتفع فجأة من سبعة آلاف قبل

الاحتلال البريطانى إلى ٣٨٫٦٣٥ سنة ١٩٠٧. ثم تواصلت الزيادة ، فإذا عدد اليهود فى مصر طبقا لإحصاء سنة ١٩٢٧ يتضاعف تقريبا ويصل إلى ٦٣٫٥٥٠ نسمة . ولما كان معظم المهاجرين اليهود إلى مصر جاءوا إليها من بلدان عربية (مثل المغرب) ، وإسلامية (مثل تركيا) ، فإن اندماج هؤلاء اليهود بالحياة المصرية ، خصوصا مع الطبقة المتوسطة ، كان مسألة سهلة ، وزاد من سهولتها أن قمة الطبقة المتوسطة فى مصر كانت غالبا من أصول أجنبية . وهكذا أصبح اليهود فى مصر وبسرعة جزءا من نسيج الحياة العامة ، خصوصا فى مجال النشاط الاقتصادى وفى مجال النفوذ الاجتماعى .

وكانت هذه هى الفترة التى ظهرت وبرزت فيها عائلات يهودية مثل "قطاوى" و"موصيرى" و"منشة" و"شيكوريل" و"سوارس" و"رولو" و"ساسون" وغيرها .

وعندما جاء "ثيودور هيرتزل" إلى مصر سنة ١٩٠٢ حاملا مشاريعه : دولة يهودية فى فلسطين ، أو محطة تجمع مؤقت فى سيناء ، فإنه اعتمد فى اتصالاته بالدرجة الأولى على عدد من العائلات اليهودية وبالذات فى الإسكندرية حيث قام "هيرتزل" نفسه بتأسيس جمعية صهيونية تتولى الدعوة إلى مشاريعه بعد سفره ، ثم تتولى الترويج للفكرة الصهيونية فى مصر . وظلت هذه الجمعية وفروعها نشيطة حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

□

ومع قيام الحرب العالمية الأولى ، بدأت أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود من روسيا تحاول الوصول إلى فلسطين . ولما كان الأتراك يحتلون فلسطين وقتها ، فإن الوكالة اليهودية أمرت بتحويل هؤلاء المهاجرين إلى الإسكندرية حيث كلفت الجالية اليهودية فيها ورئيسها فى ذلك الوقت هو "إدجار سوارس" باستقبال هؤلاء المهاجرين ورعايتهم . وفى شهر ديسمبر ١٩١٥ بلغ عدد اليهود الذين وصلوا إلى ميناء الإسكندرية ١١٫٢٧٧ مهاجرا . وقررت السلطات البريطانية تسهيل دخولهم إلى مصر ، لكنها أرادت أن يكون هناك إذن مصرى يعزز قرارها . وتولى "إدجار سوارس" مهمة إقناع السلطان "حسين كامل" ورئيس مجلس الوزراء "حسين رشدى" باشا بقبول دخول هؤلاء المهاجرين إلى مصر وإقامتهم فيها . وبالفعل، فقد وافق السلطان ورئيس الوزراء ، وصدرت الأوامر بفتح معسكر استقبال كبير لهم فى منطقة "القبارى" بالإسكندرية .

ولم يكن وقت هؤلاء المهاجرين ضائعا فى معسكر "القبارى" . وإنما تولت الجالية اليهودية فى مصر تنظيمه بطريقة تنبئ بدلالات لها معنى :

◊ كانت هناك دروس مكثفة لتعليم اللغة العبرية والتاريخ اليهودى .

◊ وكانت هناك عملية تدريب عسكرى مستمرة اتخذت فى البداية شكل الألعاب الرياضية .

◊ ثم كانت هناك عملية تعبئة صهيونية قام بها دعاة كبار من أمثال "فلاديمير جابوتنسكى" .

وتسجل الوثائق البريطانية أنه فى يوليو سنة ١٩١٦ توجه "موسى قطاوى" باشا رئيس الطائفة اليهودية فى مصر إلى مقابلة الجنرال "ماكسويل" القائد العام للقوات البريطانية فيها ، وكان طلب "قطاوى" فى هذه المقابلة هو السماح بتشكيل كتائب يهودية تدخل ضمن إطار جيش الجنرال "اللنبى" الذى كان يستعد للزحف على الأتراك فى فلسطين والشام بعدها ووافق الجنرال "ماكسويل" ورتب لهذه الكتائب اليهودية فرصة أن تلتحق بجيش الجنرال "اللنبى" . وأكثر من ذلك سمح لجنودها أن يضعوا نجمة داوود علامة على مقدمة قبعاتهم، لكى يكون واضحا أنها كتائب يهودية .

□

كانت تلك بداية راحت بعدها العائلات اليهودية فى مصر تتسابق ربما بدون تخطيط إلى خدمة ما بدا لها وكأنه قضية مستقبل الشعب اليهودى .

وقام يهودى بارز هو : "فيليكس منشة" بالدعوة إلى مؤتمر عام يضم كل الجمعيات اليهودية فى مصر بحيث يخرج من اتحادها جميعا تنظيم واحد حدد "فيليكس منشة" نفسه أهدافه على النحو التالى :

* تركيز الاهتمام على عملية إنشاء الوطن اليهودى فى فلسطين .

* جمع التبرعات لتنظيم ومساعدة حركة هجرة منظمة إلى فلسطين عن طريق مصر .

* العمل على إنشاء جامعة عبرية فى فلسطين وجمع التبرعات لها (كانت تلك مقدمات إنشاء الجامعة العبرية فى القدس) .

* التحضير لإنشاء مركز طبى متقدم فى فلسطين وجمع التبرعات لإنشائه (كانت تلك مقدمات إنشاء مستشفى "هداسا" الطبى والتعليمى فى القدس) .

ثم بدأ هذا النشاط الصهيونى للعائلات اليهودية يأخذ منحى خطيرا إلى حد أن اجتماعا عاما لكل المنظمات اليهودية فى فلسطين عقد فى الإسكندرية يوم ١٤ أغسطس ١٩١٨ ، وكان الذى تولى رئاسته هو "حاييم وايزمان" الذى كانت جهوده وجهود المنظمة الصهيونية العالمية التى يرأسها فى ذلك الوقت قد توصلت إلى إعلان "وعد بلفور" .

وفيما يبدو فإن هذا النشاط المتزايد للجالية اليهودية أقلق الحاخام الأكبر للطائفة اليهودية فى القاهرة ، وهو يومئذ "رافاييل هارون بن سيمون" ، فدب الخلاف بينه وبين العمداء الكبار للعائلات اليهودية فى مصر .

وليست هناك تفاصيل كافية حول هذا الخلاف ، لكن بيانا مقتضبا نشر فى مصر سنة ١٩٢١ أشار إلى أنه "بعد نشوء سوء فهم بين مجلس الطائفة اليهودية فى مصر وبين الحاخام "رافاييل هارون بن سيمون" ، فإن الحاخام تخلى عن وظيفته وقرر أن يعتكف حتى نهاية حياته فى القدس ."

ثم كان أن اختار مجلس الطائفة اليهودية فى مصر حاخاما آخر هو "حاييم ناحوم أفندى" الذى كان حاخاما لإستانبول . وجاء "حاييم ناحوم أفندى" إلى مصر ، وكان هناك دور كبير ينتظره فيها ، وكان الرجل مؤهلا لهذا الدور . فقد كان ذكيا وعالما ضليعا يملك معرفة واسعة باللغات الشرقية .

ولم تمض شهور على وصول الحاخام "حاييم ناحوم أفندى" حتى أصبح صديقا ومستشارا للملك "فؤاد" الذى كلفه بإعداد دراسة عن حقوق "الخديوية المصرية" كما وردت فى الوثائق التركية ، وكان ذلك إبان اهتمام الملك "فؤاد" بمسألة الخلافة وإرثها من "آل عثمان" . ثم تقدم "حاييم ناحوم أفندى" خطوة تالية وأصبح عضوا فى مجلس الشيوخ المصرى . ثم خطوة أخرى ليصبح عضوا بارزا فى مجمع اللغة العربية ، وصديقا مؤثرا على النخبة السياسية الثقافية والفكرية فى مصر ، داخل القصر الملكى وخارجه .

وكانت هناك ظروف مساعدة لدور الحاخام "حاييم ناحوم أفندى" :

* منها مثلا أن "يوسف قطاوى" باشا أصبح وزيرا للمالية فى أكثر من وزارة .

* ومنها مثلا أن عددا من اليهود دخلوا لعضوية مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وبينهم "رينيه قطاوى" بك و"دى بتشوتو" بك .

* ومنها مثلا أن زوجة "يوسف قطاوى" باشا أصبحت كبيرة وصيفات الملكة "نازلى".

* ومنها مثلا أن يهوديا من جنوب أفريقيا هو "أوزوالد فينى" قام بتأسيس شركة الإعلانات الشرقية التى صدرت عنها مجموعة من الصحف الإنجليزية والفرنسية ، بينها

"الإجبشيان ميل" ، و"الإجبشيان جازيت"، و"البورص إجيبسيان" وكان أن شركة الإعلانات الشرقية سيطرت بالكامل على سوق الإعلان الناشئ فى مصر ، وأصبح لها نتيجة لذلك نفوذ على الصحف المصرية الوطنية .

* و إلى جانب ذلك كله فقد كان فى القصر الملكى نفوذ يهودى قوى . فإن مدام "سوارس" أصبحت عشيقة للملك "فؤاد" ، وهو أمر لاحظه السير "بيرسى لورين" المندوب السامى البريطانى وكتب عنه أكثر من مرة فى تقاريره إلى لندن .

كان هوى اليهود فى مصر موزعا بينها وبين حلم الدولة اليهودية ، وذلك يتضح من حقيقة أن الجالية اليهودية فى مصر بدأت تجمع التبرعات لإنشاء مستعمرة فى فلسطين تهديها باسمها إلى المستوطنين المهاجرين . وقد تأسست هذه المستعمرة بتكلفة قدرها ثلاثون ألف جنيه مصرى ، وافتتحت رسميا سنة ١٩٣٣ وأطلق عليها اسم "كفار جوديا" ــ القرية اليهودية !

لكن الهوى الموزع ليهود مصر كان ما زال مضبوطا بحرص يظهره الحاخام الأكبر الذى يدرك حساسية وضع اليهود فى مصر وهى فى رأيه بلد عربى . والحاخام يقر بحق اليهود فى تأسيس دولة لهم فى فلسطين ، إلا أنه ينصح كل الأطراف بالحذر . وقد بلغ من حذره أن طلب إلى "موصيرى" باشا أن يلفت نظر ممول يهودى كبير هو "ليون كاسترو" أن "يهدأ قليلا فى جمع التبرعات للحركة الصهيونية" لأن ذلك من شأنه أن يخلق وضعا يؤدى إلى إحراج اليهود فى مصر ، وهو أمر لا لزوم له الآن !

□

وفى فترة ما بين الحربين كان نفوذ اليهود فى مصر قد بلغ مداه تحت توجيه "حاييم ناحوم أفندى" ، وبفعل عمل ونشاط جالية أثبتت أنها تملك قدرا هائلا من الكفاءة والحيوية، ومنحتها الامتيازات الأجنبية نوعا من الحصانة يحميها ، ذلك أن كثيرا من المهاجرين اليهود الذين تمكنوا من الثروة وجدوا مناسبا أن يطلبوا جوازات سفر فرنسية أو إيطالية أو أسبانية تعطيهم مزايا الأجانب أمام القانون ، وتحمى معاملاتهم مع الآخرين . وهكذا كان اليهود يحتلون ما نسبته ٣٩ ٪ من مقاعد مجالس إدارات جميع الشركات الصناعية والمالية فى مصر، وهى نسبة تفوق نسبتهم فى عدد السكان بمئات المرات .

* وبكل ما لهم من نفوذ مالى فقد شاركت عائلات منهم فى إنشاء بنك مصر نفسه. وظهر اسما "شيكوريل" و"موصيرى" ضمن الأعضاء المؤسسين لشركاته .

* وكانت لهم شبه سيطرة مؤثرة على عدد من الشركات الزراعية بالتحديد ، وبينها شركة "وادى كوم امبو" ، وشركة "أراضى البحيرة" ، وشركة "الشيخ فضل الله" .

* وبفضل هذا الحجم من التأثير الاقتصادى فقد استطاعوا أن يجمعوا من حولهم دائرة من الساسة المصريين المتصلين أكثر من غيرهم بمجالات النشاط الاقتصادى ، وأبرزهم فى ذلك الوقت "إسماعيل صدقى" باشا الذى أصبح وزيرا للمالية ورئيسا للوزراء عدة مرات ، كما أصبح رئيسا شبه دائم لاتحاد الصناعات المصرية .

ويمكن أن يقال إن نخبة مصرية ـ يهودية ظهرت فى تلك الفترة ومارست قدرا من التأثير فى الحياة الاجتماعية واضحا وفعالا . وعلى سبيل المثال فإن فرقة "الهابيما" المسرحية التى أنشأها اليهود فى فلسطين كانت لها مواسم فى القاهرة ، وكذلك كان الحال مع الفرقة الموسيقية الفيلهارمونية اليهودية التى أصبحت فيما بعد الأوركسترا الأولى فى إسرائيل بعد إنشاء الدولة العبرية .

وكانت الجامعة المصرية فى فترة تألقها فى الثلاثينات على صلة وثيقة بالجامعة العبرية الجديدة فى القدس . وقام مديرها الدكتور "ماجنس" بدعوة زميله "لطفى السيد" باشا مدير الجامعة المصرية لحضور احتفال افتتاحها . ولم يتمكن "لطفى السيد" باشا من حضور الحفل ، ولكنه أناب عنه الدكتور "طه حسين" الذى شارك فى الاحتفال وألقى بنفسه كلمة جامعة "فؤاد الأول" هناك .

وفى سنوات الحرب وما تلاها مباشرة ، وعندما كانت إمكانيات السفر إلى أوروبا مقيدة ، واستيراد السلع محظورا علنا ، فإن "سلفاتور شيكوريل" بك صاحب محلات "شيكوريل" كان يفخر بأنه يجىء بأحدث وأفخر أزياء مصممى أوروبا ـ وكان كثيرون منهم قد نقلوا نشاطهم من باريس بعد أن احتلها الألمان ، إلى "بوردو" و"مدريد" ـ وإن الثلاثى النسائى القوى فى القاهرة وقتها : الملكة "نازلى" (الملكة الأم) ، والليدى "كيلرن" (زوجة السفير البريطانى) ، والسيدة "زينب الوكيل" (زوجة "مصطفى النحاس") ، يلبسن جميعا مما يستورده لهن ، وكذلك تفعل كثيرات من أميرات البيت المالك وسيدات "المجتمع الراقى" .

ومن الغريب أن ملتقى الإجازات المفضل فى سنوات الحرب كان فندق "الملك داود" فى القدس . وفى احتفال ليلة رأس السنة ـ ١٩٤٥ ـ كانت أهم الموائد فى قاعة الاحتفال محجوزة لشخصيات مصرية جاءت لترى بداية العام الجديد فى القدس !

□

□

وفى سنوات الحرب العالمية الثانية ، كان النشاط اليهودى الصهيونى فى مصر على أشده . فالعائلات اليهودية الكبرى أعادت إقامة المعسكرات لليهود الهاربين من ألمانيا الهتلرية ومن المواقع التى انتشرت فيها الحرب فى أوروبا . ومرة أخرى ـ كما حدث فى الحرب العالمية الأولى ـ كانت مهمة المعسكرات تتخطى مسألة الإيواء المؤقت . وإنما أصبحت هذه المعسكرات مراكز تأهيل لتعليم اللغة العبرية والتاريخ اليهودى ، والتدريب العسكرى . ومرة أخرى جرى تجنيد اليهود فى كتائب اتسعت بانضمام وحدات يهودية أخرى قدمت من أوروبا إليها وتشكل منها الفيلق اليهودى الذى اتخذ من منطقة برج العرب فى الصحراء الغربية مقرا لإقامته ، والذى أشرف على تدريبه الكولونيل "أورد وينجيت" ، وهو أكبر الخبراء البريطانيين فى الحرب غير التقليدية ، وبينها حرب المدن وحرب العصابات .

ولما كانت مصر بظروف الحرب العالمية الثانية قد أصبحت مرة أخرى ميدانا من أهم ميادين الصراع فإن الادعاء بالعمل التطوعى للترفيه عن جنود الحلفاء أصبح واجهة مفضلة للنشاط اليهودى والصهيونى فى مصر .

كانت هناك سيدات من الجالية البريطانية تقمن بهذا النوع من النشاط ، لكن العدد كان محدودا . وتطوعت بعض سيدات المجتمع المصرى أيضا ، لكن عملية التطوع ظلت محصورة بسبب التقاليد . وأما بالنسبة لسيدات المجتمع اليهودى فلم تكن هناك عوائق من أى نوع .

وفى داخل هذا الإطار فإن النشاط الاجتماعى اليهودى (والصهيونى) المتصل بأحوال الحرب بلغ حدودا ونفوذا من الصعب تصورهما . ومن ذلك مثلا أن أميرة مصرية (وهى "نازلى حليم") أعطت مزرعتها على طريق المنصورية لتكون معسكرا لتدريب شباب "هاتشومير هاتسعير" وهى حركة حراس المستعمرات الاستيطانية فى فلسطين .

□

كانت هناك فترة انقطاع واحدة فى هذا الجهد المتسع يوميا ، وهى الفترة التى اقتربت فيها جيوش "روميل" من العلمين ، وبدا أن جيوش الحلفاء عاجزة عن إيقافها ، وبالتالى هرع اليهود هاربين إلى السودان ، ومنه إلى جنوب أفريقيا ، قبل أن تحصرهم جيوش الفيالق الألمانية الزاحفة . وفى هذه الفترة باع أغنياء اليهود إلى بعض المصريين من أصدقائهم عقارات

وأمـلاكا "بسعر التراب" كما يقولون . وعلى سبيل المثال فإن الوكالة اليهودية قـدرت فيما بعد أن ممتلكات تساوى أربعين مليـون جنيـه استرليني ـ بعملة ذلك الوقـت ـ بيعـت إلى باشـوات مصريـين بثمـن لا يزيد إجمـالا عن مائـتى ألـف جنيـه .

لكن حملة "روميـل" على مصـر فشلـت ، وعاد اليهود الذيـن هربـوا إلى القاهـرة أكـثر شوقـا وأكثر رغبـة فى العمـل مما كانوا . وكـان هنـاك مـن باشـوات مصـــر مـن كـانوا علـى استعداد لـرد الجميل وإن لم يكن رد العقارات والأمـلاك !

وهكذا فإنه فى سنة ١٩٤٣ أعيد إنشاء المنظمة الصهيونية فى مصـر تحت اسم "الاتحاد الصهيونى العـام" ، وحضـر اجتماعـه وتحـدث فيه كل من "دافيد بن جوريون" و"إسحاق بن زفـى" (الذى أصبح فيما بعد رئيسا لدولة إسرائيل) .

وفى نفس الفترة فإن الماجور "أبا إيبان" أصبح أبـرز المتحدثين باسـم الجيـش البريطـانى فى القاهرة . وكان "أبا إيبان" (الـذى أصبـح فيمـا بعـد وزيـرا لخارجيـة إسـرائيل) مستشـرقا عربيا ، وقد عكـف فى ذلك الوقت ـ إلى جانب عمله فى الجيـش البريطـانى ــ علـى ترجمـة أعمال عـدد من الكتاب المصريين الكبار إلى الإنجليزية ، وكان بينهـم "توفيـق الحكيـم" الـذى ترجـم له "إيبان" كتابين هما : "عـودة الـروح" و"شهـرزاد" .

وزاد على ذلك كله أن الملك "فـاروق" كان قد فعـل ما فعلـه والده الملك "فـؤاد" من قبل ، فاختار لنفسه عشيقـة يهوديـة هى "إيريـن كيونيللـى" .

ومن المفارقات أنه فى الوقت الذى كان زعماء الطائفة اليهودية فى مصـــر يسـتولون فيـه على مساحة كبـــيرة مـن النفـــوذ فـى الطبقـة العليـا المصريـــة ، كـان شبابهـم يستولـون بالكامـل على الحركة الشيوعية فى مصـــر . وفـى ذلـك الوقـت ظهـرت فـى مصـــر ثـلاث حركات شيوعية فاعلـة ونشيطـة :

- كانت هناك حركـة "حدتـــو" (حركـة ديمقراطيـة للتحـرر الوطنـى) وكـان يتزعمهـا يهـودى من أصـول رأسمالية هو "هـنرى كورييـل" .
- وكانت هناك حركـة "إسكـرا" ("الشرارة" على اسم جريـدة "لينـين" الشـهيرة) وقـد تزعمها "هيلـل شوارتـز" (يهـودى من أصـل ألمانـى) .
- وكانت هناك حركـة "طليعة الطبقـة العاملة" وكان يتزعمها "ريمـون دويـك" (يهودى مصـرى) .

وهكذا فقد بـدا أن اليهود (باتجاهات صهيونيـة أو غـير صهيونيـة) يملكـون مواقـع مهمـة للتأثير على قمـة المجتمع المصرى ، وعند قاعدته فى الطبقة العاملة . وفى المسافة مـا بين القمـة والقاعـدة كان هناك تداخـل كبير ومؤثـر فى المجتمـع المصرى ، فقد بـرزت فـى

مجالات الفن على سبيل المثال شخصيات يهودية لبعضها إسهام بارز فى الحياة الثقافية والإعلامية فى مصر .

وعلى سبيل المثال فإن أسرة "موصيرى" أنشأت مجلة باسم "مجلة إسرائيل" كانت تصدر فى ثلاث لغات فى نفس الوقت : عبرية وفرنسية وعربية . وكان هناك عدد من اليهود بين مؤسسى نقابة الصحفيين المصريين .

وكان أهم شخصية فى "الأهرام" - بعد رئيس تحريره ـ هو "حاييم إدجمان" مدير الإعلانات فيه . كما كان "إيلى بوليتى" أهم شخصية فى جريدة "المصرى" . وعند إنشاء "أخبار اليوم" سنة ١٩٤٤ كان مراسلها فى لندن هو "جون كيمشى" (ابن عم "دافيد كيمشى" مسئول "الموساد" المشهور ووكيل الخارجية الإسرائيلية فيما بعد) ، كما أن مراسل الجريدة فى نيويورك كان "جوزيف ليفى" الذى ظهر فيما بعد أنه هو الآخر من أبرز رجال تنظيم المخابرات التابع للوكالة اليهودية .

□

ومع قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وإحساس اليهود أن الوقت قد حان لإنشاء دولتهم فى فلسطين ، فإن اتحاد المنظمات الصهيونية فى مصر أصبح أكثر جرأة فى عمله بإحساس أن الحلم الصهيونى فى سباق مع الزمن . وعقد اتحاد المنظمات الصهيونية فى مصر مؤتمرا كبيرا فى شهر فبراير سنة ١٩٤٤ فى الإسكندرية وفى بيت أحد كبار تجار القطن فيها وهو "ألبير روزانو" . وكان منظم الاجتماع هو "إيلى بوليتى" (مدير مكتب جريدة "المصرى" فى الإسكندرية وقتئذ) ، وكان خطيب المؤتمر الرئيسى هو الدكتور "فيلكس ألتمان" الذى أصبح رئيسا للاتحاد . وكان الخطاب الافتتاحى لـ "ألتمان" إنذارا بأن "الوقت قد حان لقيام دولة اليهود فى فلسطين ، وإنهم إذا فشلوا فى تحقيقها سلما ، فإنهم سوف يحققونها حربا . ولفت ذلك نظر حكمدار بوليس الإسكندرية ، وهو يومئذ اللواء "جورج جيز" باشا ، الذى كتب إلى السفير البريطانى فى مصر اللورد "كيلرن" ، و إلى المستشار الشرقى فى السفارة ـ السير "والتر سمارت" ـ يلفت نظريهما إلى أن النشاط الصهيونى فى مصر "بدأ يتعدى الحدود المقبولة ، وإنه من المحتمل أن يؤدى إلى توريط اليهود المصريين فى مشكلة فلسطين ، وقد يؤدى فى نفس الوقت إلى تأثيرات ليست مطلوبة حتى من وجهة نظر الصهيونية بالنسبة لمشاعر الشعب المصرى . وأخيرا فإن هذا النشاط قد يخلق تعقيدات للحكومة البريطانية فى مصر ."

ولكن اتحاد المنظمات الصهيونية لم يكن على استعداد لوقف نشاطه ، ووصل به الأمر إلى أن تقدم فى صيف سنة ١٩٤٤ بطلب إلى رئيس الوزراء "مصطفى النحاس" باشا يطلب إليه "الاعتراف بالاتحاد كممثل للشعب اليهودى فى مصر" . وكان أن طلب "النحاس" باشا إلى وكيل وزارة الداخلية - "حسن رفعت" باشا - أن يستدعى زعماء الاتحاد الصهيونى فى مصر وأن يبلغهم "أن الحكومة المصرية ترفض طلبهم ، وأكثر من ذلك فإنها قررت وقف نشاطهم" .

وكان "النحاس" باشا وقتئذ مشغولا فى عملية إنشاء جامعة الدول العربية . وكان قد دعا إلى مؤتمر لرؤساء الحكومات العربية ينعقد فى قصر "أنطونيادس" بالإسكندرية للفراغ من إقرار نص ميثاق جامعة الدول العربية وتوقيعه . ومن الغريب أن رد الاتحاد الصهيونى على رفض "النحاس" باشا التصريح له بالعمل رسميا كان الترتيب مع جماعة "شتيرن" فى فلسطين لنسف قصر "أنطونيادس" يوم الاحتفال بالتوقيع .

وكان المحرك للعملية هو "جابوتنسكى" نفسه ، وكان أهم المولين لنشاطها رأسماليا يهوديا فى مصر هو "ليون كاسترو" (الذى أصبح بيته على نيل الجيزة فيما بعد مسكنا للرئيس "أنور السادات") .

إن محاولة نسف قصر "أنطونيادس" بمن فيه يوم توقيع ميثاق جامعة الدول العربية لم تنجح . وكان أن تحولت منظمة "شتيرن" إلى هدف آخر نجحت فى تنفيذه بالفعل ، وهو اغتيال اللورد "والتر موين" الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط . وكان السبب فى قتله هو معارضته لمشروع هجرة مائة ألف يهودى من أوروبا إلى فلسطين .

ومن المفارقات أن اللورد "موين" قتل أمام مدخل بيت كان يستأجره سكنا له فى الزمالك ، وكان صاحب البيت هو "داود عدس" ، وهو مليونير يهودى أيضا .

ويظل هناك سؤال معلق وهو :

هل كان يهود مصر من دعاة إنشاء إسرائيل لتكون وطنا قوميا لليهود ، وهل كان فى خيالهم أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه من علاقات مع مصر ؟

إن السؤال محير لأن الإجابة عليه بطريقة قاطعة تكاد تكون مستحيلة ، وربما كان الأقرب إلى الحقيقة هو القول بأن يهود مصر كانوا متعاطفين مع فكرة هجرة اليهود إلى فلسطين ، لكنهم كانوا يحبون حياتهم فى مصر ولا يريدون استبدالها بأى حياة أخرى ولا حتى فى الوطن الموعود . ولعل شأنهم فى ذلك كان شأن غالبية يهود أوروبا ، يهمها مساعدة المهاجرين من اليهود ، لكنها لا تريد أن تلحق بهم فى أى مكان ، بل تفضل الحياة حيث هى .

ومن المحتمل أن بعض اليهود المصريين لم يجدوا تضاربا فى الولاء بين رغبتهم فى قيام دولة يهودية ، وبين حياتهم فى دولة مصرية ـ عربية أعطتهم مستوى من الحياة يصعب عليهم أن يتصوروه فى أى مكان على الأرض .

وعندما بدأ توجه مصر إلى هويتها العربية يظهر ، فإن معظم يهود مصر حاولوا بكل جهدهم أن يضغطوا لتقليل سرعة الحركة .

وفى ذلك الوقت كان الحاخام "ناحوم" أفندى على اتصال دائم بالملك "فاروق" ، وتكررت لقاءاته مع رئيس الديوان الملكى بالنيابة "حسن يوسف" باشا . بل إن لقاءاته تكررت مع الملك "فاروق" نفسه . وقد حاول الحاخام الأكبر فى إحدى المقابلات التى حضرها "حسن يوسف" باشا ـ وكتب تقريرا عنها أودع فى سجلات قصر عابدين ـ أن يقنع الملك بأن القدس حق لليهود .. "المسيحيون تركوا القدس وذهبوا إلى روما ، والمسلمون غيروا توجههم إليها وتحولوا إلى مكة ، وأما اليهود فقد بقوا طول العمر يبكون ضياعها" .

والغريب أنه حينما كان الحاخام الأكبر يتغيب فإن العمل على تهدئة الأمور كان ينتقل إلى عشيقات الملك اليهوديات ، سواء فى ذلك "إيرين كيونيللى" أو واحدة أخرى علا نجمها وتنوعت صلاتها فى ذلك الوقت وهى "يولندا هامر" التى أوقعت فى نفس الفترة سياسيا عربيا بارزا فى غرامها ، وهو السيد "تقى الدين الصلح" وكان يومها مساعدا للأمين العام لجامعة الدول العربية (ولم يكن قد تزوج بعد) .

وتولت عائلتا "موصيرى" و"قطاوى" ترتيب لقاءات مع ساسة مصريين شارك فيها "دافيد بن جوريون" (أول رئيس لوزراء إسرائيل) بنفسه ، وكذلك شارك فيها "موشى شرتوك" (أول وزير لخارجية إسرائيل) ، و"ناحوم جولدمان" (رئيس المجلس الصهيونى العالمى) ، و"إلياهو ساسون" (المستشار الشرقى للوكالة اليهودية) .

وفى نفس الوقت كان الدكتور "ماجنس" مدير الجامعة العبرية يقود دعوة موجهة إلى مجتمع المفكرين والأدباء المصريين تدعوهم إلى المشاركة وبحث مستقبل مجتمع البحر الأبيض، وتوافق ذلك مع استعداد أسرة "هرارى" لإصدار مجلة "الكاتب المصرى" التى رأس تحريرها الدكتور "طه حسين" . ومن السخف أن يزعم أحد ـ كما يحلو للبعض الآن ـ أن الدكتور "طه حسين" كان يعمل لليهود . وإنما الصحيح ـ وهذا هو السياق التاريخى للحوادث ـ أن عميد الأدب العربى كان شريكا فى الاعتقاد ـ سواء كان الخلاف أو الاتفاق معه ـ بانتماء مصر إلى مجتمع البحر الأبيض ، وتلك هى رسالته فى كتابه الهام عن مستقبل الثقافة المصرية . ويمكن أن يقال أيضا ـ وللانصاف ـ إن أسرة "هرارى" نفسها لم تكن متآمرة فى تصورها بأن مصر لا علاقة لها بمشكلة فلسطين لأن انتماءها الغالب هو إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط .

وفى نفس الوقت أيضا فإن الأحـزاب الشيوعية الثلاثة تحت قيادة زعمائها ، وكلهم من اليهود ، كانت تسعى لتعطيل الاندفاع من موقف آخر طبقى ، وكانت حجتهـا أن الصراع هو فى حقيقته بين الرأسمالية العربيـة والرأسمالية اليهوديـة ، وأن ضحاياه هـم المهاجرون العائدون من التيـه فى فلسطين ومعهـم الطبقة العاملـة فى مصـر ، وكلاهما - المهاجرون اليهـود والعمـال المصريـون - يجب أن يتحالفوا معا ضـد الرأسماليـة المحليـة المرتبطـة بالرأسمالية العالمية .

وكانت المشكلة أعقد من هذا كله سواء فى ذلك القصـور ، أو الشركات ، أو الجامعات، أو دور النشـر ، أو الخلايا الشيوعيـة !

٤

فرانكلين روزفلت

" أمريكا هى إسرائيل الموعودة وليست فلسطين "

(الصيحة بين موجات الهجرة اليهودية الأولى إلى العالم الجديد)

من المصادفات التاريخية اللافتة للنظر أنه فى الوقت الذى ظهر فيه دور مصر فى العالم العربى - وبدأت هى نفسها تدرك هويتها ودورها معه - كانت الولايات المتحدة الأمريكية تدخل إلى تجربة مماثلة . فمن خلال تجربة الحرب العالمية الثانية أدركت الولايات المتحدة وقبلت أن تقوم بدور فى العالم ترددت طويلا فى قبول مسئولياته متوهمة أن مستقبلها مكفول وراء عازل المحيط الأطلنطى من الشرق والمحيط الهادى من الغرب .

وفى حين أن يهود مصر كانوا يحاولون تعويق وصول مصر لإدراك هويتها ودورها ، فإن يهود الولايات المتحدة كان لهم دور مماثل فى تأثيره ، وإن اختلف اتجاه حركته .

كانت الحركة الصهيونية منذ البداية تركز بشدة على أوروبا لأسباب متعددة ، منها أن أوروبا كانت فى ذلك العصر مركز القرار الدولى . ثم إن أفكارها المتمثلة أساسا فى الثورة الفرنسية بكل ما قالته عن المساواة بصرف النظر عن الدين والعرق واللون ، كانت من الأفكار المؤثرة بشكل ما فى الفكر الصهيونى . ثم أضيف إلى ذلك دور "نابليون" وورقته اليهودية ، ولحق بذلك دور بريطانيا فى الشرق الأوسط الذى تبنى ورقة "نابليون" اليهودية ، ثم إن بريطانيا أصبحت الدولة الحامية لليهود ، وهى الراعية لمشروع دولتهم فى فلسطين ، الأمر الذى عبر عنه "وعد بلفور" الذى أصبح أساسا عمليا لفكرة إقامة دولة يهودية فى فلسطين .

فى تلك الحقب كانت الولايات المتحدة الأمريكية تبدو بعيدة ، وكانت هناك أسباب موضوعية تجعل يهودها بعيدين بمسافة ما عما كان يجرى فى أوروبا . وكانت الأسباب الموضوعية لهذه الحالة تتمثل أساسا فيما يلى :

١ ـ إن عناصر الهجرة الأوروبية الأولى إلى أمريكا كانت أصلا من العناصر الأنجلو ـ ساكسونية ، ودافعها إلى الهجرة ـ ضمن أسباب أخرى اقتصادية ـ دافع دينى متشدد متأثر بالإنجيل وبما فيه من مسئولية اليهود عن صلب "المسيح" . وفى الحقيقة فإن كراهية اليهود كانت جزءا من ثقافة هؤلاء المهاجرين الأول إلى العالم الجديد . وكانت موجات الهجرة الأولى تلك متجهة إلى الجنوب الأمريكى الذى أصبح بالفعل معقلا للأنجلو ساكسونية .

٢ ــ إن موجات هجرة يهودية لحقت بالمهاجرين الأنجلو ــ ساكسون الأول . والحاصل أن موجات الهجرتين الثانية والثالثة إلى أمريكا كانت فى معظمها من شرق أوروبا ، واليهود عنصر رئيسى فيها . وكان وجود اليهود من هذه الموجات مركزا فى المدن وعلى السواحل . فاليهود بتجربتهم التاريخية قريبون من مجالات التجارة والمال ، وهذه موقعها المدن والموانى وليس العمق أو غزو البرارى البعيدة والخطرة فى ذلك الوقت باحتمالات الصدام مع سكان القارة القدامى من الهنود الحمر .

٣ ـ وعندما بدأت موجات الهجرة الكثيفة من شرق أوروبا فى القرن التاسع عشر فإن أعدادا كبيرة من اليهود المهاجرين من الشرق اعتبروا أن "الأرض الموعودة" هى أمريكا وليست فلسطين . وهكذا فإن الحركة الصهيونية ، وبالذات على أيام "هيرتزل" ، نزعت إلى الشك فى أن أمريكا مركز منافس أكثر منه مركزا مساعدا على مشروعها الصهيونى . وكان قلق المنظمات الصهيونية من البديل الأمريكى شديدا ، لأن اليهود الذين سبقوا بالهجرة إلى أمريكا بدءوا يكتبون إلى عائلاتهم و إلى أصدقائهم يدعونهم إلى القارة الجديدة وينصحونهم بأن أمريكا هى فى الواقع "إسرائيل الموعودة" . وكان ذلك يأخذ من المشروع الصهيونى ولا يعطيه . فاليهود الذين ذهبوا إلى أمريكا تخلوا تماما عن فكرة العودة إلى فلسطين وراحوا يدعون غيرهم إلى التخلى أيضا .

٤ ـ وبطبيعة الحيوية التى اكتسبتها حركة المجتمع الأمريكى ـ مجتمع جديد تخلص من عقد التاريخ ـ والفرص فيه مفتوحة والامتيازات الطبقية لم تعرف طريقها إليه بعد ــ فإن أعدادا كبيرة من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا راحوا يبرزون على سطح مجتمعات العالم الجديد خصوصا فى مجالات المال والفنون والإعلام . وكانت قوة الحراك الاجتماعى فى العالم الجديد تعطى لهؤلاء جميعا فرصا ظاهرة للتأثير لا يحتاج أصحابها كما هو الحال فى أوروبا إلى إخفائها أو التنصل منها أو الاعتذار عنها إذا عرفت وبانت . وكان هؤلاء اليهود الأمريكيون يطمحون إلى زيادة أعدادهم تدعيما لمواقعهم فى العالم الجديد كنوع من تعزيز

قدرتهم التنافسية إزاء عناصر عرقية ودينية وطائفية أخرى وجدت لنفسها مكانا فى قارة "الفرص المفتوحة" .

٥ ـ وبعد فترة من المنافسة بين المركز الصهيونى الأوروبى الداعى إلى الهجرة لفلسطين وبين المركز اليهودى الجديد فى أمريكا المطالب بالهجرة عبر المحيط ، فإن الحركة الصهيونية فى أوروبا أدركت أن عليها أن تتنازل أو تدخل فى صدام يهودى ـ يهودى . ومع الاضطرابات التى سادت أوروبا فى أعقاب حرب السبعين ، فإن الحركة الصهيونية الأوروبية بدأت تدرك أن المركز اليهودى الجديد فى أمريكا يمكن أن يكون قوة دعم لها ، وليس مجرد منافس يعترض خططها ، خصوصا مع إدراك القيادة الصهيونية فى أوروبا إلى حقيقة أن هناك قدرة استيعابية محدودة لفلسطين ، ثم إنه ليس من مصلحة المهاجرين اليهود حصرهم جميعا فى الشرق . وكان مما ساعد على مد الجسور بين يهود أمريكا وبين الحركة الصهيونية فى أوروبا ظهور عدد من الشخصيات اليهودية المؤثرة فى المجتمع الأمريكى ، وهى شخصيات تستطيع بعقيدتها الدينية وولائها العرقى أن تصبح مددا لليهود فى دولة تقوى اقتصاديا وسياسيا وعسكريا بسرعة كبيرة . وهكذا فإنه فى سنوات ما بين الحربين أصبح يهود أمريكا قوة دعم مادى ومعنوى مفيد للحركة الصهيونية الأوروبية . لكن الأمر حتى ذلك الوقت لم يتعد كتابة المقالات وإقامة الحفلات وجمع التبرعات .

وكان أقصى ما حاولته الجهود الصهيونية للتأثير على الرأى العام فى أمريكا هو محاولة تصوير حلم إسرائيل وكأنه تكرار للمغامرة الأمريكية الكبرى : هجرة من الاضطهاد ـ حركة استيطان فى أرض جديدة ـ خطر عدائى من سكان محليين لا يحسنون استغلال الأرض التى يعيشون عليها ، ويمنعون الأقدر والأقوى من تحقيق حلم طموح ومشروع .

٦ ـ ثم كانت نقطة التحول الكبرى المتمثلة فى الحرب العالمية الثانية . فقد تقدمت الولايات المتحدة إلى المعركة ضد "هتلر" وهو العدو الرئيسى لليهود . وقد نجحت بريطانيا فى تجنيد وتوجيه عداء اليهود الأمريكيين لـ "هتلر" للضغط على المجتمع الأمريكى ليرضى بالحرب مرة أخرى فى أوروبا . وبالطبع فإن إنجلترا استخدمت يهود أوروبا والحركة الصهيونية القوية فيها كجسر اتصال مع يهود أمريكا . وأدى ذلك بدوره إلى لقاء حميم بين المركزين الأوروبى والأمريكى فى الحركة اليهودية والصهيونية .

٧ ـ وأكثر من ذلك ، فإن دخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى ساحة الحرب العالمية الثانية ـ وقيادة معسكر الحلفاء فيها بواقع الأمور ـ أتى بالولايات المتحدة إلى قلب الشرق الأوسط وهو من أهم وأخطر ميادين الحرب وساحاتها العسكرية والسياسية . وفى التفكير الأمريكى لعالم ما بعد الحرب ـ حتى مع استمرار معاركها ـ فإن الولايات المتحدة بدأت

محاولة لتعريف وتوصيف مصالحها فى هذه المنطقة الغريبة عنها . وأظهرت الدراسات ـ وفقا لما تقول به الوثائق الأمريكية ـ حقيقتين حول السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط .

أولاهما ـ أن المنطقة سوف تصبح فى مستقبل قريب جدا أهم منابع النفط فى وقت تتضاءل فيه الموارد الأمريكية نسبيا وترتفع تكاليف استغلالها .

وثانيتهما ـ أن المنطقة هى قلب العالم الإستراتيجى بعد الحرب ، وبالتالى فهى مكان يتحتم على الولايات المتحدة أن ترتب نفسها لوجود طويل فيه ، كما أن عليها أن تخلق أسبابا وظروفا ملائمة لهذا الوجود الطويل على كل المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

٨ ـ ومع إدراك السياسة الأمريكية بأن مصالحها الغالبة مع العرب حيث مواطن البترول فإن تتابع الحوادث على مسارح العمليات فى الشرق الأوسط وضع بذورا وجدت من يرعاها فيما بعد . ذلك أن تقدم الفيلق الألمانى بقيادة الماريشال "روميل" فى الصحراء الغربية ـ سنة ١٩٤٢ ـ حتى العلمين ، واستعداده بعد ذلك لاختراق دلتا النيل إلى قناة السويس ثم إلى فلسطين ، أحدث قلقا هائلا بين اليهود فى العالم . فوصول جيوش "هتلر" إلى فلسطين كان كفيلا بتشتيت قرابة ربع مليون يهودى هاجروا إليها واستوطنوا فيها .

كانت أمريكا قد شاركت فى الحرب فى ديسمبر ١٩٤١ . ومع تقدم معركة العلمين ، ومع الخوف من تقدم "روميل" إلى فلسطين ، فقد بدأت صيحة يهود العالم ـ متوافقة مع إلحاح إنجلترا وبقية الحلفاء الأوروبيين ـ بضرورة العمل على وقف زحف "روميل" فورا نحو قناة السويس وفلسطين . وهكذا فإن أول ظهور للدبابات الأمريكية كان على مسرح الشرق الأوسط مشاركة فى معركة العلمين . كما أن السلاح الأمريكى وصل إلى الفيلق اليهودى الذى توجه بسرعة إلى فلسطين . ثم إن الأسلحة الصغيرة الأمريكية بدأت توزع على المستوطنين فى المستعمرات حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم إذا وصل الغزاة الألمان إلى أسوار مستعمراتهم فى فلسطين .

□

كان واضحا فى ذلك الوقت أمام الحركة الصهيونية وغيرها ممن تعنيهم موازين القوى فى العالم ، أن الولايات المتحدة الأمزيكية سوف تخرج من الحرب العالمية الثانية متربعة على قمة العالم سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية ، أو التأثير الدولى الواسع بما فى

ذلك سلطة رسم خرائط ما بعد الحرب . وكان على الحركة الصهيونية أن ترتب نفسها لهذه الحقيقة الجديدة الحاكمة فى عالم متغير . وكانت وسيلتها التى طرحت نفسها ـ تلقائيا ومنطقيا ـ هى أن يكون يهود أمريكا هم الجسر الذى يعبر عليه مشروع إقامة الوطن اليهودى فى فلسطين من أحضان أوروبا إلى حضن أمريكا .

ومن الواضح أن يهود أمريكا أصبحوا على استعداد لأسباب كثيرة :

● بينها بداية معرفة تبلورت لديهم بما حدث لليهود فى ألمانيا ثم فى أوروبا التى خضع معظمها للاحتلال النازى سنوات الحرب . وكانت المعلومات فى هذا الشأن متوفرة من قبل الحرب عن طريق موجة الهجرة فى الثلاثينات ، وقد حملت إلى الشواطئ الأمريكية يهودا من طراز "ألبرت آينشتين" وحتى طراز "هنرى كيسنجر" . ثم لحق بذلك ما تسرب من معلومات عما كان يجرى وراء دخان الحرب .

● ومن نتيجة ذلك أنه تولد لدى يهود الولايات المتحدة إحساس بنوع ما من عقدة الذنب ، وظنوا أن فى استطاعتهم التعويض عنه بدمج شبه كامل بين الحركة الصهيونية فى أوروبا وبين نظيرتها الأمريكية التى كانت قوتها تتنامى .

● ولم تكن الحركة الصهيونية فى أوروبا تريد من يهود أمريكا مجرد حفلات تجمع فيها التبرعات ، وإنما كانت تريد منهم أن يحملوا قوة الولايات المتحدة أو الجزء الأكبر منها وراء المشروع الإسرائيلى ، وذلك بالتأييد السياسى والدعم العملى اقتصاديا كان أو عسكريا .

● وكانت أهم مقولات الحركة الصهيونية الأوروبية لنظيرتها الأمريكية فى تحديد الواجبات المستقبلية هى القول بأن "يهود أوروبا استطاعوا الحصول على الوعد بالدولة ـ وعد بلفور ـ وقد أوشكوا على تحقيق قيام الدولة بمقتضاه ، وعلى يهود أمريكا أن يستكملوا الطريق بتحقيق هدفين تحددا بوضوح ، وهما :

١ ـ تأكيد وتثبيت قيام الدولة .

٢ ـ تحقيق اعتراف العرب بقيامها باعتبار أن ذلك هو الضمان الشرعى الوحيد لبقائها. فمن الممكن للطرف الأقوى أن يفرض على طرف أضعف منه أمرا واقعا يريده،لكن ذلك لا يحقق لهذا المراد شرعيته ، وإنما تستقر الشرعية حين يقدم الضعيف اعترافه بالأمر الواقع حتى وإن كان مفروضا عليه .

□

كان اجتماع "بلتيمور" هو الموعد الذى التقت فيه كل التنظيمات الصهيونية فى أوروبا وفى أمريكا . إن "بلتيمور" فندق صغير فى نيويورك قدر له فيما بين ٩ ـ ١١ مايو سنة ١٩٤٢ أن يشهد امتزاج الصهيونية الأوروبية مع الصهيونية الأمريكية لتكون من الاثنتين قوة واحدة وراء مشروع الدولة اليهودية فى فلسطين . ثم أن يكون هذا المشروع تحت رعاية وحماية القوة الجديدة البازغة فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية .

كان لقاء الحركة اليهودية (الصهيونية) الأوروبية مع الحركة اليهودية الأمريكية ـ (التى انتقلت إليها العدوى الصهيونية بسرعة) ـ لقاء شديد الخطورة فى تاريخ اليهود وإسرائيل عموما . فقد كانت لكل من هاتين الحركتين صفاتها وخصائصها :

• فاليهودية (الصهيونية) الأوروبية كانت بالدرجة الأولى نخبا مثقفة اشتغلت طويلا بالفلسفة ، وأطالت التفكير فى التاريخ وانتقت منه ما شاءت ، وكتبت مذكرات بآرائها وألفت كتبا ، كما أنها كانت تضم مجموعات من كبار الرأسماليين الذين يفضلون العمل بهدوء ومن وراء الستار . وكان معظمهم من رجال البنوك الذين يفضلون أن يكون تأثيرهم بعيدا عن الأضواء . وكانت صلة الفريقين (المثقفون والرأسماليون) بالسياسة صلة بالهمس وبالطرق غير المباشرة فى معظم الأحيان ، وباتصالات خفية مع رؤساء الوزارات فى إنجلترا، والسلاطين فى إستانبول أو القاهرة .

• وأما اليهودية (الصهيونية) الأمريكية ، فإنها كانت من نوع آخر . كان توجهها عمليا لا يتوقف كثيرا أمام النظريات . وكانت منشئة أكثر منها متفلسفة ، وكانت قادرة على التأثير الجماهيرى المباشر عن طريق التصاقها بمجالات الفنون والإعلام والنشر . وفوق ذلك فإن المجتمع الأمريكى أعطاها الفرصة لتتصرف دون عقد . وقد لاحظ "بن جوريون" نفسه هذا الاختلاف بين يهود أوروبا ويهود أمريكا ، وعبر عنه بقوله "إن اليهودى الأوروبى تعود أن يكتم مشاعره إذا أحس بالتمييز ضده ، وعلى عكس ذلك فإن اليهودى فى أمريكا مستعد لأن يصرخ بأعلى صوت إذا أحس بشبهة تمييز ولو من بعيد".

□

وشاركت فى مؤتمر "بلتيمور" ستمائة شخصية من أوروبا وأمريكا . وحضر "حاييم وايزمان" و"دافيد بن جوريون" و"ناحوم جولدمان" . وكان عليهم أن يعطوا لليهود الأمريكيين فكرة كاملة عما تحقق فى المشروع الصهيونى منذ بدايته وحتى الآن . وحضر من اليهود

الأمريكيين عدد كبير من الرجال البارزين فى الحياة العامة فى الولايات المتحدة ، وبينهم "ليون جيلمان" و"لويس ليبسكى" و"إسرائيل جولدشتاين" والحاخام "أباهيلل سيلفر" وغيرهم. ثم اتخذ المؤتمر مجموعة قرارات أعلنها وسط حملة إعلامية وسياسية كثيفة .

كان إعلان "بلتيمور" عملية تأكيد لما حققته الحركة الصهيونية فى أوروبا حتى الآن من الهجرة إلى الاستيطان إلى وعد بلفور إلى وضع قوائم بناء مشروع الدولة فعلا فى الفترة اللاحقة وحتى قيام الحرب العالمية الثانية . وهنا لم ينس المؤتمر أن يشيد بجهد الفيالق اليهودية فى ميادين القتال مما يعطى للدولة اليهودية المنتظرة حقا لا ينازع فى صياغة عالم ما بعد الحرب .

وكان هذا حديث الماضى . وانتقل بيان "بلتيمور" بعده إلى حديث المستقبل ، فبدأ فى المادة الثامنة منه بإعلان مؤثر يقول "إن هناك نظاما عالميا جديدا سوف ينشأ بعد انتهاء هذه الحرب . وفى ظل هذا النظام العالمى الجديد فإن الصلة بين الشعب اليهودى وبين أرضه فى فلسطين لا بد أن تتأكد وتحقق ذاتها بقيام دولة إسرائيل لتعطى اليهود حقوقهم التى هى مطلب شرعى وتاريخى لهم بعد ألفى سنة من الغياب فى التيه . ثم مضى بيان المؤتمر يحدد ثلاثة أهداف للمستقبل القريب يتحمل مسئوليتها يهود أمريكا أكثر من غيرهم :

١ ـ فتح أبواب الهجرة فى فلسطين أمام اليهود دون أى قيود يضعها طرف محلى أو دولى .

٢ ـ ضرورة مساعدة المجتمع الصهيونى فى إنشاء الدولة ، وذلك عن طريق مساعدات مادية وسياسية وعسكرية كافية لتحقيق هذا المطلب .

٣ ـ اعتبار الدولة اليهودية المنتظرة جزءا من بناء العالم الديمقراطى الجديد الذى ستكون قيادته دون منازع للولايات المتحدة الأمريكية .

وكانت هناك أصوات يهودية ارتفعت بالاعتراض على قرارات المؤتمر ، وتخوفها من احتمال أن يؤدى برنامج "بلتيمور" إلى إدخال يهود أمريكا فى مشاكل كبيرة بعد الحرب. بما فى ذلك ما يبدو من دلائل تشير إلى وجود حركة قومية عربية فى المنطقة سوف تتصادم يقينا مع مشروع الدولة الجديدة . وهذا من شأنه أن يزج يهود فلسطين ويهود العالم وراءهم فى حرب ممتدة لأن أى ادعاء بالعودة بعد ألفى سنة من الغياب يفرض على العائدين ـ أرادوا ذلك أو ترددوا دونه ـ أن يزيحوا و"يكنسوا" حيزا يتسع لهم فى منطقة ملأها التاريخ بأقوام جدد عاشوا فيها وانتموا إليها وأصبحوا كل نسيجها الوطنى .

لكن أصوات التحفظ والاعتراض ضاعت فى الهواء ، وأقرت معظم التجمعات اليهودية فى الولايات المتحدة قرارات مؤتمر "بلتيمور" ، وخرجت نشيطة تتبناها وتعمل على تحقيقها.

□

وكان الرئيس الأمريكى "فرانكلين ديلانو روزفلت" على وشك أن يرشح نفسه للرئاسة لمرة رابعة ، وهو أمر غير مسبوق فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية . وكان منافسه الجمهورى فى هذه الانتخابات "ويندل ويلكى" صاحب نظرية شهيرة لخصها فى كتاب أصدره فى ذلك الوقت بعنوان "عالم واحد" ، مؤداها "أن العالم خارج بعد تجربة الحرب العالمية الثانية إلى قرية عالمية واحدة" . وكانت دعوة "ويلكى" تلقى استجابة . والحرب ضد "هتلر" على وشك أن تنتهى بانتصار الحلفاء . وكان "روزفلت" فى حاجة إلى كل الأصوات و إلى كل أدوات التأثير و إلى كل الأموال اللازمة لدعم حملته الانتخابية .

وتوجه "روزفلت" يطلب مساعدة عدد من الشخصيات اليهودية بينهم "ستيفن وايز" (وهو حاخام شهير) ، و"فيلكس فرانكفورتر" (وهو رئيس المحكمة الدستورية العليا) ، و"برنارد باروخ" (وهو أقرب المستشارين إليه) ، و"هنرى مورجنتاو" (وهو وزير خزانته) . وربما كانت تلك أول مرة فى التاريخ يمارس فيها اليهود دورا منظما فى معركة انتخابات لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن أن يقال إن "روزفلت" كان واقعا تحت تأثيرين متناقضين :

- دينه الانتخابى لقوة اليهود ماثل أمامه ، من ناحية .
- ومن ناحية أخرى فإن خبراء وزارة الخارجية ، مضافا إليهم مجموعة من أصحاب شركات البترول ، يلفتون نظره إلى أهمية المصالح الإستراتيجية والبترولية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، وكلها واقعة فى بلاد عربية .

وبدأ "روزفلت" يحاول أن يجد لنفسه خطا وسطا ، وكان ذلك صعبا لأن الدين الانتخابى لليهود لم يكن قاصرا على رئيس الولايات المتحدة ، وإنما امتد تأثيره إلى كثيرين من أعضاء الكونجرس . وكانت تلك نشأة ما عرف باسم "اللوبى الصهيونى"[٢]

(٢) كلمة "لوبى" (lobby) تعنى مداخل القصور أو الفنادق الكبرى وممراتها ، وهى بذلك ترمز إلى وكلاء ووسطاء المصالح التى تتعقب الساسة عند دخولهم أو خروجهم من الاجتماعات لتنفرد بهم دقيقة أو دقيقتين . تهمس إليهم بالكلمات أو بالوعود إذا ما سايروا وساعدوا .

وكانت معركته الأولى هى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية لكى تقوم "دولة إسرائيل" !

وأصبح اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة ظاهرة غريبة حتى بين جماعات الضغط التى عرفتها الحياة السياسية الأمريكية .

كانت هناك من قبل فى الولايات المتحدة جماعات ضغط تنتمى إلى أصول أوروبية من حيث جاء المهاجرون إلى العالم الجديد وحاولوا أن يحافظوا على شىء من الهوية والصلة بأعراقهم القديمة . كانت هناك مجموعة الضغط الأيرلندية ومعقلها ولاية "ماساشوسيتس" ، ومجموعة الضغط الإيطالية ومعقلها ولاية "كاليفورنيا" .. إلى آخره .

لكن مجموعة الضغط الصهيونية كانت كيانا مختلفا ، فهو يمثل بلدا لم يصل منه مهاجر إلى أمريكا ، ولن يعود منه مهاجر إلى الشرق الأوسط ، والكل لا يعرف لغته ، وحتى أجداد الأجداد من المهاجرين اليهود لم يروه بأعينهم ، ولا يتذكرون منه أو عنه شيئا !

٥

مصطفى النحاس

" قل للنحاس باشا إننى لم أتحدث مطلقا عن دولة يهودية فى فلسطين "

(تعليمات من وزير الخارجية الأمريكى إلى وزيره المفوض فى القاهرة)

كانت المعركة الأولى التى خاضتها الجماعات اليهودية الصهيونية فى الولايات المتحدة هى معركة فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية ، وإلغاء الحدود التى وضعتها السياسة البريطانية فى ظروف خطر الحرب العالمية ، ثم وقوع هذا الخطر فعلا . وكانت السياسة الرسمية الأمريكية تتفهم الدواعى البريطانية إلى وضع هذه الحدود ، لكن الجماعات اليهودية الصهيونية لم تكن على استعداد لتفويت الفرصة السانحة بصرف النظر عما تراه السياسة الأمريكية من اعتبارات . وفى واقع الأمر فإنه لم يكن هناك خلاف كبير على الهدف ، ولكن الخلاف كان على الأسلوب بما فى ذلك ملاءمة التوقيت . وهكذا بدت خطا السياسة الأمريكية مرتبكة ، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر من دراسة لبعض وثائق البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية سنة ١٩٤٤ :

● وثيقة رقم ٠١/٢٣٧٣ ن ٨٦٧

مذكرة من أدولف بيرل (مساعد وزير الخارجية الأمريكى)

التاريخ : ٢٨ يناير ١٩٤٤

عزيـزى الوزيـر ،

أرفق لكم مع هذه المذكرة نـص مشـروع القراريـن رقمـى ٤١٨ و ٤١٩ المعروضـين على مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وهما بنفـس الصيغـة :

"الكونجـرس قـرر :

الطلب إلى حكومة الولايات المتحدة بأن تبـذل كـل مساعيها الحميـدة وأن تقـوم بكافة الخطوات الضرورية لفتح أبـواب هجرة اليهود إلى فلسطـين ، وأن يكـون لهـم الحق فى استعمار هذه البـلاد وإنشاء دولة يهودية حـرة ديمقراطية فيها ."

إن زعيم الأغلبيـة فـى مجلـس النـواب جـون ماكورمـك وكذلـك زعيـم الأقليـة جوزيف مارتـن فى نفس المجلس اتصلا بى تليفونيا وأبلغانى بهذا المشـروع ، وطلبـا تقديمه لـك .

إمضـاء

أدولــف بــيرل

● وثيقـة رقـم ٠١/٢١٨٧ ن ٨٦٧

مذكرة عن حديث بين مساعد وزير الخارجية أدولـف بـيرل والوزيـر المفـوض البريطانى السير رونالـد كامبـل .[٣]

التاريخ : ٣١ ينايـر ١٩٤٤

جاء رونالد كامبـل ليرانى ويتحدث معى فى شأن قـرار الكونجرس بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامة دولة يهودية فى هـذا البلـد . وقـد بـدأ كلامـه معى بقوله إن الحكومة البريطانيـة لا تـود أن تعلـق علـى عمـل السـلطة التشـريعية الأمريكية ، ولكنه يريد أن يلفت نظرنـا إلى أن الموضوع الذى تتعـرض لــه القـرارات يتضمـن التزامات كبيرة بينهـا التزامـات عسـكرية . إن القـرار البريطـانى فـى هـذا الشأن سوف يكون متماشيا بالطبع مع الرغبات الأمريكيـة . لكن ذلك يقتضى أن تكون حكومة الولايات المتحدة على علـم بالأعباء المترتبة على ذلك .

إمضـاء

أدولــف بــيرل

---

(٣) وزير مفوض فى السفارة البريطانية فى واشنطن وقتها ، وفيما بعد سفير لبريطانيا فى القاهرة ، وكـان هـو السفير الذى خلف اللورد "كيلرن" سنة ١٩٤٥ واستمر فى القاهرة إلى ما بعد حـرب فلسطـين

• وثيقة رقم ٧٤٤ - ٠١/٢ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الحربية هنرى ستمسون إلى السناتور كونلى رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ .

التاريخ : ٧ فبراير ١٩٤٤

عزيزى السناتور كونلى

تلقيت خطابك الذى يتضمن نص قرار الكونجرس بشأن فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية بدون حدود . وأود أن ألفت نظرك إلى أن هذا القرار ينطوى على أمور مهمة بالنسبة لوزارة الحرب . ذلك أن أى صدام بين اليهود والعرب الآن سوف يتطلب الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة فى منطقة الشرق الأوسط ، فى حين أن ضرورات الحرب ضد ألمانيا تقتضى توجيه هذه القوات إلى ميادين أخرى أكثر تأثيرا على مجرى الحرب .

إمضاء

هنرى ستمسون

□

وبدأت بعض الدول العربية تتنبه إلى ما يجرى فى واشنطن وتستشعر آثاره عليها . وتمضى الوقائع طبقا للوثائق :

• وثيقة رقم ٠١/٢١٩٣ ن ٨٦٧

مذكرة عن مقابلة بين إدوارد ستتنيوس وكيل وزارة الخارجية وكل من الوزير المفوض لمصر محمود حسن باشا والوزير المفوض للعراق على جودت .

التاريخ : ٩ فبراير ١٩٤٤

عزيزى الوزير

حضر لمقابلتى بناء على طلبهما كل من الوزير المفوض المصرى والوزير المفوض العراقى وقد دام لقائى معهما خمسا وعشرين دقيقة .

إن الوزير المفوض المصرى بدأ الحديث بالإعراب عن قلق حكومته الشديد من قرار الكونجرس بشأن المشكلة الفلسطينية . وقد أخبرنى أنه التقى بالرئيس روزفلت عدة مرات فى الشهور الأخيرة وسمع منه تأكيدات عن أن كل موضوع فلسطين بما فى ذلك موضوع فتح أبوابها لهجرة اليهود سوف يؤجل إلى ما بعد انتهاء الحرب . لكن قرار الكونجرس الأخير يدخل عنصرا جديدا إلى الموضوع . وإن رئيس وزرائه مصطفى النحاس باشا طلب إليه الحصول منا على إيضاحات فى هذا الأمر .

وقد انضم الوزير العراقى إلى زميله المصرى ملحا على ضرورة تأجيل موضوع فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية للمناقشة بعد انتهاء الحرب .

ومن جانبى فقد شرحت للسيدين أن وزير الخارجية "كوردل هل" يتابع الموقف باهتمام وإننا نقدر أنهما جاءا إلينا بوجهة نظرهما .

إمضاء

إدوارد ستتنيوس

• وثيقة رقم ٠١/٢١٨٥ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض فى بغداد لوى هندرسون إلى وزير الخارجية .

بغداد : ١٤ فبراير ١٩٤٤ الساعة السابعة مساء

عزيزى الوزير

طلبنى أمس رئيس الوزراء نورى (السعيد) باشا وقال لى إنه سوف يكون ممتنا لو قمت بإبلاغ حكومتى برقيا بالقلق الشديد من الضغط الذى تمارسه الجماعات الصهيونية على السياسة الأمريكية . وإن النفوذ الصهيونى المتنامى فى الولايات المتحدة قد يحمل إلى موقع القرار الأمريكى مسئولين واقعين تحت هذا التأثير الصهيونى ، مما يؤثر على العلاقات مع العرب ، ومما يخدش المبادئ المعلنة فى ميثاق الأطلنطى وفى إعلان الأمم المتحدة . إن نورى باشا أشار إلى التأثير الصهيونى على أعضاء مجلس الشيوخ البارزين ، وهو أمر بدا فى تصريحات السناتور واجنر والسناتور تافت والسناتور باركلى . وكلهم أيدوا فى تصريحات تم نشرها على نطاق واسع ضرورة فتح الأبواب لهجرة اليهود إلى فلسطين . وقال نورى باشا إن

مثل هذه التصريحات سوف تخلق شعورا بالعداء ضد أمريكا ، وهو شعور قد تستغله الدعاية النازية ، وإنه سمع بنفسه من راديو برلين باللغة العربية تحريضا شديدا للعالم العربي بسبب هذه المسألة ضد الولايات المتحدة . وقال لى نورى باشا إن العرب لا يملكون من وسائل التأثير فى الكونجرس ما تملكه الجماعات الصهيونية ، لكنه يأمل أن تقوم الحكومة الأمريكية بما تراه لازما لعمل شىء من التوازن .

إمضاء

لوى هندرسون

- وثيقة رقم ٠١/٢٢٠٩ ن ٨٦٧

برقية من القائم بالأعمال فى دمشق فاريل إلى وزير الخارجية .

دمشق : ٢٤ فبراير ١٩٤٤ الساعة الثانية بعد الظهر

استدعانى وزير الخارجية السورى إلى مكتبه وسلمنى رسالة احتجاج صدر بها قرار من مجلس النواب السورى محال إليه من فارس الخورى رئيس المجلس وهو احتجاج موجه إلى الكونجرس الأمريكى . النص كما يلى :

"إن قرارات الكونجرس الأمريكى بشأن قيام دولة يهودية فى فلسطين توجه ضربة مميتة إلى الحقوق العربية . وإن الدول العربية جميعها التى وضعت مواردها فى خدمة الحلفاء لتحقيق النصر تشعر بالخيانة من أثر هذه القرارات التى تراها مخالفة لكل المبادئ المعلنة فى ميثاق الأطلنطى . إن إعطاء ميزات لليهود على حساب العرب لا يمكن تبريره أو قبوله ، ونحن نطلب أن توضع الحقوق العربية فى فلسطين موضع اعتبار قبل أى قرار ."

إن وزير الخارجية السورى الذى سلمنى هذا القرار أضاف أن حكومته تشارك مجلس النواب السورى فيما أعرب عنه من مشاعر وآراء ، وإنه يأمل أن تأخذ الحكومة الأمريكية ذلك كله مأخذ الجد وتعالج الأمر باهتمام ومسئولية .

□

كان الجيش الأمريكي بعيدا عن تأثيرات جماعات الضغط اليهودى والصهيونى حتى ذلك الوقت ، ولم يكن فى صف العرب بالطبع ، ولكن العنصر الوحيد الذى يحكمه وقتها هو الضرورات العسكرية ، وكان الجيش الأمريكى متخوفا من فتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين ـ وإنما لأسبابه الخاصة ـ وتتواصل الوثائق :

- وثيقة رقم ٢٦٤٤ - ٠١/٢/٢ ن ٨٦٧

مذكرة من مساعد وزير الحربية (جون ماكلوى) إلى مساعد وزير الخارجية (لونج) .

واشنطن : ٢٦ فبراير ١٩٤٤

إلحاقا بحديثى التليفونى معكم فإننى أرسل لكم الآن مذكرة رفعتها إلى الجنرال مارشال (رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة) تمهيدا للقائه مع عدد من أعضاء الكونجرس .

المذكرة

إن قرارات الكونجرس بشأن فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية غير محدودة سوف تلقى علينا مسئوليات كبيرة عند تنفيذها ، ثم إننا نلاحظ أن هذه القرارات أجرت نقلة واضحة بين ما ورد فى وعد بلفور عن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (National Homeland) ، وهى تتحدث الآن عن دولة يهودية فى فلسطين .

إن قرار الكونجرس بكل ما يحتويه سوف يزيد من التوتر بين العرب واليهود فى فلسطين، وكلاهما الآن يملك كميات كبيرة من الأسلحة . وقد حدثت بالفعل هجمات بالقنابل على مكاتب الهجرة اليهودية التابعة للحكومة البريطانية فى حيفا وفى القدس وفى تل أبيب . وليس من صالح الولايات المتحدة زيادة التوتر الآن. ولا بد أن نضع فى الاعتبار عدة عوامل بينها :

١ ـ إن الحلفاء لديهم قوات عسكرية كبيرة فى المنطقة الآن وهم يريدون نقلها إلى ميادين أخرى . وهم يسعون إلى تخفيف التزاماتهم فى هذه المنطقة وإعطاء الأولوية لميادين أخرى مثل شمال إيطاليا وعمليات أخرى .

٢ ـ إن قوات أمريكية مسلحة موجودة فى العالم الإسلامى كله وليس فقط فى فلسطين. وفى العالم الإسلامى حول البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا فإن

قضيـة فلسطـين قد أصبحت لها حساسية خاصة . وهناك اضطرابات بـالفعل بـين قبائل مراكـش ، ومع أن هذه الاضطرابات ليست لها علاقـة مباشرة بفلسطـين ، إلا أن الدعاية الألمانية قد تستغـل القضية لزيادة النـار اشتعالا .

٣ - إن خطـوط مواصلاتنا الحيوية تجـرى آمنـة فى كل منطقة الشرق الأوسـط ، ومـن المحتمل أن تتعـرض للخطـر فـى حالـة ظهـور انحيـاز أمريكـى مبكـر لمطـالب اليهود فى فلسطـين .

٤ - إن خـط إمداداتنا الإستراتيجية لروسيا يمـر عـن طريـق الخليـج الفارسـى وعـن طريـق الشـرق الأوسـط . وهـذه كلهـا أمـاكن يقطنهـا مسلمـون . وقـد تتعـرض إمداداتنا لمشاكل عدائية فى حالة ظهور انحيازنا لليهود .

٥ - إن الشرق الأدنى منطقة مهمة كقاعدة لأى عمليات نقوم بها فـى أوروبـا . وخـط الأنابيب من العراق إلى البحر الأبيض هو شريان حيوى مهـم لا يصـح تعريضـه لخطر أى قلاقـل.

٦ - وأنا لا أريد أن أبالغ فى المصاعب التى تواجهنا ، لكننى أعرف أننـا علـى اتصـال بالمملكـة العربية السعودية بشأن بنـاء خـط أنابيب بـترول إلى البحر الأبيـض. وأخشـى أن تتعطـل مفاوضاتنا مـع السعوديين إذا مـا ظهــر انحيازنـا للمشروع الصهيونى .

أردت أن أحيطـك علمـا بهـذا ، وأنا على استعداد لإضافة أى نقـط أخـرى قـد تراهـا مناسبـة .

إمضـاء

جـون ماكلـوى

□

وانضم الملك "عبد العزيز آل سعود" إلى مصـر وسوريا والعراق ، كما انضمت دول عربيـة أخرى تعطى للموقف العربـى وزنـا إضافيـا يحولـه إلى لقـاء إجمـاع عربـى . ويسـتمر حديـث الوثـائق :

- وثيقـة رقـم ٠١/٢٢١٥ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض المقيم فى المملكـة العربيـة السعودية (مـوس) إلى وزير الخارجيـة .

جـدة : ٢٧ فبرايـر ١٩٤٤ الساعة الحادية عشرة صباحا

عزيـزى الوزيـر

جاء إلى مقابلتى وزير المالية عبد اللـه السليمان وكان يحمل معـه برقيـة تحمـل أمـرا تلقاه من الملـك بـن سعـود حول موضوع فلسطـين ، وقـد قـرأه لى علـى النحـو التـالى :

"قابل الوزير الأمريكى فى جدة وأخطـره بـأن الأخبـار التـى سمعناهـا أقلقتنـا وسيكون لها أثـر سـيئ على الجميع . ونحن نعتقـد أن البـت فـى موضوعـات تتصـل بفلسطـين الآن غير مطلوبة ، وسوف تثـير المشـاعر وتحـدث البلبلـة . ونطلـب منـه إبـلاغ حكومته بأن صداقة العـرب مع الولايات المتحدة لا بد أن تثبـت نفسـها الآن ، وأن تقوم الحكومة الأمريكية الصديقة بإظهار حسن نواياها ."

- وثيقـة رقـم ٠١/٢٢١٧ ن ٨٦٧

برقيـة من القنصـل العـام فى بـيروت (وادزورث) إلى وزيـر الخارجيـة .

بـيروت : ٢٨ فبرايـر ١٩٤٤ الساعة الثانية عشرة ظهرا

استدعانى وزير الخارجية سـليم تـكلا وسلمنى مذكـرة تعـرب عـن قلقـه مـن القرارات الموالية للصهيونية ، كما تحمل أيضا نـص قـرار صادر عـن مجلـس النـواب اللبنانى يؤكد اهتمام اللبنانيين بمصير الأرض المقدسة ، وخطـر قيـام دولـة يهوديـة على مسيحيى لبنان ومسلميه على السواء . وأرفق لكـم نـص المذكـرة .

إمضـاء

وادزورث

● وثيقة رقم ٣٤٤ - ٣/٠٠ ن ٨٦٧

رسالة من الأمير عبد الله أمير شرق الأردن إلى الرئيس روزفلت .

عمان : ٣ مارس ١٩٤٤

فخامة الرئيس فرانكلين روزفلت

إن ما يدور في الكونجرس الأمريكي بشأن فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها سبب لنا أسى قلبيا عميقا سرى في كل الشرق . وأنا مقتنع أن الكونجرس لا يملك معلومات كافية عن القضية . وأرجوك أن تتذكر الاحترام العظيم والإعجاب الشديد الذى نحتفظ به لكم وللشعب الأمريكي . إنني ألفت نظر فخامتكم إلى هذه الأمور باعتبار أن بلدى نفسه مجاور لفلسطين ، ثم إنني أذكره كصديق وفي للأمم المتحدة .

إمضاء

الأمير عبد الله

□

وفي ذلك الوقت بدأ اللوبي الصهيوني الأمريكي يشعر بالضغط العربي المنسق ، ويشعر أيضا بأن عناصر من وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكيتين تبدى تفهما لوجهة النظر العربية حتى وإن اختلفت الأسباب . وهكذا يوم ٩ مارس ١٩٤٤ توجه اثنان من زعماء الحركة الصهيونية إلى مقابلة الرئيس "فرانكلين روزفلت" في البيت الأبيض وتحدثا إليه ، ثم خرجا من عنده ومعهما تصريح خولهما إعلانه رسميا . وقد أعلناه بالفعل عند مدخل البيت الأبيض ، وكان نصه - طبقا لبرقية لوكالة "رويتر" صادرة من واشنطن في نفس اليوم (٩ مارس ١٩٤٤) - كما يلي :

" إن الحاخامين الدكتور ستيفن وايز والدكتور أباهيلل سيلفر ممثلين عن الحركة الصهيونية الفلسطينية (!!) قابلا الرئيس روزفلت اليوم ، وقد صرح لهما بإعلان البيان التالي على لسانه :

"إن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقا على الكتاب الأبيض الصادر في لندن سنة ١٩٣٩ والذى حدد هجرة اليهود إلى فلسطين . إن الرئيس روزفلت يعلن عن

سعادته لأن أبواب فلسطين سوف تفتح الآن أمام اللاجئين اليهود . وعندما يجئ الوقت لتقرير شئون منطقة الشرق الأوسط فإن الحقوق العادلة سوف تتأكد لكل هؤلاء الذين يطالبون بوطن قومى لليهود فى فلسطين . إن ذلك هدف تنظر إليه الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى بعطف عميق . والآن أكثر من أى وقت مضى فإن مأساة مئات ألوف من اليهود لا بد أن تلفت نظر الجميع وأن توجههم إلى العدل والخير". "

وكما يمكن توقعه ، فإن هذا البيان أحدث صدى مزعجا فى العالم العربى . وكانت مصر أول من تحرك . واستدعى "مصطفى النحاس" باشا رئيس الوزراء بنفسه الوزير المفوض الأمريكى فى القاهرة "كيرك" وأبلغه بقلقه وباستياء الشعب المصرى كله من تصريح الرئيس "روزفلت" كما ورد فى بيان الحاخامين "ستيفن وايز" و"أبا هيلل سيلفر" . كما أن "النحاس" باشا كلف الوزير المفوض المصرى فى واشنطن بإبلاغ قلقه إلى الحكومة الأمريكية .

● وثيقة رقم ٨٦٧ ن ٠١/٢٣٠٤

مذكرة من الوزير المفوض المصرى محمود حسن باشا إلى وزير الخارجية .

(أرسلت نسخة منها إلى مكتب الرئيس)

التاريخ : ١٤ مارس ١٩٤٤

سيدى ،

إن رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا طلب إلى هذه البعثة أن تنقل اليكم احتجاجه على التصريح المعلن على لسان الرئيس فرانكلين روزفلت بشأن فلسطين . إن هذا التصريح بشكله ومضمونه يسىء إلى مشاعر الشعب المصرى و إلى ارتباطه بالعالم العربى . وسوف يكون رئيس الوزراء ممتنا إذا ما تلقى من رئيس الولايات المتحدة إيضاحا لهذا البيان .

● وثيقة رقم ٨٦٧ ن ٠١/٢٢٥٥

برقية من وزير الخارجية إلى الوزير المفوض فى مصر (كيرك)

التاريخ : ١٥ مارس ١٩٤٤ الساعة التاسعة مساء

اتصل برئيس الوزراء النحاس باشا وأبلغه بما يلى ردا على رسالته للرئيس:

١ ــ أوضح له أن البيان المنسوب للرئيس تحدث عن وطن قومى لليهود فى فلسطين طبقا لوعد بلفور، ولم يتحدث عن دولة يهودية فى فلسطين كما جاء فى قرار الكونجرس .

٢ ــ تستطيع إبلاغه أيضا بأن حكومة الولايات المتحدة لم تعط أية موافقة من جانبها على الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ .

٣ ــ تستطيع أن تؤكد للنحاس باشا أن هذه الحكومة لن تحدث تغييرات أساسية بالنسبة لسياستها فى فلسطين بدون تشاور كامل مع كل من العرب واليهود .

إمضاء

وزير الخارجية

● وثيقة رقم ٠١/٢٢٩٩ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض فى مصر (كيرك) إلى وزير الخارجية

(أرسلت نسخة إلى مكتب الرئيس)

القاهرة : ٢٩ مارس ١٩٤٤ الساعة الرابعة بعد الظهر

عزيزى وزير الخارجية

قابلت النحاس باشا وقد أبدى لى على الفور أسفه لمبدأ أن يقبل الرئيس الأمريكى بصدور بيان منسوب إليه بواسطة زعماء يهود . وهو مرتاح لما نقلته إليه من أن مشاورات سوف تجرى مع العرب واليهود قبل اتخاذ قرارات كبيرة تؤثر على مستقبل المنطقة . وهو يأمل فى الوقت نفسه وفى الظروف الراهنة أن تمتنع كل الأطراف عن إصدار تصريحات يمكن أن تؤدى إلى تعقيدات كبيرة فى البلاد العربية . إن الولايات المتحدة تعتبر فى نظر الشعوب العربية نصيرا للحرية والديمقراطية . ولهذا فإن تصريحات من نوع ما صدر منسوبا للرئيس وقرارات من

نوع ما يصدر عن الكونجرس تسىء إلى الصورة العامة . وقد عاد وكرر لى أنه يسلم بأن هناك اضطهادا وقع لليهود فى أوروبا ، لكنه لا يفهم لماذا يجرى تعويض هذا الاضطهاد على حساب الفلسطينيين وحقهم فى السيادة .

سوف أرسل لكم بالحقيبة الدبلوماسية تفصيلات أوفى عن المقابلة ، لكن ما سبق هو جوهر رد النحاس .

إمضاء

كـــــيرك

□

ومع التركيز على واشنطن فإن الحركة الصهيونية كانت لا تزال تمارس دورها فى بريطانيا التى كانت قائمة على الانتداب ، فموقفها فى النهاية له وزن لأنها الحارس الواقف على بوابات فلسطين حتى هذه اللحظة . وكانت أهمية لندن إلى جانب ذلك أنها مصدر معلومات وتوجيه له أهميته وتكمل الوثائق قصتها فى هذه المرحلة :

- وثيقة رقم ٦٤٤ - ٠١/١٢ ن ٨٦٧

مذكرة من مدير إدارة الشرق الأدنى والشئون الأفريقية (موراى) إلى وزير الخارجية .

واشنطن : ٨ ديسمبر ١٩٤٤

سيدى الوزير

وصلت إلينا نسخة من خطاب كتبه الدكتور حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية إلى الحاخام سيلفر فى واشنطن ، وهى تحتوى على معلومات مهمة عن مناقشة دارت بين الدكتور وايزمان ورئيس الوزراء البريطانى ونستون تشرشل .

إن أهم المعلومات فى هذه المذكرة ترد على النحو التالى :

١ - إن الحكومة البريطانية لم تصل بعد إلى قرار بشأن مستقبل فلسطين . وفى الغالب أنها ستنتظر إلى ما بعد انتهاء الحرب مع ألمانيا .

٢ ـ إن رئيس الوزراء تشرشل وحماسته للصهيونية معروفة رغم عناد بعض وزرائه يرى أنه هو والرئيس روزفلت يستطيعان معا وضع خطوط عملية للمستقبل .

٣ ـ إن رئيس الوزراء ونستون تشرشل يعتقد بضرورة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . كما أنه يقبل طلب وايزمان منه بتسهيل دخول مليون ونصف مليون يهودى إلى فلسطين خلال السنوات العشر القادمة .

٤ ـ بناء على ذلك فإن الدكتور وايزمان طلب من الحاخام سيلفر اتخاذ الخطوات التالية :

(أ) إن رجالا مؤثرين على الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت من أمثال باروخ ومورجنتاو ويوجين ماير (صاحب جريدة الواشنطن بوست ، ووالد صاحبتها الحالية كاثرين جراهام) وفيلكس فرانكفورتر وبن كوهين (محام مشهور) يجب أن يطلبوا مقابلة الرئيس وأن يطرقوا الحديد وهو ساخن وأن يقنعوه على الأقل بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بلا شروط .

(ب) ثم أن يلفتوا نظره إلى مشروع أمريكى أعده الدكتور "لاودر ميلك" من وزارة الزراعة الأمريكية ، وهو خاص بتنمية موارد فلسطين باعتبار أن التنمية مدخل ضرورى لإقناع العرب بأن المستقبل يكمن فى تعاونهم مع اليهود .

إننى أعتقد أنك سوف تجد لهذه الملاحظات أهمية خصوصا ما هو متعلق منها بنوايا رئيس الوزراء تشرشل عن تقسيم فلسطين .

إمضاء

موراى

٦

إليانور روزفلت

" أى مساعدة للصهاينة خيانة لرسول الله وللمؤمنين "

(الملك "عبد العزيز آل سعود" فى حديث مع "ونستون تشرشل")

مع سكوت المدافع ، وارتحال الدبابات من الشرق الأوسط إلى ميادين أوروبا والشرق الأقصى راحت التطورات والتفاعلات التى جمدتها ضرورات الحرب تتحرك فى حرية أكثر. كما أن الأضواء التى كانت معتمة باللون الأزرق بغرض الستر والإخفاء وجهت أشعتها إلى المسرح السياسى فى المنطقة ، وكانت كل القوى تتحرك ، كل منها تريد أن تسبق وأن تقترب من أكثر المواقع ملاءمة لوثوبها نحو تحقيق ما تريد .

وكان بعض المشاهد بالقصد ، كما أن بعضها الآخر كان بالقدر .

وبدا فيها ما هو بالقطع تفاصيل من خطط مرسومة ، ومن ناحية أخرى بدا فيها ما هو على الأغلب عشوائى رمت به المصادفات .

وكان ظاهرا من أول نظرة أن هناك ثلاث قوى تدخل إلى الساحة جاهزة لأدوار دعيت إليها أو تصورتها لنفسها :

● كانت القوة الأولى هى قوة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أعطتها مواردها الاقتصادية وطاقاتها العسكرية حق قيادة عالم ما بعد الحرب . والغالب أن الولايات المتحدة

لم تكن مستعدة للمسئولية لكن القوة لها خاصية أنها تدعو أصحابها إلى مواقعهم مرات بدون إرادتهم ومرات بدون كامل استعدادهم .

وعلى أى حال فقد كانت منطقة الشرق الأوسط أول ما جذب انتباه الولايات المتحدة عبر البحار ، وكان عنصر الجذب الرئيسى هو : موارد البترول . ولم تكن القوة الأمريكية بعد قد تزودت بثقافة كاملة فى ممارسة القوة ، وهكذا فإن دخولها إلى ساحة الشرق الأوسط وإلى موارد البترول فيه بدت عملية انقضاض مباشر للشركات ، كأنها جيش يستولى على غنائم حرب !

وكان لا بد لذلك أن يؤدى إلى احتكاكات مع القوة المالكة لهذه الموارد وهى بريطانيا التى تعتبر نفسها شريكا رئيسيا فى الحرب سبق أمريكا إليها ، وليس عدوا تستباح غنائمه!

وكان لا بد لانتباه الولايات المتحدة أن يتوجه فى نفس الوقت إلى السكان الأصليين لموطن هذه الموارد وهم العرب بنوع من حسن النية وبالاسترضاء ، وبتغطية نقص الفهم والمعرفة بزيادة المجاملات ، وبتوهم أساليب فى المعاملات من نوع ما يتخيله السياح فى بلاد غريبة يسمعون عن أساطيرها ، مما يدفعهم إلى تصرفات تبدو أقرب إلى "الفولكلور" منها إلى "السياسة" .

وفى الجانب الموضوعى من العلاقة مع العرب فقد كانت التصورات السياسية الأمريكية الأولى لا تزال تدرس ، وكانت التجارب الإمبراطورية السابقة غير بعيدة عن التفكير الأمريكى، فالفكر الإستراتيجى لا يخترع ، لأنه محكوم بالجغرافيا والتاريخ وغيرهما من الثوابت وإنما هو يعيد الصياغة مع تغير العصور .

● وكانت القوة الثانية ـ الداخلة إلى الساحة ـ هى الحركة الصهيونية العالمية ، وقد تملكها الشعور بأن تحقيق الحلم قريب ، وإنه إذا فاتت الفرصة الآن فقد لا تعود فى زمن قريب ومرئى .

وكانت الحركة الصهيونية قد شدت كل إمكانياتها على الآخر ، سواء فى مكامن التأثير السياسى فى أوروبا وأمريكا ، أو على أرض فلسطين ذاتها بما أمكن تحقيقه من واقع على الأرض سواء بحركة الهجرة أو الاستيطان أوبناء القوة المسلحة .

كان تعداد اليهود فى فلسطين يقترب من نصف المليون ، وأدرك قادة الداخل فى الوكالة اليهودية ، وعلى رأسهم "دافيد بن جوريون" ، أن موجات الهجرة الكبيرة التى ينتظرونها من أوروبا لن تتحقق إلا إذا كان الوطن القومى اليهودى فى فلسطين حقيقة تقدر على منافسة إغراءات الهجرة إلى العوالم الجديدة : أمريكا الشمالية وكندا وأستراليا.

وعندما نوقش "بن جوريون" فى مخططاته المتسرعة فى فلسطين ، وقيل له من رجال على مستوى "ناحوم جولدمان" إنه "يدفع الأمور إلى الحافة ، بينما هجرة اليهود إلى فلسطين لم تصل بعد إلى الحجم اللائق لإنشاء دولة" ، كان رده "إن الهجرة لن تصل إلى المستوى اللائق إلا إذا كانت هناك دولة بالفعل" .

● وكانت القوة الثالثة ـ الداخلة إلى الساحة ـ هى قوة مصر ودورها المشرقى الذى لمحه الأدب والفن والفكر قبل أن تراه السياسة ، واكتشفته مدرسة الشرق بين السياسيين المصريين المستقلين قبل أن تكتشفه أحزاب الأغلبية والأقلية ، وتحرك الملك "فاروق" مقتربا منه تحت تأثير بعض ساسة مدرسة الشرق مثل "عزيز المصرى" و"على ماهر" و"عبد الرحمن عزام" وغيرهم ، وأخيرا مارسه حزب الأغلبية ممثلا فى "مصطفى النحاس" الذى قاد معركة التضامن مع سوريا ولبنان ، ووضع إمضاءه فى النهاية على ميثاق جامعة الدول العربية .

كانت المشكلة الحقيقية أن مصر خرجت من غليان الحرب كأنها سفينة تمزق شراعها وتعثرت دفتها وتعطل محركها أثناء عاصفة .

* كان الشراع هو حزب الوفد ، وقد تمزق الشراع بالحق أو بالباطل على مسار بدأ من قبوله الوزارة بعد إنذار ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وحتى ظهور الكتاب الأسود الذى كتبه السكرتير العام للوفد الذى انشق عليه ، وهو "مكرم عبيد" باشا .

* وكانت الدفة هى القصر الملكى ، وقد تعثرت قدرته عندما تآكلت هيبته بسبب ما حدث من تغييرات خلال فترة الحرب على شخصية الملك "فاروق" ، وما أدى به فى النهاية إلى حالة كاملة من الترهل السياسى والأخلاقى والبدنى أيضا .

* وكان المحرك القابع فى بطن السفينة هو سلطة الاحتلال البريطانى ، وهذه أصابها العطب عندما غمرتها موجات الوطنية المطالبة بالاستقلال وجلاء الجيوش البريطانية عن كل بقعة من أرض مصر .

□

ومضت الحوادث تتدافع سنة ١٩٤٥ فى تلاحق مثير .

● جاء "روزفلت" بعد مؤتمر "يالطا" الذى شارك فيه مع "تشرشل" و"ستالين" إلى مصر، ورسا بمدمرة أمريكية (الطراد "كوينسى") فى مياة البحيرات المرة وسط قناة

السويس . وهناك قابل الملك "عبد العزيز آل سعود" (أكبر شيوخ البترول) وتحدث إليه واستمع منه .

وخرج "روزفلت" من الاجتماع وهو يصف الملك "عبد العزيز" بأنه "المتوحش النبيل".

ثم التقى "روزفلت" على ظهر الطراد "كوينسي" بالملك "فاروق" (البلد المدعو إلى دور عربى فاعل) وتحدث إليه واستمع منه أيضا .

وخرج من اجتماعه مع الملك "فاروق" وهو يسميه "المملوك الشرقى المزركش" .

وعاد "روزفلت إلى بلاده بعد كل ما قال وسمع ، ولكن الموت داهمه ، وخلفه نائبه "هارى ترومان" .

● وكان الملك "فاروق" قد ألقى أمام الرئيس الأمريكى الزائر بشحنات ألمه وعذابه من استبداد السفير البريطانى اللورد "كيلرن" به وفرضه للوزارات عليه ، وكان رأى "روزفلت" أن الضغط بالإهانة على "المملوك الشرقى المزركش" لم يبق له سبب بعد أن ابتعدت الحرب . وتم للملك "فاروق" ما طلب ، وانزاح عنه هم وجود اللورد "كيلرن" على رأسه ، فأقال "النحاس" باشا وجاء بالوزارة التى يريدها برئاسة "أحمد ماهر" باشا . ولكنها أسابيع قليلة مضت فإذا "أحمد ماهر" باشا يلقى مصرعه بثلاث رصاصات وجهت إليه فى البهو الفرعونى بمجلس النواب ، وخلفه نائبه "محمود فهمى النقراشى" باشا .

● وكان "أحمد ماهر" باشا قبل اغتياله قد عاش أزمة كبرى حين قام تنظيم "شتيرن" الصهيونى بإرسال اثنين من أفراده قتلا اللورد "موين" الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط . وهكذا بدا أن العمل الصهيونى قد دخل إلى مرحلة العنف وقرر أن يفتح الأبواب بالرصاص وأن يبدأ ، وفى مصر بالذات وهى المركز المؤهل لقيادة الحركة العربية التى بدأت تحلم بآمال كبيرة بعد انتهاء الحرب .

● ثم جرت الانتخابات البريطانية ، وإذا "ونستون تشرشل" القائد الأسطورى لمعركة الحرب العالمية الثانية يفقد رئاسة الوزارة البريطانية ، وإذا نائبه العمالى "كليمنت آتلى" يخلفه . ويبدو أن الناخب البريطانى أدرك بوعيه أن مرحلة كسب الحرب العسكرية قد انتهت ، وأن مرحلة إعادة توزيع الحقوق الاجتماعية بعدها واجبة . وجاءت وزارة حزب العمال ووزير الخارجية فيها "إرنست بيفن" ، وكان فى خياله أن الإمبراطورية كيان تجاوزه الزمن ، وأن بريطانيا مطالبة بعلاقة جديدة من نوع ما مع مستعمراتها القديمة وأولها الهند .

□

ومن نتائج هذه المتغيرات المتلاحقات أنه مع بداية سنة ١٩٤٥ ، اختلفت قواعد اللعبة السياسية فى المنطقة ، كما اختلف اللاعبون ، واختلفت أيضا علاقتهم ببعضهم .

وظهرت مراكز تأثير وعلاقات مستجدة ، لكنها جميعا مشت إلى المسرح مرتبكة تختبر جوانبه وأركانه :

١ ـ الجامعة العربية تقوم . ومصر فى المقدمة منها لكنها غير قادرة بعد على القيادة . وبريطانيا هى التى أعطت الضوء الأخضر لإنشاء الجامعة العربية لكن الولايات المتحدة هى القوة المقبلة التى تتقدم نحو المنطقة طلبا لموارد البترول أو غيرها .

٢ ـ والولايات المتحدة تقبل على عجل لكى تضع خطوط نظام جديد للشرق الأوسط، وهى فى عجلتها تمارس حتى دون أن تقصد ضغوطا على بريطانيا تصل فى بعض الأحيان إلى درجة الإزاحة ، كما حدث مع امتيازات البترول فى السعودية والخليج .

٣ ـ وبريطانيا حائرة إزاء سياسة الإزاحة ترفضها أو تقبل بها مؤقتا بأمل الالتفاف عليها تحت دعاوى من نوع "وحدة الأمم الناطقة بالإنجليزية" أو "خصوصية العلاقة بين بريطانيا والولايات المتحدة" لكن الولايات المتحدة فى إقبالها المندفع لا تبالى إذا داست على أقدام غيرها ، وهى تعتذر أحيانا إذا سمعت صرخة ألم لكنها تعتذر وهى تجرى.

٤ ـ والمأزق الحقيقى للسياسة الأمريكية هو أن قوتها الداخلة إلى الشرق الأوسط توافقت زمنيا مع اللحظة التى وصلت فيها القوة الصهيونية إلى مواقع القرار الأمريكى وعند قمته . أى أن الولايات المتحدة وصلت إلى المنطقة ومعها فى نفس الوقت تأثير النفوذ اليهودى الظاهر فيها .

وهكذا نشأ وضع خطير كانت فيه المصالح الأمريكية عند العرب ، وبرغم ذلك كان القرار الأمريكى مكشوفا أمام الضغط المعادى للعرب .

٥ ـ وكانت فرنسا أشبه ما تكون بشبح غاضب فقد أرضه المسكونة فى المشرق العربى وراح ينفث شررا ولهبا ، وفى نفس الوقت يقوم بتحصين مكامن يريد أن يسكنها إلى الأبد فى المغرب العربى ، وبخاصة فى الجزائر .

٦ ـ وكانت الحركة اليهودية الصهيونية على أرض فلسطين تتحرك فيها وحولها وبعيدا عنها بكل وسائل العنف والخديعة والمداهنة والإفساد ، مستغلة فرصة تاريخية نادرة كان القرار الدولى فيها ملتبسا ، وكان القرار الإقليمى فيها مرتبكا ، وكانت الأرض مهيأة لمن يملك جسارة الفعل وجرأته وليس بلاغة اللفظ وفصاحته .

ومـرة أخـرى تكشـف الوثائق ألـوان المرحلـة وظلالهـا :

• الوثيقـة رقـم ٢٤٥ ـ ١/٠٠ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الخارجية ستيتنيـوس إلى الرئيس روزفلـت

التاريخ : ٤ ينايـر ١٩٤٥

الرئيـس ،

تلقيت معلومات تفيد بأن الصهيونيـين سـوف يطلبـون منـك أن تتبنـى مشـروع لاودر ميلك لتنمية فلسطين . إن المشروع بتفاصيله نشـر أخيرا فى كتاب تحت عنوان "فلسطين أرض المعاد" للدكتور والتر كلاى لاودر ميلك من وزارة الزراعة الأمريكية ، وهو يقترح إنشاء مشروع لوادى الأردن على نمـط مشـروع وادى التنيسـى ، وهـدف المشروع أن يجعل فلسطين قادرة على استيعاب أربعـة ملايـين مهاجـر يهـودى .

. . . .

. . . .

ظننـت أنه قد يهمـك أن تعـرف ذلـك مبكـرا .

إمضـاء

إدوارد ستيتنيوس

• وثيقـة رقـم ٥٤٥ ـ ١/٠٠ ب ٨٩٠

برقية من الوزير المفوض فى السعودية (ويليام إيـدى) إلى وزير الخارجية .

جـدة : ٥ ينايـر ١٩٤٥

أخبرنى عبد الرحمن عـزام باشا (وزيـر الدولـة للشئون العربيـة فـى مصـر وقتها ، وقد أصبح فيما بعد أول أمـين عام للجامعة العربية) أنه عندما جـاء بمسـودة مشروع بروتوكول إنشاء جامعة الدول العربيـة لكـى يوقعـه الملـك عبـد العزيـز فـإن الملـك أثـار معه مسألتـين :

١ ـ ضرورة إنشاء تحالف عسكرى بين الدول العربية يحميها بالسلاح إذا دعا الحال .

٢ ـ ضرورة الحصول على تعهدات من الولايات المتحدة الأمريكية بالدفاع عن العرب الفلسطينيين ضد الصهيونية ، وبالسلاح إذا اقتضت الضرورة .

قال الملك عبد العزيز أيضا لعزام إنه سوف يشرفه أن يموت فى ميدان القتال كشهيد لحق فلسطين العربية .

أرجو ملاحظة أن إذاعات المحور تبالغ فى التأييد الأمريكى للمطالب الصهيونية فى فلسطين وأنا أوصى بضرورة الحذر فى اتخاذ أى خطوات مؤيدة للصهيونية بواسطة الحكومة الأمريكية . وسوف يكون من سوء الحظ أن يحدث شىء من هذا النوع . سأبعث بتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع بالبريد .

إمضاء

ويليام إيدى

● وثيقة رقم ٣٠٤٥ ـ ١/١/٠ ن ٨٦٧

مذكرة عن حديث بين الوزير المفوض المصرى ومساعد وزير الخارجية جوزيف كرو .

التاريخ : ٣٠ يناير ١٩٤٥

جاء الوزير المفوض المصرى محمود حسن باشا بعد ظهر اليوم لمقابلتى بناء على طلبه. إن الوزير المفوض المصرى بدأ فقال إنه ليس قادما هذه المرة لبحث أى موضوع مما يخص العلاقات بين بلدينا ، ولكنه قادم ليتحدث فى موضوع فلسطين وهى فى رأيه واحدة من بؤر الخطر الكبيرة فى العالم . وهو يخشى أنها فى المستقبل سوف تثير فى هذه المنطقة حربا على نطاق واسع . وهو يعتقد أن فلسطين يجب أن تبقى بلدا عربيا إسلاميا ـ مسيحيا ، وأن تكون فيه لليهود حقوق طبيعية لا تؤثر على مستقبله السياسى . وهو يرى أن الوقت قد حان لوضع مسألة فلسطين للتفاوض ، ويعتقد أنه عن هذا الطريق يمكن تحقيق الكثير . وأضاف محمود حسن باشا أن مصر بلد صغير ، وهى تعتمد بالدرجة الأولى على تعاطف الولايات المتحدة الأمريكية وعلى تأييدها المعنوى . كما أن المصريين يعلمون أن الولايات المتحدة دولة غير طامعة وليست لديها الرغبة فى السيطرة على مناطق أخرى .

إمضاء

جوزيف كرو

• وثيقة رقم ١٤٥ ـ ١/٢ ن ٨٦٧

مذكرة من الوزير المفوض فى السعودية (ويليام إيدى) إلى وزير الخارجية .

(جرى تحويلها إلى الوزير فى يالطا حيث كان يحضر مؤتمر القمة)

التاريخ : ١ فبراير ١٩٤٥

أدلى الملك عبد العزيز بتصريح مذهل أمس أثناء استقباله للضباط الأمريكيين الملحقين بالمفوضية . ويمكن اعتبار تصريحه فى الواقع إعلانا لسياسة جريئة فى قيادة الشئون العربية تتناقض مع تقرير وصلنا من البريطانيين عن أن الملك بدأ يتردد فى تأييد عرب فلسطين .

إن تصريح الملك كان على النحو التالى :

" إن الأمة العربية تواجه تهديدين :

أولهما ـ الضغط الفرنسى على سوريا .

والثانى ـ الضغط اليهودى على فلسطين .

ونحن كنا نأمل أن يحترم الحلفاء اعترافهم باستقلال سوريا . وإذا لم يقم الحلفاء بإعادة العقل إلى التصرفات الفرنسية لكى يتركوا السوريين ينعمون بحقوقهم وحريتهم التى حاربتم من أجلها لصالح كل الشعوب فإن العرب سوف يقومون بحماية سوريا بأ نفسهم .

وأما فيما يتعلق بفلسطين ، فإن أمريكا وبريطانيا أمامهما حرية الاختيار بين عالم عربى هادئ ومسالم أو دولة يهودية غارقة فى الدم .

إننا نطلب من أمريكا تسوية لمشكلة فلسطين على أساس تقاليد العدل الأمريكى . وإذا اختارت أمريكا أن تمالئ اليهود الملعونين فى القرآن إلى آخر الدنيا ، فإن أمريكا تكون بذلك خسرت صداقتها معنا وسوف تندم على ذلك . إن الاختيار على أى حال لأمريكا ، ونحن قلنا رأينا ، ونرغب منكم أن تنقلوه إلى حكومتكم ."

إمضاء

ويليام إيدى

• وثيقة رقم ١٤٥ -٠١/٢ ن ٨٦٧ (وهى ملحقة بالوثيقة السابقة وتحمل نفس رقمها لاتصال الموضوع والموعد) .

مذكرة من مساعد وزير الخارجية جوزيف كرو إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ١ فبراير ١٩٤٥

جاء لمقابلتى كل من الدكتور ستيفن وايز (رئيس المجلس الصهيونى العالمى) والدكتور ناحوم جولدمان والمستر هرمان شولمان والدكتور حاييم جرينبرج . إن الحاخام وايز فتح المناقشة على الفور بقوله "إن أبواب فلسطين يجب أن تفتح أمام اليهود" . وهو وزملاؤه يعرفون أن الرئيس روزفلت أخذ مذكرتهم التى قدموها له قبل سفره إلى يالطا (لحضور مؤتمر القمة الشهير مع تشرشل وستالين) وهم يطلبون تذكير الرئيس بوعوده لهم .

إنهم واثقون أن تشرشل متعاطف معهم ، ويأملون أن يقف الرئيس روزفلت بحزم إذا ما أظهر ستالين مشاعر معادية لليهود .

. . . .

. . . .

إمضاء

جوزيف كرو

• وثيقة رقم ٢٢٤٥ - ٠٠١/٢ ف ٨٩٠

مذكرة من الوزير المفوض فى السعودية (ويليام إيدى) إلى وزير الخارجية .

جدة : ٢٢ فبراير ١٩٤٥

سيدى ،

لى الشرف أن أحيلكم إلى برقية المفوضية رقم ٨٩ بتاريخ ٢١ فبراير وأن أقدم لكم تفاصيل ما سمعت من الملك عبد العزيز عن لقائه مع المستر تشرشل .

إن الملك دعانى أمس لكى أعود إليه بعد الغداء للقاء لا يحضره إلا هو وأنا . بل إنه لا يريد أن يكون حارسه الخاص موجودا . إن الملك قال لى إنه يريد أن تعرف حكومتى تفاصيل ما جرى بينه وبين المستر تشرشل (عندما التقى الاثنان فى الفيوم فى مصر بعد اجتماع الملك مع الرئيس روزفلت فى البحيرات المرّة) . وكانت رواية الملك للقاء كما يلى وبالحرف تقريبا :

"إن تشرشل بدأ يتحدث معى مظهرا ثقته الكبيرة فى نفسه ، وبدا وكأنه يلوّح لى بعصا غليظة قائلا لى "إن إنجلترا أيدتنى وساعدتنى ماليا عشرين سنة ، كما أنها ساعدت على استقرار ملكى وأوقفت كل الطامعين فيه . وبما أن بريطانيا ساعدتنى فى الأيام الصعبة فإنها الآن تطلب منى أن أساعدها فى موضوع فلسطين ، وترى أنه يجب أن أثبت قدرتى كزعيم عربى قوى وأمنع عناصر التهييج العربى من الإثارة ضد الخطط الصهيونية فى فلسطين . وقال تشرشل لى (للملك) إن علىّ أن أقود المعتدلين من العرب إلى حل وسط مع الصهيونية ، وهو يتوقع منى أن أساعد على تهيئة الرأى العام العربى لقبول تنازلات لليهود .

جاوبت تشرشل وقلت له إننى لم أنكر إطلاقا صداقتى لبريطانيا وعرفانى لها. وكصديق فإنى قدمت ما أستطيع عندما كان الحلفاء يحاربون عدوهم . وقلت له إن ما يقترحه علىّ ليس مساعدة لإنجلترا أو للحلفاء ، ولكنه بالنسبة لى عمل من أعمال الخيانة لرسول الله ولكل المسلمين المؤمنين . ولو أنى أقدمت عليه لأضعت شرفى ودمرت روحى . وأنا لا أوافق على تنازل للصهيونيين فضلا عن أن أقنع غيرى . وحتى إذا قبلت أن أفعل ذلك ، فلن يكون ما أفعله مساعدة لبريطانيا ، وإنما سوف يكون عبئا عليها لأن تأييد المطامع الصهيونية من جانب أى جهة سوف يؤدى إلى إراقة الدماء ، وسوف ينشر الفوضى فى العالم العربى . وهذا لن يكون فى صالح بريطانيا .

وقال لى الملك إنه عند هذه النقطة بدا له أن تشرشل أنزل عصاه الغليظة من الهواء ، فانتهز هو الفرصة بدوره ورجاه فى تأكيدات يعطيها له بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ورفض تشرشل أن يعد بشىء .

إمضاء

ويليام أيدى

● وثيقة رقم ٥٤٥ ـ ٣/٠١ ن ٨٦٧

مذكرة من الكولونيل هارولد هوسكنز (الملحق بالمفوضية الأمريكية بالقاهرة والمشرف على تنسيق العلاقة بين المفوضية الأمريكية فى سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق وإيران واثيوبيا ـ وهو ما يظهر أن مهمته فى الشرق الأوسط كانت فى واقع الأمر مهمة مخابرات) ـ إلى المستر بول إيلنج مدير شئون الشرق الأدنى وأفريقيا .

التاريخ : ٥ مارس ١٩٤٥

عزيزى بول

إنك طلبت إلى حين التقينا أن أبعث اليك بملخص لما دار أثناء غدائى مع الرئيس روزفلت يوم السبت الماضى .

إن الغداء كان خاصا إلى أبعد حد ، ولم يكن هناك غير الرئيس والمسز روزفلت (إليانور روزفلت زوجة الرئيس) والمسز بوتيجر ، وهذا ملخص ما جرى فيه فيما يتعلق بفلسطين . إننى سألت الرئيس عما إذا كانت مشكلة فلسطين قد نوقشت فى يالطا ، ورد (الرئيس روزفلت) بقوله "ليس تماما" . ثم قال الرئيس "إن المستر تشرشل شديد الاقتناع بالصهيونية كما هى عادته دائما ، وقد جاء هذه المرة يطلب إعطاء اليهود ليس فلسطين فقط وإنما ليبيا أيضا" . وقال الرئيس إنه أشار إلى كلام تشرشل أثناء حديثه مع ابن سعود الذى اعترض بعنف قائلا إن هذا ظلم للمسلمين فى شمال أفريقيا .

إن السيدة إليانور روزفلت تدخلت فى الحديث عند هذه النقطة مشيرة إلى العمل الجيد الذى قام به الصهيونيون فى أجزاء من فلسطين ، وقد وافقتها على ذلك . وقال الرئيس إن ذلك قد يكون صحيحا فى المنطقة الساحلية من فلسطين ، ولكنه عندما طار فوق هذا البلد عائدا إلى الولايات المتحدة (بعد انتهاء رحلته فى يالطا ، وبعد انتهاء اجتماعه مع الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق) ، لاحظ أن فلسطين الداخل تبدو جرداء وصخرية . وردت مسز روزفلت بقولها "إن الحركة الصهيونية تشعر أنها قادرة على كل شىء بما فى ذلك مواجهة العرب فى قتال مسلح فى فلسطين" .

إن الرئيس روزفلت وافق زوجته على أن ذلك احتمال وارد ، لكنه ذكرها أن هناك ما بين ١٥ ـ ٢٠ مليون عربى يحيطون بفلسطين . وفى المدى البعيد فإنه يظن أن العدد سوف تكون له الغلبة . ومن جانبى ذكرت الرئيس بأن الحركة الصهيونية هاجمتنى شخصيا بسبب تقرير قدمته له سنة ١٩٤٣ قلت فيه إن

الصهيونية لا تستطيع أن تقيم دولتها فى فلسطين وتحافظ عليها إلا من خلال القوة.
وقد سألت الرئيس عما إذا كان موافقا على ما استخلصته، ورد علىّ بقوله "تماما".

وسألت الرئيس عن رأى ستالين فى اليهود ، وقال لى إن ستالين قال له إنه ليس صديقا للصهيونية ولا عدوا لها . وعقب الرئيس (روزفلت) على ذلك بقوله "إن ستالين لم يكن ذلك العدو المخيف لليهود والذى حاول البعض تصويره لنا هنا" .

إمضاء

هارولد هوسكنز

• وثيقة رقم ١٠٤٥ - ٠١/٣ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض من بغداد (لوى هندرسون) إلى وزير الخارجية .

بغداد : ١٠ مارس ١٩٤٥

استدعانى الأمير عبد الله الوصى على العرش (فى العراق) وسلمنى مظروفا مقفولا يحوى رسالة منه إلى الرئيس . وقد أعطانى ترجمة غير رسمية للرسالة .

إن الوصى على العرش راح يحدثنى عن خطر الصهيونية ، وانتهى إلى خلاصة قال فيها : "إن العرب يعتقدون أن اليهود يريدون فلسطين كخطوة أولى لتحقيق سيطرتهم على العالم العربى اقتصاديا وكذلك سياسيا . ومطلبهم فى المستقبل هو السيطرة على كل البلاد العربية المجاورة . وبالطبع فإن العرب من حقهم مقاومة هذه الخطط . إن العرب (فى رأى الوصى على العرش) لا يستطيعون تحقيق وحدتهم المبتغاة من غير أن تكون فلسطين جزءا منها . إن موقع فلسطين الجغرافى يمكن أن يعرقل وحدة العرب إذا ما وقعت فلسطين فى أيد غير عربية . والعرب الذين يعتقدون بأهمية وحدتهم لن يقبلوا سلخ فلسطين عن دورها فى الوصل الجغرافى بينهم ، كما أنهم لن يقبلوا وقوعها فى أيد معادية لهم ."

ثم قال لى الوصى على العرش "إن العرب فرادى وجماعة يعتبرون أن مستقبل فلسطين قضية حياة أو موت" .

إن ما سبق هو مضمون خطاب الوصى على العرش إلى الرئيس روزفلت ، وسوف أرسل الخطاب نفسه إليكم بالحقيبة الدبلوماسية بأسرع ما يمكن .

إمضاء

لوى هندرسون

□

وفى يوم ١٧ مارس ١٩٤٥ نشرت جريدة "النيويورك تيمس" الخبر التالى :

"اجتمع الحاخام وايز أمس مع الرئيس روزفلت فى البيت الأبيض ، وقد خرج بعد المقابلة التى استمرت خمسين دقيقة ليدلى ببيان جاء فيه : إن رئيس الولايات المتحدة خولنى أن أنقل عنه التصريح التالى وعلى لسانه :

"إننى أوضحت لكم موقفى فيما يتعلق بالصهيونية فى لقاءات سابقة ، ولم يتغير موقفى اليوم عما كان عليه ، وسوف أظل أعمل من أجل هذا الهدف الصهيونى وتحقيقه فى أسرع وقت ممكن" ."

(كان نص البيان السابق المعلن على لسان الرئيس "روزفلت" كما يلى :

"إن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقا على الكتاب الأبيض الصادر فى لندن سنة ١٩٣٩ والذى حدد هجرة اليهود إلى فلسطين . إن الرئيس روزفلت يعلن عن سعادته لأن أبواب فلسطين سوف تفتح الآن أمام اللاجئين اليهود . وعندما يجئ الوقت لتقرير شئون منطقة الشرق الأوسط فإن الحقوق العادلة سوف تتأكد لكل هؤلاء الذين يطالبون بوطن قومى لليهود فى فلسطين . إن ذلك هدف تنظر إليه الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى بعطف عميق. والآن أكثر من أى وقت مضى فإن مأساة مئات ألوف من اليهود لا بد أن تلفت نظر الجميع وأن توجههم إلى العدل والخير".)

وأحدث هذا التأكيد الجديد للأهداف الصهيونية صدى واسعا فى العالم العربى . وتوالت احتجاجات العواصم العربية على البيت الأبيض . ولكن الضجة لم تأخذ مداها ولم تحدث آثارها لأن الرئيس "روزفلت" توفى فجأة .

٢

تـرومــــــــــــان

" انتظـر إلى ما بعـد موسـم الحـج ... "

(نصيحـة مـن وزيـر الخارجيـة البريطانى إلى وزيـر الخارجية الأمريكـى)

وأصبح نائـب الرئيـس "هـارى ترومان" ، رئيسـا للولايات المتحدة ، وكانت تلك صفحة جديدة تفتـح ، لكن الصفحة الجديدة كانت مهيـأة لبقـع من الحـبر ، وليس لمجـرد حـروف وكلمات . وتتحـدث الوثائـق عن "هـارى ترومـان" :

● وثيقـة رقـم ١٣٤٥ ـ ٤ /٠١ ن ٨٦٧

مذكرة من وزيـر الخارجية (ستيتنيـوس) إلى الرئيس ترومـان .

التاريخ : ١٨ ابريـل ١٩٤٥

عزيـزى الرئيـس ،

إن هناك احتمالا قويـا بأن بعض القـادة الصهيونيـين سـوف يحـاولون الحصـول منك على التزام مؤيد لبرنامج الحركـة فى فلسطـين . وبالطبع فأنت تدرك أن حكومة الولايات المتحدة وشعبها لديهما تعاطف شديد إزاء المحنـة التى تعـرض لها اليهود فى أوروبا ، كما أن كليهما لديه الرغبـة فى عمـل أى شـىء للتخفيف مـن آثـار هـذه المحنـة . لكن مشكلة فلسطـين فـى واقـع الأمـر شديدة التعقيد ، وهـى تمتـد إلى مسائل تتخطـى ما وقـع لليهود فى أوروبـا . وإذا مـا جـرت محاولـة مـن هـذا النـوع معـك ، فإنى آمـل أن يكون ردك هو أنك سوف تبحـث وتـدرس وتطلـب أوراقـا مـن المختصـين ، مما يعطيك وقتا لتقدير موقفك .

المخلص

إدوارد ستيتنيوس

• وثيقة رقم ٢٠٤٥ - ٠١/٦ ن ٨٦٧

مذكرة من إيفان ويلسون رئيس إدارة شئون الشرق الأدنى إلى وزير الخارجية عن مقابلته مع الدكتور ناحوم جولدمان رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيونى العالمى . وقد حضرها المستر هندرسون من إدارة الشرق الأدنى ، وكذلك المستر ميريام والمستر ويلسون من نفس الإدارة .

التاريخ : ٢٠ يونيو ١٩٤٥

إن الدكتور جولدمان جاء إلى هذه الإدارة ليقدم تحيته إلى المستر هندرسون . وينتهز الفرصة ليحيط الإدارة علما بالموقف الخطير الذى يواجه قيادة الحركة الصهيونية نتيجة لتردد الحكومة البريطانية والحكومة الأمريكية فى إعلان نواياهما بشأن فلسطين . وقد قال إنه لمدة خمس سنوات أو أكثر فإن قادة صهيونيين مثل الدكتور وايزمان والحاخام وايز ، وهو نفسه ، ينصحون شعبهم باتباع سياسة معتدلة تجاه مطالبهم فى فلسطين .

والآن ، فإن المجتمع اليهودى فى فلسطين تسوده روح من العزم والتصميم والاستعداد لاتخاذ إجراءات عملية على الأرض لتحقيق الهدف الصهيونى . ولدى المجتمع اليهودى فى فلسطين الآن ستون ألف جندى مسلح ومدرب ، وهم على استعداد للقتال دفاعا عن حقوقهم . وهم وقياداتهم يتهمون زعماء الحركة الصهيونية بالتفريط والاستسلام . وهو نفسه (أى الدكتور جولدمان) سمع من يصفه عندما كان فى فلسطين بأنه خائن . ويخشى الدكتور جولدمان أنه ما لم يحدث تحرك سريع فإن المعتدلين فى قيادة الحركة الصهيونية بمن فيهم حاييم وايزمان نفسه سوف يطاح بهم ويطردون من مواقعهم .

. . . .

. . . .

إمضاء

إيفان ويلسون

• وثيقة رقم ٢٧٤٥ ـ ٠١/٦ ن ٨٦٧

مذكرة عن مقابلة أجراها إيفان ويلسون من إدارة الشرق الأدنى مع عدد من القيادات الصهيونية .

التاريخ : ٢٧ يونيو ١٩٤٥

إن الدكتور جولدمان عاد إلينا بعد أسبوع من مقابلتنا السابقة ومعه المستر دافيد بن جوريون رئيس الوكالة اليهودية فى فلسطين وبصحبته المستر إليعازر كابلان من الوكالة اليهودية . وقد جاءوا جميعا لمناقشة مسألة فلسطين معنا . وكان المستر دافيد بن جوريون عنيفا ، وقال إن الحكومات الغربية تؤخر الحقوق المشروعة للشعب اليهودى استرضاء لبعض الباشوات المصريين فى القاهرة ، ولبعض شيوخ البدو فى الصحارى العربية . وطلب بن جوريون أن ننقل للحكومة البريطانية أن الحركة الصهيونية لا تريد مشاكل معها ، ولكن الأفضل ألا تؤخر تسهيل حصولهم على حقوقهم فى فلسطين .

إمضاء

إيفان ويلسون

□

وفى شهر أغسطس ١٩٤٥ كانت الحركة الصهيونية فى أمريكا قد وصلت مباشرة إلى الرئيس "ترومان" بواسطة "إيلى جاكوبسن" ، صديقه الحميم وشريكه السابق فى محل خردوات فى "مينسوتا" قبل أن ينتخب "ترومان" عضوا فى الكونجرس ويختاره "روزفلت" نائبا له . وتحت هذا التأثير أصدر "ترومان" أمرا من فوق رأس كل الوزارات والإدارات فى حكومة الولايات المتحدة يعلن فيه أنه "قرر السماح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين" . وبعث إليه الملك "عبد العزيز آل سعود" رسالة يستغرب فيها هذا القرار المناقض لتعهد حصل عليه من سلفه "روزفلت" مقتضاه أن شيئا ما لن يتقرر فى فلسطين قبل الاتصال بالعرب كطرف معنى مباشرة بالأزمة . ورد الرئيس "ترومان" رسميا بأنه لا يعرف شيئا عن وجود مثل هذا التعهد .

وبعث الملك "عبد العزيز" برد على الرئيس "ترومان" جاء كما يلى :

• وثيقة رقم ٣٤٥ ـ ٠١/١٠ ن ٨٦٧

رسالة من الملك عبد العزيز بن سعود إلى الرئيس هارى ترومان .

التاريخ : ٢٥ شوال ١٣٦٤ الموافق ٢ أكتوبر ١٩٤٥

من الوزير المفوض بجدة ـ استدعانى الأمير فيصل وزير الخارجية وسلمنى رسالة موجهة من والده الملك إلى رئيس الولايات المتحدة . وطلب سرعة إرسالها إلى الرئيس . وفيما يلى نص رسالة الملك :

"يا صاحب الفخامة ،

أخطرونى أنه طبقا لما أذاعته محطات أجنبية أن تصريحا منسوبا لفخامتكم أذيع يوم ١٦ أغسطس ١٩٤٥ . وطلبت من وزارة الخارجية فى المملكة أن تتصل بالمفوضية الأمريكية لتحصل على نسخة من حديثكم ، وذلك طمأننا بعض الشىء ، لكننا بعد ذلك علمنا بتصريح نسب إليكم فى الجرائد قلتم فيه إنكم بحثتم فى أوراقكم ولم تعثروا على تعهد قدمه لنا سلفكم الراحل وصديقنا العزيز الرئيس روزفلت .

إن المرحوم الرئيس روزفلت أعطانا التعهد المشار إليه فى حديث معنا يوم ١٤ فبراير ١٩٤٥ ، كما أنه أكده بعد ذلك بخطاب مرسل يوم ٥ أبريل ١٩٤٥ .

يا صاحب الفخامة ،

نحن نظن أن التصريح المنسوب إليكم قد أسىء نقله . ولكننا نأمل موافاتنا بالحقيقة أو تأذنون بالبحث عن الخطاب المشار إليه ونشره . إن بلدكم دخل الحرب دفاعا عن الحق والعدل ، ولا نتصور بعد النصر أنكم تؤيدون طرد شعب من بلده لكى يحل محله أقوام آخرون تحت حماية القوى المسلحة .

إمضاء

عبد العزيز "

□

ويوم ٢ نوفمبر ذكرى وعد بلفور كانت التظاهرات تعم القاهرة والإسكندرية احتجاجا على تصرفات الحكومة الأمريكية . ووصف القائم بالأعمال الأمريكي في مصر حوادث هذا اليوم في برقية إلى وزير الخارجية :

• وثيقة رقم ٣٤٥ - ٠٠/١١ ٨٨٣

برقية من القائم بالأعمال في مصر (ليون) إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٣ نوفمبر ١٩٤٥

تواصلت التظاهرات في شوارع القاهرة والإسكندرية اليوم أيضا ، وهوجمت بعض المحلات في شوارع وسط المدينة ، وقذفت بعض المحلات التي يملكها أجانب بالحجارة . وقد قام رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا (الذي تولى الوزارة بعد اغتيال أحمد ماهر باشا) بزيارة مواقع الدمار ، ولكنه يظهر أن الحكومة فقدت سلطتها في مواجهة الرعاع . وقال لي الوزير المفوض الإنجليزي ريجينالد بوكر إن السفارة البريطانية تلقت احتجاجات ، كما تلقت مطالبات من عدد من أصحاب المحلات البريطانيين الذين كانت خسائرهم كبيرة ، وقد صدرت له تعليمات بأن يتوجه لمقابلة النقراشي اليوم ويطلب منه إظهار الحزم في التصدي للتظاهرات .

إننا سمعنا أيضا أن هناك اتصالات من جهات رسمية ببعض نقابات العمال تطلب منها الخروج للتظاهر بقصد إظهار تأييد مصر للقضايا العربية .

وقد واصل طلبة الأزهر وجامعة القاهرة إضرابهم اليوم . وتلقينا في المفوضية ١٢٠ تلغرافا تحتج على سياسة الرئيس ترومان .

إمضاء

ليون

• وثيقة رقم ٣٤٥ ـ ١١/٠٠ ٨٨٣ (وهى ملحقة بالوثيقة السابقة وتحمل نفس رقمها لاتصال الموضوع والموعد) .

برقية من القنصل العام فى الإسكندرية (دوليتل) إلى وزير الخارجية

الإسكندرية : ٣ نوفمبر ١٩٤٥

كان مفروضا أن يكون الإضراب الذى دعى إليه أمس ضد وعد بلفور تظاهرة سلمية ، لكنه تحوّل إلى عملية شغب واسعة . فقد اندفعت عصابات من الغوغاء تحمل الحجارة والعصى وقامت باعتداءاتها على كل المنطقة المحيطة بمبنى القنصلية . وقد قتل عشرة أشخاص وجرح ثلاثمائة عندما اضطر البوليس للتدخل وإطلاق النار . وسمعت أن المتظاهرين كان يجرى توجيههم بواسطة مصريين يلبسون ملابس نظيفة ويبدو عليهم أنهم من أنصار حزب الوفد . ولم يستطع البوليس أن يسيطر على الموقف إلا فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وعندما كان الدمار قد أصاب بغير تمييز أعدادا كبيرة من المحلات اليهودية واليونانية والأرمنية وغيرهم من الأوروبيين . ولحقت أضرار بمبنى التشهيلات الأمريكى فى ميناء الإسكندرية. كذلك حدث اعتداء على قافلة من أربع لوريات عسكرية أمريكية وجرح اثنان من الجنود . كما تم تحطيم عيادة الدكتور كيرتس وهو يحمل جواز سفر أمريكيا . كذلك تحطمت نوافذ مبنى نادى البحارة الأمريكيين . لا نزال نتابع الحالة .

....

....

إمضاء

دوليتل

□

• وثيقة رقم ٥٤٥ ـ ١١/٠١ ن ٨٦٧

مذكرة من السفير البريطانى فى واشنطن (اللورد هاليفاكس) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ٥ نوفمبر ١٩٤٥

تلقيت من المستر بيفن (وزير الخارجية البريطانى) اقتراحا كلفنى بعرضه عليكم ، وهو تهدئة التصريحات التى يبدو فيها التأييد لقيام دولة يهودية فى فلسطين ، ولفتح أبوابها لهجرة اليهود . فهو يرى أن موسم الحج إلى مكة يحل هذا الشهر ، وسيبلغ ذروته يوم ١٤ نوفمبر ، وليس من الضرورى أن نعطى لهذا المحفل الإسلامى الحاشد فرصة للتهييج ضدنا إذا ما صدرت تصريحات يعتبرها العالم العربى معادية لهم . وأنتم تعرفون أن هناك تظاهرات عنيفة وسيئة قامت فى مصر أخيرا . كذلك قامت تظاهرات أشد عنفا فى كل مدن الشام . وهذا يشير إلى أن هناك تصلبا فى الرأى العام العربى .

إمضاء

هاليفاكس

- وثيقة رقم ٦٤٥ - ٠١/١١ ن ٨٦٧

مذكرة من السفارة البريطانية فى واشنطن إلى وزارة الخارجية .

واشنطن : ٦ نوفمبر ١٩٤٥

يريد وزير الخارجية بيفن أن يلفت نظركم إلى تصاعد أعمال العنف المنظم التى تقوم بها القوات الصهيونية فى فلسطين ، الأمر الذى يضع السلطات المدنية والعسكرية فى هذا البلد تحت ضغوط شديدة . ومن الواضح أن الحركة الصهيونية تريد أن تدفع الأمور بأسرع مما هو لازم . وقد جاء كل من الدكتور وايزمان ومعه المستر شرتوك (شاريت) لمقابلة وزير الخارجية بيفن الذى لفت نظرهما بحزم إلى خطورة لوى ذراع السلطات البريطانية . وقد سألهما صراحة عما إذا كانت نيتهم هى حسم الموضوع بالقوة المسلحة ، لأن هذا هو ما تعنيه التصرفات الأخيرة . فالهجمات على المناطق العربية وحتى على القوات البريطانية تبدو منظمة ومخططة وتقوم بها قوات تعرف مهامها جيدا . وقد قال لهما المستر بيفن من نص مكتوب " ليس هناك من يدرك أكثر منى طبيعة الظروف والمناخ الفكرى الذى تواجهونه ، ومع ذلك فأنا لا أوافق على دفع الأمور بالقوة لأن ذلك سوف يؤدى إلى تعقيدات أنتم فى غنى عنها" .

إن وزير الخارجية يبعث إليكم رفق هذا بيانا عن حجم القوات الصهيونية المسلحة فى فلسطين الآن ، وملخصه على النحو التالى :

١ ـ قوات الهاجاناه الخاضعة لتوجيهات الوكالة اليهودية وفيها الآن ما بين ستين ألفا إلى ثمانين ألف جندى مسلح ، بمن فيهم قوات البالماخ أو وحدات الكوماندو وعددها ستة آلاف .

٢ ـ هناك القوات الأكثر تعصبا وهى قوات الإرجون زفاى لويمى ، وحجمها يقدر بما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل .

٣ ـ هناك وحدات جماعات الإرهاب التابعة لشتيرن ، وهى تضم عدة مئات من المتخصصين المدربين على العمليات المثيرة .

. . . .

. . . .



بيفن

" قرأت التوراة جيدا ولم أجد فيها ما يشير إلى ضرورة أن يمتلك اليهود فلسطين"

("إرنست بيفن" لـ"ناحوم جولدمان")

توحى القراءة الأولى للوثائق البريطانية سنة ١٩٤٦ ، بأن الحكومة البريطانية بزعامة "كليمنت آتلى" رئيس الوزراء العمالى ، كانت ترى فى شأن فلسطين رأيا يختلف نوعا ما عما ذهبت إليه حكومة المحافظين بزعامة "ونستون تشرشل" رئيس الوزراء السابق والذى اشتهرت عنه صهيونيته الجامحة .

لكن القراءة الثانية المتأنية لهذه الوثائق تظهر أن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك ، لأن التأثير الصهيونى كان نافذا إلى قاعدة حزب العمال بأكثر من نفاذه فى قمة حزب المحافظين (فيما عدا "ونستون تشرشل" شخصيا) .

وربما بدا أن سياسة "إرنست بيفن" وزير الخارجية العمالى القوى تأخذ منحى مغايرا ، لكنه فى الحقيقة كان طريقا آخر إلى نفس الهدف .

والحاصل أنه كانت أمام "بيفن" عدة اعتبارات تظهر واضحة فى تصرفاته :

١ - وزير الخارجية البريطانى الجديد يريد قبل الحسم فى فلسطين أن يصل إلى تسوية لأوضاع البلدان العربية المحيطة بها ، وهى بالتحديد الأردن ، والعراق ، ومصر ، وكلها بدرجة أو بأخرى تحت النفوذ البريطانى وفق ترتيبات أبرمت قبل الحرب .

- شرق الأردن منذ تنصيب "عبد الله" أميرا عليه سنة ١٩٢٢ ، تحت الحماية .
- والعراق مرتبط بمعاهدة سنة ١٩٣٠ .. وهى علاقة أكثر تقدما بمسافة قصيرة من الحماية .
- ومصر ضيقة الصدر بمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى أصبحت "غير ذات موضوع" ، على حد تعبير أحد وزراء خارجيتها فى ذلك الوقت وهو "أحمد لطفى السيد" باشا .

وكان تقدير "بيفن" أن يبدأ بالأسهل وينتهى بالأصعب فى شأن هذه البلدان الثلاثة قبل البت النهائى فى موضوع الدولة اليهودية فى فلسطين . وفى ظنه أن الدولة اليهودية إذا نشأت قبل تسوية العلاقات مع شرق الأردن ، ومع العراق ، ومع مصر ، فإن المشكلة الفلسطينية سوف تتداخل بما هو أوسع منها ، ومن ثم تجعل المفاوضات المنتظرة مع هذه البلدان الثلاثة مشكلة عويصة بالاتصال والتشابك .

٢ ـ وكان "إرنست بيفن" يريد تفادى خطر آخر رآه قادما ، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية تدخل منطقة الشرق الأوسط بطريق الاقتحام تقريبا ، وهذا يضع الحكومة البريطانية العمالية فى صورة تبدو معها وكأنها مستسلمة لمقادير أمريكية . فإذا حاولت أن تعترض فإن الاعتراض قد يؤثر على العلاقات الخاصة بين البلدين ، وهو أمر لا تتحمله بريطانيا التى خرجت من الحرب طامعة فى مساعدات أمريكية تعوض أعباءها .

وفى ذلك الشأن أيضا فإن "إرنست بيفن" أحس بأن دول المنطقة التى يريد أن يسوى الأمور معها ـ الأردن والعراق ومصر ـ راحت تستند إلى التناقضات البريطانية الأمريكية وتلعب على أوتارها . وإذا لم يتوصل بسرعة إلى ترتيبات جديدة مع هذه الدول ، فإن الاقتحام الأمريكى قد يعطل ، وقد يخلق تعقيدات إضافية لا تتحملها الظروف .

٣ ـ ومن ناحية أخرى فإن "إرنست بيفن" كان يرى نفوذ الحركة الصهيونية الصاعد فى الولايات المتحدة . وهو لا يريد أن يترك الزمام فى يد الولايات المتحدة التى لا يعتقد بخبرتها فى قضايا الشرق الأوسط ، ويخشى أنها تقتحمه مثل "ثور اندفع إلى محل لبيع الزجاج والخزف والصينى ، ومن الأرجح أنه سوف يكسر كل ما فيه" . وكان "بيفن" يخشى من أن إنشاء الدولة الإسرائيلية قد يتم الآن برعاية الولايات المتحدة الأمريكية وليس بريطانيا ، وذلك ما لا يريده . ثم إنه إلى جانب ذلك يخشى أن تحصل الدولة اليهودية على كل فلسطين ، وإذا حدث ذلك فإنه سوف يعطيها وضعا أكبر مما تريده بريطانيا التى كانت مستقرة على التقسيم بحيث تظل فى يدها فرصة إقامة ما تراه من توازنات .

وكان الفكر البريطانى الإستراتيجى منذ أكثر من قرن يقوم على ضرورة إنشاء العازل الحاجز بين مصر وسوريا ، تحقيقا لمطلب الفصل بين ضلعى الزاوية الاستراتيجية جنوب شرق البحر الأبيض . لكن وزير الخارجية البريطانى لا يريد لهذا العازل أن يملك قوة مستقلة غالبة تعتمد على واشنطن ولا تأبه بلندن ، ومن ثم تتمكن من السيطرة على المنطقة ولحسابها ، وليس لحساب السياسة البريطانية فى كل الأحوال .

وقد حاول "بيفن" أن يقنع الحركة الصهيونية كى تتذرع بالصبر ، وتكررت لقاءاته بقياداتها .

ويروى الزعيم الصهيونى "ناحوم جولدمان" فى مذكراته التى صدرت تحت عنوان "المأزق اليهودى" ، أنه فى لقاء مع "بيفن" سنة ١٩٤٦ فوجئ بوزير الخارجية البريطانى يوجه إليه سؤالا صريحا :

"ــ ماذا تريدون بالضبط فى فلسطين ؟

ورد "جولدمان" :

ــ نريد فلسطين نفسها .

وقال "بيفن" :

ــ هل أفهم أنكم تريدون فلسطين كلها ؟

وهز "جولدمان" رأسه إيجابا .

وقال "بيفن" :

ــ هل تريد من الحكومة البريطانية أن تتنازل عن أهم منطقة استراتيجية فى العالم لدولة يهودية فى فلسطين ؟

ورد "جولدمان" طبقا لقوله :

ــ سيدى وزير الخارجية .. ولم لا ؟

وابتسم "بيفن" وقال :

ــ لكن العهد القديم لا يقول ذلك . وقد قرأت التوراة ولم أجد فيها ما يشير إلى حق اليهود فى امتلاك كل فلسطين .

وكان رد "جولدمان" :

ــ وأنا أيضا قرأت التوراة ولم أجد فيها ما يدل على أن الحكومة البريطانية لها الحق فى امتلاك كل فلسطين ."

□

وبدأ "بيفن" سياسته فعلا بترتيبات جديدة مع شرق الأردن . وفى مارس ١٩٤٦ تم توقيع اتفاقية جديدة ـ تحل محل اتفاقية الحماية ـ بين الحكومة البريطانية وبين الأردن .

وبمقتضى الاتفاقية فإن إمارة شرق الأردن أعيدت تسميتها لتصبح المملكة الأردنية الهاشمية ، وأصبح "عبد الله" ملكا عليها وليس مجرد أمير .

وكان القصد المطلوب وقتها تهيئة الملك "عبد الله" لكى يأخذ الجزء العربى من فلسطين التى سوف يجرى تقسيمها بين العرب و اليهود ، وبحيث تنشأ من الاثنين ـ شرق الأردن وغربه إلى خطوط التقسيم ـ دولة عربية تملك إمكانيات الحياة بمساعدة بريطانيا .

وكانت السياسة البريطانية ترى ـ استمرارا لتطبيق سياسة الفصل بين الداخل والساحل فى العالم العربى ـ أن الساحل الفلسطينى سوف يدخل معظمه فى الدولة اليهودية ، وأن الداخل الفلسطينى سوف يستحيل عليه أن يكون كيانا مستقلا ، وبذلك فإن توجيهه إلى عمان وربطه بملكها هما أفضل الترتيبات المطروحة .

ثم إن خلق دولة أردنية شرق النهر وغربه ، ووجود جيش لا بأس به ـ كالفيلق العربى تحت قيادة الجنرال البريطانى "جلوب" باشا أو أى قائد غيره ـ يعطيان بريطانيا فرصة ما فى ضبط التصرفات الإسرائيلية ، وبحيث لا تجمح بها المطالب وتخرج عن طوع الاستراتيجية البريطانية .

كانت تلك خطوة "بيفن" الأولى والسهلة !

□

وجاء الدور على الخطوة الثانية مع العراق .

وكانت الحركة الوطنية العراقية تلح على إعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٠ ، ودخل "بيفن" فى مفاوضات بالفعل مع السيد "صالح جبر" رئيس وزراء العراق ، وتوصل الطرفان إلى خطوط اتفاقية دارت حولها المناقشات بين المعارضة والتأييد .

وكانت الأوضاع العامة فى العراق شديدة القلق ، فهذا البلد العربى عاش تقلصات سياسية عنيفة بدأت بوفاة الملك "فيصل" الأول ، ثم بمأساة مصرع ولى عهده غازى فى حادث سيارة غامض داخل قصر الزهور فى بغداد ، ثم جاء انقلاب عسكرى بقيادة "بكر صدقى" ، ثم جاءت ظروف الحرب وإذا الثورة تندلع فيه تحت زعامة السيد "رشيد عالى الكيلانى" ، وبدت الثورة معادية لبريطانيا وقريبة من ألمانيا ، وتعرض العراق لغزو الجيش البريطانى ، وكانت طليعته هى الفيلق العربى الأردنى بقيادة الجنرال "جلوب" باشا ، ثم فشلت الثورة وعادت الأسرة الهاشمية - فرعها فى العراق - إلى بغداد فى ظروف عاصفة .

كان "نورى السعيد" (باشا) - ذلك الصديق القديم لـ "عزيز المصرى" - قد أصبح رجل الهاشميين القوى فى العراق وكان من أنصار ترتيب مع بريطانيا يحل محل معاهدة سنة ١٩٣٠ ، لكن المعارضة الوطنية العراقية كانت دائما تشك فى نواياه ، وهكذا فإن "بيفن" كان عليه أن يتفاوض مع رجل آخر غير "نورى السعيد" الذى آثر أن يظل بعيدا حتى لا يثير الظنون .

وكانت تلك تجربة قلقة ومعرضة للشكوك !

□

ثم حان أوان الخطوة الثالثة مع مصر لترتيبات جديدة تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

كانت مصر خارجة من الحرب العالمية الثانية فى حالة ثورة ، وكان مطلبها فى الاستقلال وجلاء القوات الأجنبية قاطعا لا لبس فيه .

وفوق ذلك فإن مصر كانت قد عثرت على هويتها العربية ، وتنبهت إلى دورها فى محيط أمتها ، وكان تأثير الشخصيات التى تنتمى إلى مدرسة الشرق قد تنامى ، وأكثر من ذلك فقد كان بين ساستها من لمحوا أن ما يجرى فى فلسطين ، فضلا عن مشكلة إقامة دولة يهودية فيها ، هو فى جزء منه رغبة تسعى إلى عزل مصر وحجزها فى المشرق .

كانت الحركة الوطنية المصرية قد جمعت قوى كثيرة من كل الأحزاب والجماعات والاتجاهات فى شبه جبهة وطنية عريضة تمكنت من تحريك كل قوى الشعب المصرى فى مطلبين :

الاستقلال الوطنى ـ بوحدة مع السودان تحت التاج المصرى .

ثم قضية فلسطين ـ جار عربى ومعبر إلى الشرق .

وسقطت وزارة "النقراشى" تحت ضغط الحركة الوطنية ، وتألفت وزارة جديدة برئاسة "إسماعيل صدقى" باشا الذى ألف هيئة قومية للتفاوض مع الإنجليز ـ (قاطعها حزب الوفد) ـ ثم راح "صدقى" باشا يتباحث مع "إرنست بيفن" للوصول إلى اتفاقية جديدة تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وانقسمت هيئة المفاوضات وتعددت فيها الاتجاهات ، ومضى "إسماعيل صدقى" (باشا) وحده مصمما على التوصل إلى اتفاق بانت خطوطه تحت عنوان "مشروع معاهدة صدقى ـ بيفن". لكن مسار مشروع المعاهدة واجه عواصف شديدة .

وربما كان من الضرورى ملاحظة أن مطلب الاستقلال تداخل بشكل واضح مع قضية فلسطين ، ولعله من الضرورى ملاحظة أن اغتيال اللورد "موين" وزير الدولة البريطانى أمام بيته فى الزمالك ، ثم مثول قاتليه أمام محاكمة علنية ، أعطيا لمصر فرصة أن تطل من الداخل على فكر وتوجهات الحركة الصهيونية فى فلسطين . والذى حدث هو أن الشابين المتهمين بقتل اللورد "موين" وقفا أمام المحكمة وأسهبا فى شرح "الدوافع الوطنية" التى دفعتهما إلى اغتيال وزير الدولة البريطانى فى القاهرة .

وكانت مصر كلها تتابع وترى وتصغى باهتمام .

□

وتحرك الملك "فاروق" بسرعة يريد أن يضع نفسه فى مقدمة الحركة الوطنية والقومية.

ومع أن بعض الدارسين يرون أن تحرك الملك السريع كان متعلقا بمصالحه أكثر منه إيمانا بأفكار وطنية وقومية ، إلا أن ذلك منطق ينطوى على تعسف شديد .

إن الناقدين للملك يرون أنه تحرك مدفوعا برغبة فى تعويض الخسائر التى لحقت بسمعته وهيبته وشوهت صورته حتى بالمعنى الطبيعى المباشر ، وربما كان بعض ذلك صحيحا ، ولكن سحبه على الإطلاق ودون تدقيق هو موضع التعسف . ذلك أنه يصعب تجريد أى إنسان مهما كانت أحواله من إحساس بالمناخ العام المحيط به ثم التفاعل مع ذلك المناخ . وإذا كان هذا الإنسان هو ملك البلاد فمن الطبيعى أن يكون التزامه إزاء المناخ العام قويا حتى وإن قيل إن ذلك الالتزام أقرب إلى زاوية العلاقات العامة منه إلى زاوية القناعات والمبادئ .

وفى الحالتين ، سواء كان إحساس الملك عميقا أو كان مجرد تظاهر فإن موقفه فى حد ذاته يعكس حقيقة أنه كان أمام هدف يلتقى عليه إجماع شعبه ، أو إجماع أغلبية مؤثرة فيه.

وفى كل الأحوال فإن تبنى الملك "فاروق" لسياسة التوجه شرقا كان له صدى متجاوب مع فترات النهوض فى التاريخ المصرى القديم وعلى امتداده إلى العصر الحديث ، وآخره تجربة جده الأكبر "محمد على" .

□

إن الملك "فاروق" خطا خطوته الأولى بادئا من باريس !

كان الحاج "أمين الحسينى" مفتى فلسطين وقائد ثورة سنة ١٩٣٦ مختبئا فى باريس التى قصد إليها بعد سفرة طويلة ومرهقة . فهو بعد فشل الثورة وصدور أمر بالقبض عليه هرب من فلسطين قاصدا إلى العراق ، ومنها إلى إيران ، ومنها إلى تركيا ، ومنها إلى ايطاليا وألمانيا ، فلما انتهت الحرب بهزيمة آخر بلد لجأ إليه توجه خفية نحو باريس .

وفى باريس وجد الحاج "أمين الحسينى" أن السفارة المصرية فى العاصمة الفرنسية تبحث عنه فى هدوء بواسطة بعض اللاجئين العرب فيها ممن ظن السفير أنهم على اتصال بزملائهم فى المنفى . كان السفير وقتها هو "محمود فخرى" باشا ، وهو زوج الأميرة "فوقية" أخت الملك "فاروق" من أبيه . واستطاع "فخرى" باشا أن يعثر على المفتى ، والتقاه فعلا ليقول له "إن الملك "فاروق" يرحب به فى مصر وهو بلد عربى شقيق لفلسطين ومجاور لها" . وكان الحاج "أمين" ذكيا ، فبعد أن أبدى الترحيب أضاف ملاحظة قال فيها ما مؤداه "إنه وهو يضع دعوة الملك فاروق على رأسه وفى قلبه ، يتمنى ألا يكون من شأن إقامته فى مصر أن يسبب إحراجا لملكها أو لحكومتها" .

والغريب أن عملاء الوكالة اليهودية فى باريس ، وكانوا يبحثون عن مخبأ الحاج "أمين الحسينى" فيها ، رصدوا لقاءه مع "فخرى" باشا ، ورتبوا محاولة لخطفه وكانوا يريدون استجوابه ثم الخلاص منه بعدها . لكن مفتى فلسطين استطاع أن يدبر أموره وأن يصل إلى "مارسيليا" ليستقل منها باخرة حملته إلى الإسكندرية حيث كان فى انتظاره ضابط من الحرس الملكى .

كان الملك يتصرف بعيدا عن حكومته وبدون علم رئيس وزرائه "إسماعيل صدقى" باشا. ومن المفارقات (وطبقا لرواية وكيل الديوان الملكى "حسن يوسف" باشا فى شهادة مسجلة

بصوته) أن رئيس الوزراء عرف من صديقه "رينيه قطاوى" بك وهو من أقطاب الجالية اليهودية وزميل لـ"صدقى" باشا فى اتحاد الصناعات "أن مفتى فلسطين وصل إلى مصر خفية وأن القصر على علم بالموضوع" . وأثار "صدقى" باشا مسألة المفتى مع الملك فى اجتماع بينهما كان يعرض فيه نتائج محادثاته مع اللورد "ستانسجيت" ، الذى رأس الجانب البريطانى فى هذه المحادثات . ويظهر أن الملك فوجئ بما أثاره رئيس وزرائه ، وكان رد فعله هو الإنكار ، لكنه عاد فى نهاية المقابلة وقال لـ "صدقى" باشا "إنه يتمنى لو كان ذلك صحيحا وهو لا يرى بأسا من لجوء المفتى إلى مصر ، وإنه إذا طلب الحاج أمين الحسينى هذا الحق فى مصر فإنه سوف يوافق عليه فورا" .

وكان لـ"صدقى" باشا رأى مختلف عرضه على الملك ومؤداه "أنه من الخير أن نفرغ من قضية المفاوضات مع الإنجليز فى جو هادئ . وإن كل هذا الجو العام السائد فى مصر عن القضايا العربية هو توريط لا لزوم له ومن شأنه أن يضايق "اليهود" وهم أصحاب أقوى نفوذ مالى فى مصر وفى العالم ."

ويظهر أن الملك الذى لم يجد تشجيعا من رئيس وزرائه آثر أن يتكتم على الموضوع وخشى أن يصل "صدقى" باشا إلى الحقيقة بواسطة وزارة الداخلية ، وهو فى ذلك الوقت مسئول عنها إلى جانب رئاسته للوزارة . وهكذا فإن الملك أمر بأن يتوجه المفتى ضيفا عليه فى مزارعه فى "أنشاص" ، وبالفعل ذهب الحاج "أمين" إلى هناك .

□

ثم قام الملك "فاروق" بخطوة ثانية ، فدعا إلى أول مؤتمر قمة عربى فى مزرعته الخاصة فى "أنشاص" ، واستجابت للدعوة كل الدول العربية القادرة على نوع من الحركة فى ذلك الوقت ، وهى السعودية واليمن والعراق وسوريا ولبنان والأردن .

وفى ٢٨ مايو ١٩٤٦ صدر عن الاجتماع بيان يمكن اعتباره بداية عمل عربى مشترك يتصدى لما يجرى فى فلسطين .

كان القرار الأول للمؤتمر "رفض توصيات لجنة بريطانية ـ أمريكية ، أشارت بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود" .

وكان القرار الثانى "إعلان من ملوك العرب ورؤسائهم بأنهم متمسكون باستقلال فلسطين والحفاظ على هويتها العربية" .

وكان قرار الملوك والرؤساء الثالث "تشكيل هيئة وطنيـة تمثـل كـل القـوى الفلسطينية بحيث يتفقون جميعا على منهـج واحـد ينـأى بهـم عـن الخلافـات التـى تستغلها الحركـة الصهيونية وتنفذ من ورائها إلى تحقيق أهدافها" .

كان المغـزى الحقيقـى لمؤتمـر "أنشـاص" أن مصـر بدأت تتجـه نحـو المشـرق . لم يعـد شاغلها هو البحر الأبيـض وما وراءه ، ولم يعد همهـا مجرد إلحاق السودان بهـا تحـت التـاج المصـرى ، وإنما تحول اهتمامها بطريقة واضحـة إلى فلسطـين ، معبرها مـن سـيناء إلى محيـط أوسع ترتبط بـه وهى تستشعر عمـق هذا الارتباط وجذوره التاريخية وآفاقـه المستقبلية .

ثم تعـزز هذا المغـزى حين أنشئت الهيئة العربيـة العليا لفلسـطين تحـت زعامـة مفـتى القدس الحاج "أمين الحسينى" ، واتخذت الهيئـة من القاهـرة مقـرا لها .

□

كان الملك "فاروق" قد أضاف إلى اجتماع "أنشـاص" علـى مسـتوى القمـة العربيـة لمسـة مسرحية ألحقها به فى اللحظة الأخيرة . فقبل أن ينتهى الاجتمـاع ، أخطـر الملـك ضيوفـه بأن الحاج "أمين الحسينى" موجود بنفسه فى "أنشاص" ، وهو يقترح أن يدعوه لـيرحبوا بـه إظهارا لتضامنهم مع الشعب الفلسطينى . ولم يعترض أحـد لأن المفاجأة أخـذت الكل . وفى الواقع فإن أحـدا منهم لم يكن لديه اعتراض ، وحتى الملك "عبد اللـه" ـ الـذى كـان يعتـبر المفـتى عـدوا له ـ لم يبـد اعتراضـا . وبالفعل فإن الحاج "أمـين الحسيـنى" دخـل فصافـح الجميع ، وبـدا أن اللحظـة لـه ، ولفلسطـين .

وفيما بعد فإن الملك "عبد اللـه" قـال[٤] أنه من ساعة أن رأى المفـتى تشـاءم مـن ظهـوره على ساحـة الأحـداث . واستطرد قائـلا :

" هذا الرجـل لم يظهـر فى بلـد إلا وحلـت المصائـب بهذا البلـد" .

تصدى لثـورة فلسطـين وفشلـت الثـورة . وذهـب إلى العـراق فقامت فيه حركـة رشـيد عـالى الكيلانى، وضربها الإنجليز . وخـرج من بغـداد إلى طهـران فإذا شاه إيران رضـا خان يفقـد عرشـه ويخلـع وينفـى إلى جنوب أفريقـيا . وخـرج من إيران إلى إيطـاليا فسقـط موسولينى

---

(٤) حديث للملك مع "محمد حسنين هيكل" جرى فى شهر يونيو ١٩٤٨ .

وقبض عليه وعلقت جثته من الخطاف الحديدى لجزار ، وتوجه إلى برلين فإذا الجيش الألمانى يهزم وهتلر يضطر إلى الانتحار ...

ثم ذهب المفتى إلى مصر . "وسكت الملك ، وقال له محدثه :

" ولكنه جاء إلى مصر ولم يحدث شىء " .

ولم يتردد الملك "عبد الله" وإنما قال على الفور :

" يا بنى .. جاءتها الكوليرا " !

ووقتها كان وباء الكوليرا قد تفشى فعلا فى مصر !

ولم يكن الملك "عبد الله" هو وحده الذى لم يسترح لظهور المفتى فى مصر ، ولكن "صدقى" باشا أحس هو الآخر بالضيق ، لأن الملك "فاروق" أخفى المسألة عنه وفاجأه بها ، وأيضا لأنه كان قد أخطر عددا من أصدقائه اليهود بأن المفتى ليس فى مصر كما قيل لهم.

وكان مما يستوقف النظر أن "صدقى" باشا أصدر بيانا عن رئاسة مجلس الوزراء بشأن مجىء المفتى إلى مصر ، جاء فيه بالنص :

" إذا كانت الحكومة المصرية قد سمحت بإقامة السيد "أمين الحسينى" فى ديارها ، فهى ترجو فى الوقت عينه ألا ينظر (المفتى) إلى هذه المسألة إلا بنفس الروح الكريمة التى انبعث عنها قرارها أداء لواجب المجاملة .

ولا يخفى أن مصر اليوم تجتاز مرحلة من أدق مراحل حياتها السياسية . نرجو لها التوفيق و الفلاح فى ظل الهدوء والنظام ، ولا ريب أن سماحته مقدر لذلك ."

كان البيان الحكومى يعكس مشاعر رئيس الوزراء ، ولا يعكس أفكار الملك .

□

إن الحركة الصهيونية فى فلسطين وفى الوكالة اليهودية تحت قيادة "دافيد بن جوريون" كان لديها ما هو أكثر من حكايات ملك عربى عجوز ، ومأزق رئيس وزراء عراقى وقع معاهدة مع بريطانيا لا يستطيع تمريرها ، أو رئيس وزراء مصرى متوجس من مجىء مفتى فلسطين إلى القاهرة دون علمه . ولعلها كانت تتابع التحولات فى مصر وتستشعر أن دخول مصر إلى ساحة الصراع كفيل بإحداث تغيير فى موازين هذا الصراع .

فمصر بقوتها الذاتية خطر لا يستهان به .

ثم إن مصـر بتأثيرها العربـى يمكن أن تكون العـامل المسـاعد علـى إبـراز إرادة عربيـة موحـدة .

وأخيرا فإنه إذا استقلت مصـر ، ومضت بعد الاسـتقلال إلى مطـالب التنميـة ، فإنهـا تستطيع أن تعطـى للعالم العربـى قاعـدة قـادرة على مواجهـة التحـدى .

وهكـذا فإن ربيـع وصيـف سنـة ١٩٤٦ شهـدا تركيزا يهوديـا وصهيونيـا غير مسبوق فى القاهـرة :

● بعد يومين من اجتماع "أنشاص" طلب الحاخام "حـاييم نـاحوم" أفنـدى مقابلـة مـع الملك "فاروق" ، وليس هناك محضر لهذه المقابلة أو ورقـة مكتوبة عنها ، ولكنه وفقا لشـهادة مسجلـة فإن وكيـل الديوان الملكـى "حسـن يوسـف" باشا يـروى "إن الحاخـام أبـدى للملـك خشيته من الاندفاع المصـرى نحو قضيـة فلسطـين ، وأبـدى أنه لا يؤيـد قيام دولـة يهوديـة فيها ، ولكنه يـرى أن وقـوف مصـر ضـد هجـرة اليهـود إليها ينطـوى على إنكـار لكـل مـا تعـرض له اليهود فى أوروبـا تحت الاحتلال النـازى ."

ثم إن الحاخام أظهـر قلقـه من أن يـؤدى الاندفاع المصرى إلى موجـة مـن العـداء ضـد "رعايا الملـك" اليهود ، وهم دائما من المخلصين لعرشه ولبلده الذى هو بلدهم ، وإنه "حامـى الجميع" ، واليهـود بالذات معه ومع والده من قبله "أثبتوا دائما ولاءهم وتفانيهم فـى خدمتـه وخدمة البلاد" .

وعـبر الملك "فاروق" عن مسـئوليته عـن حمايـة "رعايـاه اليهـود" لا يفـرق بينهـم وبـين المسلمين أو الأقبـاط ، كما أبـدى رغبته فـى أن يسـتعمل "يهـود مصـر" نفوذهـم مع يهـود فلسطين لكى يخففوا من غلوائهـم ضد العـرب ، موضحـا أنـه فـى حالـة وقـوع صـدام فـى فلسطـين فإن حكومته لا تستطيع أن تظـل بعيـدة عن المشاعـر العربيـة .

● وطوال صيـف ١٩٤٦ فإن "إلياهو ساسـون" ــ مستشـار الشئون العربيـة فـى الوكالـة اليهودية (ووالد "موشـى ساسون" الذى أصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل فـى القاهـرة) ــ أقـام إقامة شبه كاملة فى مصـر . وتظهر تقارير القسـم المخصـوص (البوليس السياسـى) المرفوعـة للديوان الملكـى أن "إلياهو ساسون" اجتمع برئيس الوزراء المصـرى "إسماعيل صدقـى" باشا ، كما اجتمع بعدد من الساسـة المصريين ، وبينهم "محمود فهمى النقراشـى" باشـا الـذى كـان رئيسا للوزراء قبل "صدقـى" باشا وبعده . واجتمع أيضـا مـع "مصطفـى النحـاس" باشـا وهـو زعـيم المعارضة فى ذلك الوقت ، واجتمع أيضا مع عـدد من كبـار موظفـى وزارة الخارجيـة . كما أن "رينيه قطـاوى" بـك رتـب له اجتماعا فى بيتـه مع عـدد من المثقفين وقـادة الـرأى العـام فى مصـر .

• إن "إلياهو ساسون" عقد أيضا ثلاثة اجتماعات أو أربعة مع "حسن يوسف" باشا وكيل الديوان الملكى ، ونقل إليه رسائل موجهة إلى الملك "فاروق" من زعماء الحركة الصهيونية وبينهم "وايزمان" و"بن جوريون" . بل إن "بن جوريون" جاء بنفسه إلى القاهرة ونزل فى بنسيون صغير فى عمارة الخديو بشارع عماد الدين ، وكان هدفه أن "يقدم للملك ولمن يهمه أن يسمعه من المصريين كل التأكيدات التى يريدون سماعها عن حسن نوايا الوكالة اليهودية فى فلسطين تجاه مصر وشعبها" .

□

إن هناك استدراكا يقتضيه الإنصاف ، فكل هؤلاء السياسيين المصريين الذين قابلوا "إلياهو ساسون" وغيره ، لم يكونوا متورطين فى شىء ولا يمكن اتهام أحد منهم بالتعاون مع الصهيونية ، ذلك أن هذه الحركة لم تكن ظاهرة بعد للوعى المصرى العام ، سواء على مستوى الشعب أو على مستوى الحكومة . ثم إنه كان هناك خلط باستمرار بين ما هو مألوف من أمر يهود مصر وما بين الحركة الصهيونية ، مضافا إلى ذلك أنه بدا أن مصر تستطيع أن تلعب دورا فى القضية الفلسطينية يصد عن شعب فلسطين مصاعب يمكن تلافيها .

وكان "النحاس" باشا من أنصار هذا الرأى . وقد سجل الحاج "أمين الحسينى" إنه عندما ذهب لمقابلة "النحاس" باشا ، فوجئ به يقول له : " يا أخى لماذا لا تسوون أموركم مع اليهود عندكم وتريحوننا جميعا من "وجع الدماغ" ! "

والشاهد أن كل الاتصالات التى دارت بين ساسة وزعماء مصريين فى هذه الفترة وبين ممثلين عن الوكالة اليهودية أو عن الحركة الصهيونية العالمية كانت داخل إطار سياسى يمكن فهمه ، وربما ـ وليس هذا اتهاما ـ أن الوحيد الذى قد لا تنطبق عليه هذه المقولة هو "إسماعيل صدقى" باشا رئيس الوزراء ، الذى قد يمكن القول إن مصالحه تشابكت مع مسئولياته .

وربما أن"صدقى" باشا كان لديه دافع إضافى ليس متوفرا لغيره ، فلعله ظن أنه يستطيع أن "يجامل اليهود فى فلسطين ، شريطة أن يبذل اليهود جهدهم وأن يستعملوا نفوذهم فى إنجلترا لتسهيل الوصول إلى اتفاق بين مصر وبريطانيا ، وفى ذلك الوقت فإن مستقبل "صدقى" باشا وماضيه كانا مرتبطين بنجاح مفاوضات "صدقى ـ بيفن" .

إن "صدقى" باشا لم يعش ليقرأ الوثائق البريطانية التى تكشف له كيف أن الحركة اليهودية والصهيونية فى العالم كانت تبذل جهدها للحيلولة دون اتفاق بين مصر

وبريطانيا على معاهدة جديدة تستقر بها الأمور بين البلدين قبل أن تقوم الدولة اليهودية فى فلسطين . فقد كانت القيادات الصهيونية ـ وأولها "دافيد بن جوريون" فى ذلك الوقت ـ ترى "إن أى اتفاق تتوصل إليه بريطانيا مع مصر سوف يدعم موقفها فى الإصرار على إعطاء اليهود قسما من فلسطين فقط وليس كل فلسطين كما كان الأمل ."

ثم إن "دافيد بن جوريون" كان يستغل تعثر المفاوضات المصرية البريطانية حول مستقبل قاعدة قناة السويس لكى يقنع بريطانيا أن دولة يهودية تقوم فى فلسطين سوف تكون على استعداد لأن تعقد معها اتفاقية تضمن لها قاعدة عسكرية فى النقب تتمكن بها من حماية قناة السويس وتأمين وجود قريب لها فى مصر يكون باستمرار عنصرا ضاغطا على الاستقلال المصرى وحدود تأثيره وفعله !

الفصل الخامس

من يملك القوة ؟!

"من يملك القوة يملك الحقيقة والمنتصرون هم الذين يصنعون التاريخ ويكتبونه أيضا !"

١

بـــن جـوريــــــــــون

" إننى شديد الأسف لأنكم رفضتم إعطاء مهلة عدة ساعات لرئيس وزراء بريطانيا "

("كليمنت آتلى" رئيس وزراء بريطانيا فى برقية سرية لـ"هارى ترومان" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية)

بالنسبة لـ "بن جوريون" كان قيام الدولة اليهودية فى فلسطين أمرا مفروغا منه ، والمشكلة الوحيدة أمامه هى : متى الإعلان عن قيامها ؟

وكذلك لم تكن المشكلة بالنسبة له هى أمن الدولة بعد إعلان قيامها ، فقد تولى هو مبكرا بناء القوة القادرة على ضمان هذا الأمن وفرضه . والمشكلة الوحيدة هى : من أين يبدأ؟

وكان منطق "بن جوريون" منذ تلك الأيام أن المطلوب ليس فرض الحرب دفاعا عن الدولة ، وإنما فرض السلام ضمانا لبقائها وقوتها ، وكانت المشكلة الوحيدة هى : كيف يتحقق قبول العالم العربى ؟

وكان "بن جوريون" يدرك أن الإجابة على "متى ؟" مرهونة بموقف الولايات المتحدة...

وأن الإجابة ـ على "من أين يبدأ ؟" ـ مرهونة بمعركة تركز بالدرجة الأولى على مصر وعلى الأردن ...

وأن الإجابة على "كيف ؟" مرهونة بتسليم العرب بأن المطلوب منهم ليس الاعتراف بأمر واقع ، وإنما بالتعامل معه طبق قوله "اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، وبدون حدود أو حواجز ، وبغير شروط من أى نوع" .

□

وفى السنوات الحاسمة ١٩٤٦ و ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، راحت خطوط المواجهة تتحدد ، وكل طرف فيها يحدد أولوياته ويحاول رسم خرائطه .

١ - وكانت بريطانيا تخوض معركة شبه يائسة ، فقد بدأت تتحقق يوما بعد يوم ، على حد تعبير السير "هارولد بيلى" مدير مكتب "إرنست بيفن" وزير الخارجية وقتها (وقد أصبح سفيرا لبريطانيا فى مصر مرتين بعدها) :

"إننا نستطيع أن نفتح البوابات أمام طوفان ، لكنه تجئ لحظة ندرك فيها أن فتح البوابات شىء والتحكم فى تدفق المياه شىء آخر . إن بريطانيا التى "بدأت مشروع دولة يهودية فى فلسطين" ما لبثت بعد ذلك أن فقدت إمكانية السيطرة على المشروع ."

والواقع أن العنصر الذى أخذ من بريطانيا فرصة السيطرة على المشروع ، وحوّل الدخول اليهودى إلى فلسطين من هجرة إلى طوفان ، هو انتقال قيادة الغرب نهائيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ - ولقد أقبلت الولايات المتحدة إلى تسلم مقاليد الشرق الأوسط ونظرتها إلى إقليم بأكمله وليس إلى بلدان متفرقة فيه ، وقد دخلت المنطقة وهى منهمكة فى مواجهة عالمية مع الاتحاد السوفيتى لا بد أن يخضع الكل لضروراتها مهما كانت رغباتهم .

ثم إنها أقبلت وتأثير الحركة الصهيونية فى الولايات المتحدة نافذ إلى أعصاب القرار السياسى فيها ، رغم أن مصالحها على أراض عربية وفى وسط شعوب عربية . وكان ذلك عاملا فاعلا وصل فيه القرار الأمريكى إلى حد التصادم مع ظاهر المصلحة الأمريكية . وفى هذا السياق يجىء ذلك الحوار الشهير بين الرئيس الأمريكى "هارى ترومان" وبين الوزير المفوض فى جدة الكولونيل "إيدى" .

كان "إيدى" يحاول أن يلفت نظر رئيس الولايات المتحدة إلى خطورة سياسته على المصالح الأمريكية ، ورد "ترومان" بصراحة قائلا : "هل لدى العرب أصوات فى مينوسوتا يعطونها لى فى انتخابات الرئاسة أو يحجبونها عنى ؟ ..."

ورد "إيدى" بالنفى . وحسم "ترومان" احتجاجات ممثله فى جدة بقوله : "إن اليهود لديهم أصوات فى مينوسوتا" !

[يروى الكاتب الأشهر "جور فيدال" فى مقدمته لكتاب "التاريخ اليهودى ... عبء ثلاثة آلاف سنة" أنه سمع من الرئيس الأمريكى الأسبق "جون كنيدى" أن الرئيس "هارى ترومان" كان يشعر أثناء ترشيحه للرئاسة فى انتخابات سنة ١٩٤٨ أن معظم أصدقاء سلفه "روزفلت" قد تخلوا عنه ، وأنهم لا يعتقدون بإمكانية نجاحه ، و"إن معنوياته ساءت إلى أن جاء يوم دخل عليه فيه أحد النشطين فى الحركة الصهيونية فى محطة توقف عندها قطار حملته الانتخابية ، ثم قدم إليه حقيبة يد فيها ٢ مليون دولار نقدا وهو يرجوه اعتبارها مساهمة فى حملته الانتخابية ." وروى "فيدال" أن "كنيدى" قال له بعد ذلك : "وهكذا اعترفنا بدولة إسرائيل قبل إعلان قيامها" .]

ثم أضيف إلى ذلك عنصر آخر لصالح منطق "ترومان" وإن اختلف مع أسبابه ، ذلك أن إسرائيل التى لم تكن تستطيع أن تقوم أو تحمى قيامها إلا بالولايات المتحدة ، أثبتت أنها صديق موال وقادر على تنفيذ خطط السياسة الأمريكية فى المنطقة .

٣ ـ وكانت إسرائيل قد وضعت خطوطها وراحت ترسم حدودها على نطاقات متعددة ومتوسعة :

- حدود للدولة : تتمدد باستمرار مع مدى ما تصل إليه قوة جيشها (وهو تعبير "بن جوريون") .
- وحدود للأمن : تتسع بعد ذلك أكثر لتشمل التصدى لأى خطر يهدد أمنها مستقبلا سواء كان ذلك الخطر قريبا من حدودها القائمة أو بعيدا عنها .
- وحدود للمصلحة : تتطلع إلى موارد البترول ، ومصادر المياه ، وأسواق التجارة ، وخطوط المواصلات ، وحرية الانتقال والسفر ، إلى آخره .

٤ ـ وكان الشعب الفلسطينى فى الموقف الصعب . فأرض الصراع أرضه ، وقد أعطى قصارى ما عنده فى ثورته التى استمرت من سنة ١٩٣٦ إلى قيام الحرب العالمية الثانية ونهايتها .

وقد رأى أن قوى الصراع أكبر من طاقته . وحدث ذلك فى نفس الوقت الذى بدأ فيه اهتمام بقية الدول العربية بشأن فلسطين يتنامى مع تنامى فكرة الوحدة العربية ، وقيام جامعة الدول العربية .

وهكذا فإن هذا الشعب الفلسطينى ساوره وهم أنه وقد أصبحت قضيته عربية ، إذن فإنه يستطيع أن يواجه المستقبل جزءا من كل ، ولما كان الكل هو الأكبر فإن الجزء يستطيع أن يطمئن .

٥ ـ لكن "الكل العربى" لم يكن متكاملا ، أو منسجما ، أو حتى واعيا بأبعاد المواجهة.

- كانت الأسر المالكة الحاكمة فى مصر والعراق والسعودية فى تنافس مع بعضها تسعى إلى تثبيت عروشها فى ظروف تصادمت فيها الأفكار والتيارات .
- ثم إن الدول العربية المؤثرة ـ (مصر وسوريا والعراق مثلا) ـ كانت لديها اجتهادات متباعدة محكومة بظروفها المحلية ، وأولها مطلب الاستقلال من قوة أوروبية بعينها .
- ولم تكن الشعوب العربية على إحاطة بحقيقة الخطط التى ترسم للمنطقة ومخاطرها.

وأضيف إلى ذلك عاملان :

* إن تلك كانت أول مرة يفكر فيها العرب على المستوى الإستراتيجى لمنطقة بأكملها.

* ثم إن تلك كانت أول مرة يخطر فيها للعرب احتمال لجوئهم إلى القوة المسلحة .

كان عهدهم بالاستراتيجية والعسكرية قد بعد به الزمن .

والغريب أن ذلك بالنص تقريبا كان تعبير "عبد الرحمن عزام" باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية فى حديث له سنة ١٩٤٦ مع البريجادير "كلايتون" مسئول المخابرات العسكرية البريطانية للشرق الأوسط . وقد قال "عزام" باشا للبريجادير "كلايتون" :

"هذه أول مرة نفكر فيها ونعمل كدول مستقلة . بل إننا لسنا فى واقع الأمر دولا مستقلة ، وإنما دول شبه مستقلة" !

☐

كانت المشكلة الملحة على كل الأطراف ما زالت هى مشكلة فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية . فالوكالة اليهودية من ناحية تريد فتح الأبواب لأكثر من مائتى ألف يهودى تخلفوا بعد معارك الحرب فى معسكرات متناثرة من أوروبا الشرقية والغربية . وكان هؤلاء اليهود من النوع الذى تريده الوكالة اليهودية تماما ، وتعتبرهم خامة صالحة تقوم عليها الدولة الجديدة عند إعلانها ، فكلهم أوروبيون ، ومعظمهم من المتعلمين والخبراء فى مجالات وتخصصات متعددة أخافتهم أو طردتهم سلطة الاحتلال النازى فى أوروبا . وقد بذلت كل المنظمات الصهيونية جهدا كبيرا سنتى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ فى إعدادهم وتأهيلهم لخدمة الدولة اليهودية ، وتثبيت اعتقادهم بأن عودتهم إلى أوطانهم الأصلية مستحيلة حتى بعد هزيمة

ألمانيـــا . فالمشاعر ضدهم ما زالــت حــادة حتـى وإن أصبحـت بعـد العصـر النــازى كامنـة ودفينـــة . وبالذات فإن اللاجئين من بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا كـانوا مستعدين للهجـرة جاهزين لوضع علمهم ومواهبهم فى خدمـة الدولـــة الصهيونية التى تصـــوروا أنهـا تحررهـم إلى الأبـد .

وكان رأى "بن جوريون" أنه يفضـل أن يجـىء إعلان الدولة وفيها ستمائة ألـف يهودى على الأقل بـدلا من أكثر قليلا من أربعمائة ألـف موجودين فى فلسطين الآن فعـلا .

وكان "ترومان" قد وعـد بفتـح الباب لمائـة ألـف ، وكان الإلحاح عليـه بمـا هـو أكـثر ، وهو جاهـز . وكانت بريطانيا تطالب بموارية أبـواب الهجرة وجعلها نصـف مفتوحة بدلا مـن فتح كامل . وذلك لكى تتمكن إدارتها وقواتها فى فلسطـين مـن تحقيـق تـوازن معقـول بـين السكان يكفل تغييرات تدريجية ، وليست كبيرة وكاسحة بحيث تختـل كل الموازيـن .

وكان العـرب ضد الهجـرة تماما ، يرون أن فلسطـين فيها يهـود بما فيه الكفاية ، وأى زيادة تطـرأ بعد ذلـك سوف تؤثـر يقينا على عروبـة فلسطـين .

وفى مواجهة مخاطر الهجـــرة ، قــرر العــرب الدعـوة إلى مؤتمـر علـى مستوى رؤسـاء الحكومات يعقـد فى سوريـا لبحـث مشكلة الهجـرة بالتحديد ، وتقرير ماذا يستطيع العـــرب أن يفعلـوا حيالها بما يـؤدى إلى وقـف تدفقهـا على فلسطـين .

وانعقد المؤتمر فعلا فى مصيـف "بلـــودان" - قرب دمشـق - ما بين الثانى عشــر والثـامن عشـر من يونيو سنة ١٩٤٦ . وانتهى المؤتمر إلى قـرّارات أعلنها على النحـو التالى :

١ - تشكيل لجنـة عربيـة عليا تتابع باستمرار الجوانب المختلفة من قضيـــة فلسطين، وتنسق فى ذلك مع الهيئـة العربيـــة العليـــا لفلسطين التى يرأسهـــا الحاج"أمـين الحسيـنى" .

٢ - المطالبة بـنزع سـلاح وتسريح الجماعات اليهوديـة المسلحة فـى فلسطين كوسيلة ناجحة لوقـف اعتداءات هذه الجماعات على السكان العـــرب .

٣ - إنشــــاء صندوق عربى تســاهم فيـــه كل الــدول العربيـة ، يقـوم على مساعدة الفلسطينيين وشـراء أيـة أراض فلسطينيـة حتى لايشتريها اليهـود .

لكن مؤتمـر "بلـودان" اتخذ إلى جانب هذه القرارات المعلنة مجموعة أخرى من القـرارات السريـة تصبح واجبـة التنفيـذ إذا ما سـاد منطـق فتـح أبـواب فلسطـين لهجرة اليهود إليها . وكان أهـم هذه القـرارات السريـة :

١ - إن الــــدول العربيـــة سـوف تتوقـف عن منـح أيـة امتيازات للـدول التى تؤيـــد الهجـــرة.

٢ - إن الدول العربية سوف توقف نشاط البعثات التعليمية والثقافية التابعة لهذه البلدان فى أراضيها كنوع من المقاطعة الأدبية .

٣ - إن الدول العربية سوف تبحث فى إلغاء أية امتيازات ممنوحة فى بلادها فعلا لهذه الدول .

٤ - إن الدول العربية سوف تلجأ إلى الأمم المتحدة و إلى مجلس الأمن فى طلب وقف الهجرة باعتبار أن ذلك تهديد صريح لأمنها .

٥ - إن الدول العربية بعد ذلك سوف تقوم بتسليح الشعب الفلسطينى حتى يستطيع الدفاع عن نفسه ، وسوف تساعده بكل الوسائل .

□

كان التمثيل المصرى فى مؤتمر "بلودان" - ١٩٤٦ - على مستوى غير مسبوق فى تاريخ اشتراك مصر فى أية مؤتمرات دولية أو عربية . ومع أن رئيس الوزراء "إسماعيل صدقى" باشا لم يذهب بنفسه للاشتراك فى المؤتمر بسبب انهماكه فى المحادثات البريطانية المصرية (معاهدة "صدقى - بيفن") ، فإن زعماء كل الأحزاب المشاركة فى وزارته كانوا هم وفد مصر فى مؤتمر "بلودان" . فقد كان الوفد المصرى مكونا من : "محمود فهمى النقراشى" باشا رئيس حزب السعديين ، والدكتور "محمد حسين هيكل" باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، و"مكرم عبيد" باشا رئيس حزب الكتلة ، و"حافظ رمضان" باشا رئيس الحزب الوطنى ، وقد انضم إليهم "عبد الرزاق السنهورى" باشا وهو قطب قانونى أصبح مرجعا فى الشئون العربية .

وقيل فى مصر وقتها إن "صدقى" باشا بعث بكل هؤلاء الزعماء إلى "بلودان" لكى يلهيهم بقضية فلسطين بحيث يخلو له الجو فى مفاوضاته مع الإنجليز . ولم يكن ذلك دقيقا ، مع أنه لم يخل من بعض الصحة .

والحاصل أن "صدقى" باشا فى غيبة زعماء أحزاب ائتلافه الحكومى لم يتفرغ لمحادثاته مع اللورد "ستانسجيت" رئيس الوفد البريطانى المفاوض أمامه ، وإنما انتهزها فرصة ــ كذلك ــ لترتيب واحد من أهم لقاءاته مع ممثلين عن الوكالة اليهودية فى فلسطين . فقد وصل إلى مصر سرا فى هذه الفترة "إلياهو ساسون" ، وأجرى "صدقى" باشا معه مجموعة لقاءات فى بيت "رينيه موصيرى" شارك الحاخام "حاييم ناحوم" أفندى فى واحد منها على الأقل.

كان "صدقى" باشا يحاول فى هذه اللقاءات أن يحصل على تأييد اليهود له فى موقفه مع الإنجليز . وفى مقابل ذلك ، فقد كان على استعداد لإغماض العين عن هجرة يهودية معقولة إلى فلسطين . وكان الرقم الذى عرض "صدقى" باشا استعداده للتسامح فيه هو خمسين ألف مهاجر إلى فلسطين . ولم يكن ذلك مرضيا لـ "ساسون" ، مع أن الحاخام "حاييم ناحوم" أفندى كان على استعداد لبذل نفوذه لتسهيل قبول الوكالة اليهودية فى فلسطين بهذا العرض .

وربما كان الأكثر مدعاة للاهتمام أن "الياهو ساسون" نقل عن "صدقى" باشا أنه أثناء هذا اللقاء أبدى استعداد "الحكومة المصرية" لقبول تقسيم فلسطين ، بما يعنيه ذلك من إقامة دولة يهودية . وطبقا لـ "ساسون" فإن الملك "فاروق" كان على علم بما يقوله "صدقى" باشا، "وعلى أى حال فإنه سوف ينتهز فرصة ظهور مناخ مناسب ونوايا طيبة ويبلغ ساسون برأيه أو يحدد موعدا رسميا لمقابلة بين الملك فاروق وبين الدكتور حاييم وايزمان فى قصر عابدين."

إن الوثائق المصرية الخاصة لا تتضمن أية إشارة إلى شىء من ذلك ، لكنه من الصعب تصور أن رجلا فى كفاءة "إلياهو ساسون" يختلق حديثا من هذا النوع فى مسألة بهذه الخطورة . وربما أن "صدقى" باشا بالغ فيما قال لـ "ساسون" متصورا أن ذلك يحقق له "تدخل اليهود بفاعلية" لإنجاح مفاوضاته مع الإنجليز .

ولم يكن وفد مصر فى مؤتمر "بلودان" بمستواه العالى على علم بما يقوم به رئيس الوزراء . ومما يستحق التسجيل أن "مكرم عبيد" باشا كان الأكثر وضوحا وحسما فى موقفه بين كل أعضاء الوفد المصرى فى "بلودان" . ولعله كان الأكثر تنبها فى هذا الموضوع بالنسبة إلى الرؤية المصرية لحقيقة ما يعنيه قيام دولة يهودية فى فلسطين . وتشير محاضر "بلودان" إلى أن "مكرم" باشا أشار إلى أن قيام دولة يهودية فى فلسطين سوف يعرقل اتصال البلاد العربية ببعضها ، وسوف يخلق مشكلة على حدودها ، وقد يعطل محاولاتها للتقدم .[1]

□

ولم تكن الحقائق السياسية واقفة فى الانتظار ، و إنما راحت تشق لنفسها مجاريها بصرف النظر عن القرارات والاجتهادات والشعارات . وتعود الوثائق لتفضى بأسرارها :

(١) يلاحظ أن الأستاذ "ميشيل عفلق" زعيم حزب البعث الاشتراكى طور هذه المقولات بعد ذلك فى شعاره الشهير الذى شاع فيما بعد فى أدبيات حزب البعث وغيره من الأحزاب القومية ، وهو "إن إسرائيل أقيمت لكى تكون قاطعا لاتصال الأمة ، وأداة لتهديدها ، وإسفنجة لامتصاص طاقاتها باستمرار" .

• وثيقة رقم ٢٥٤٦ - ٦/٠١ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض فى السعودية (كلارك) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ٢٥ يونيو ١٩٤٦

بعد عودة عبد الرحمن عزام باشا من المؤتمر الاستثنائى لجامعة الدول العربية فى بلودان إلى القاهرة ، التقى فى القاهرة بالمستر ريفز تشايلدز (الوزير المفوض الجديد فى السعودية والذى كان فى العاصمة المصرية قبل قدومه إلى جدة) ، وقال له بأن الجامعة العربية قررت بالاجماع فتح باب المفاوضات مع الحكومة البريطانية بوصفها الدولة المنتدبة على فلسطين للوصول إلى حل بشأن مستقبل هذا البلد الذى يعتبرونه بلدا عربيا . وقد أرسلوا بالفعل مذكرة بهذا المعنى إلى الحكومة البريطانية . وهم يرون أن أول بند لا بد من معالجته فى المشكلة هو بند الهجرة اليهودية إلى فلسطين . فهم لا يرون أى مبرر لجعل هذا البلد العربى يتحمل عبء إيجاد مأوى ليهود أوروبا .

إمضاء

كلارك

• وثيقة رقم ٢٩٤٦ - ٦/٠١ ن ٨٦٧

برقية من رئيس الوزراء البريطانى كليمنت آتلى إلى الرئيس هارى ترومان .

التاريخ : ٢٦ يونيو ١٩٤٦

(سرى جدا وشخصى من رئيس الوزراء إلى الرئيس)

كما تعرفون تحاول الجماعات الصهيونية فى فلسطين الضغط علينا فى موضوع الهجرة . وقد زادت عمليات الميليشيات الصهيونية المسلحة ضد القوات البريطانية فى فلسطين . وكان آخرها خطف ستة ضباط بريطانيين . إن حكومة صاحب الجلالة قد توصلت إلى اقتناع بأن هذا وضع يصعب السكوت عليه . وقد تم إخطار

المندوب السامى فى القدس بأنه مخوّل بسلطة اتخاذ ما يـراه مـن إجـراءات تحقـق سيطرة الإدارة البريطانيـة فـى فلسطـين علـى الأمـور . وفـى معلومـاتى أن المنـدوب السامـى قد أمـر باتخاذ إجـراءات تبـدأ يـوم السبـت ٢٩ يونيـو . وبـين الخيـارات المفتوحة أمامه أن يحتـل مكاتب الوكالة اليهوديـة لأى مـدة يراهـا كافيـة للتفتيـش والحصول على الوثائق التـى تثبـت القيـام بتنظـيم عمليـات هجـرة غـير مشـروعة تجـرى حمايتها بقـوة السـلاح ، بينما نحن نحاول بكل الوسائل إيجاد حـل سياسـى للمشكلة وللتعقيدات الناجمـة عنهـا . إن بعـض الإجـراءات سـوف يشـمل القيـادات العسكرية فى الهاجاناه (قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية) وأية عناصـر خـارج هذه المنظمـة .

إمضـاء

كليمنـت آتلـــى

□

ولـم تكن جماعات الضغـط اليهودى والصهيونى فى الولايات المتحـدة بعيـدة عن الصـورة أو متكاسلـة ، وإنما جـاء تدخلها سريعـا ونافـذا ، وبشهـادة الوثائـق :

وثيقـة رقـم ٣٤٦ ٠١/٧ ن ٨٦٧

بيان صحفى صادر عن البيت الأبيـض بتاريخ ٢ يوليـو ١٩٤٦ .

نـص البيـان :

" اجتمع الرئيس هارى ترومان اليوم بعدد من الأعضاء الأمريكيـين فـى اللجنـة التنفيذية للوكالة اليهوديـة لفلسطـين ، وهـم : الحاخـام سـتيفن وايـز ، والدكتـور ناحوم جولدمان ، والمستر لويس ليبسكـى ، والحاخام أبا هيلـل سيلفـر .

إن ممثلى الوكالة اليهودية عرضوا على الرئيس وجهة نظرهم فيما جـرى أخيرا من أحداث فى فلسطـين .

إن الرئيس أعـرب لممثلى الوكالة اليهودية عن أسفـه للتطـورات الأخـيرة التـى وقعت فـى فلسطـين . وقـد أخطـر ممثلـى الوكالـة اليهوديـة أن الولايـات المتحـدة لم تستشر مقدما فى الإجراءات التى اتخذتها السلطات البريطانية هناك .

إن الرئيس أضاف إلى ذلك إعرابه عن أمله فى الإفراج عن كل القيادات اليهودية فى فلسطين على الفور .

إن الرئيس أضاف كذلك عزمه على أن الأحداث الأخيرة فى فلسطين لن تؤثر على سياسة فتح أبواب فلسطين لهجرة مائة ألف يهودى من أوروبا إليها ."

(لم يشر البيان الصحفى الصادر عن الاجتماع إلى أهم الوقائع التى جرت فيه ، وإن كانت مجموعة الوثائق الأمريكية لسنة ١٩٤٦ فى صفحة ٦٤٥ تشير إليها ، وخلاصتها أن الرئيس ترومان بحث التكاليف المالية لعملية هجرة مائة ألف يهودى إلى فلسطين ، وأنها تصل إلى ٤٥٠ مليون دولار (بقيمة الدولار فى ذلك الوقت ، وهى تساوى عشرة أمثال قيمته اليوم) . وقد تطوع الرئيس ترومان على الفور بأن الولايات المتحدة سوف تتحمل وحدها نفقات النقل . وفى نفس الوقت أبدى الزعماء اليهود بأن لديهم ٢٥٠ مليون دولار جاهزة لعملية التوطين ، لكن ذلك المبلغ لا يكفى الا لجزء منها .)

☐

- وثيقة رقم ٨٤٦ - ٠١/٧ ن ٨٦٧

رسالة من الرئيس ترومان إلى الملك عبد العزيز آل سعود .

التاريخ : ١٣ يوليو ١٩٤٦ .

يا صاحب الجلالة ،

إننى تلقيت بمزيد من السرور الرسالة التى نقلها إلى صديقى وصديقكم وزيرنا المفوض السابق لدى حكومتكم الكولونيل ويليام إيدى . إننى شديد الاعتزاز بروابط الصداقة الوثيقة التى قامت باستمرار بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة السعودية . ولقد نقل إلى الكولونيل إيدى تفهمكم للمشكلة الإنسانية لليهود المشردين فى أوروبا . كما نقل إلى أيضا قلقكم من ذهابهم إلى فلسطين . وأريد أن أؤكد لكم بإخلاص اعتقادى بأن ذهاب مائة ألف يهودى إلى فلسطين لن يؤثر فى حقوق أو مصالح العرب ، كما أنه لن يحدث خللا فى التوازن الاقتصادى والاجتماعى فى هذا البلد .

إمضاء

هارى ترومان

● وثيقة رقم ١٧٤٦ - ٠١/٨ ن ٨٦٧

رسالة من وزير الخارجية الأمريكية جيمس بيرنز إلى الحاخام ستيفن وايز .

باريس ١٧ أغسطس ١٩٤٦

عزيزى الدكتور وايز ،

إنك طلبت منى أن أقابل مستر ناحوم جولدمان أثناء وجودى فى باريس لأنه يريد أن يرانى فى مسائل متعلقة بموضوع فلسطين . وقد كنت أرغب فى أن أراه ، لكنى بعيد عن مجرى الحوادث فى هذه القضية ، فطوال السنة الأخيرة تولى الرئيس ترومان بنفسه وشخصيا كل ما هو متعلق بمشكلة فلسطين . والاتصالات الدائرة بين الحكومتين البريطانية والأمريكية فى هذا الشأن تجرى مباشرة بين الرئيس ترومان ورئيس الوزراء (البريطانى) المستر آتلى ، وليس بين المستر بيفن وبينى .

. . . .

. . . .

إمضاء

جيمس بيرنز

● وثيقة رقم ١٢٤٦ - ٠١/٩ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الخارجية بالنيابة (ويليام كليتون) إلى الرئيس ترومان .

التاريخ : ١٢ سبتمبر ١٩٤٦

الرئيـس ،

يـرى الحاخام وايـز ومعه عـدد آخر من الزعمـاء الصهيونيـين أن تقـوم بـإصدار تصريح فـورى عن تقسيم فلسطـين وعن فتـح أبـواب الهجـرة اليهوديـة إليهـا . وفـى رأيهم أن ذلك يساعد على جعـل الحكومة البريطانية تتخـذ موقفـا أكـثر معقوليـة .

. . . .

. . . .

إمضـاء

ويليـام كليتـون

● وثيقـة رقـم ١٠٤٦ ـ ٠١/١٠ ن ٨٦٧

برقية من رئيس الوزراء (البريطانى) آتلــى إلى الرئيس ترومـان .

التاريخ : ٤ أكتوبـر ١٩٤٦

(سـرى جـدا وعاجـل)

عزيزى الرئيـس ،

إننى تلقيت بعد منتصف الليل أمس مشـروع بيـانك بشـأن فلسطـين ، وتلقيـت منكم رسالـة، وقد كتبت لكم على الفـور ردا عليها رجوتكم فيه تأجيـل الإعلان ولو لعدة ساعات ريثما أستطيع التشـاور مـع وزيـر الخارجيـة . وقبـل أن يطلـع الصبـاح تلقيت منكم ردا برفـض تأخير إعلان البيان لهذه الساعات التى طلبتها . إننى شديد الأسـف أنكم رفضـتم إعطاء مهلـة ساعات لرئيس وزراء البـلاد الـذى يتحمـل حاليـا عـبء إدارة شئـون فلسطـين ، مـع العلـم أن إعلانكـم سـوف يسـبب لإدارة فلسطـين أعباء لا شـك فيها . وسـوف أنتظر باهتمـام إيضـاحكم بشـأن الأسـباب العاجلـة التـى دعـت إلى مثل هذا الإجـراء المتسرع .

إمضـاء

آتلـــــــى

☐

كانت الحركة الصهيونية فى عجلة من أمرها لقيام الدولة اليهودية فى فلسطين . وكان رئيس الولايات المتحدة بنفسه أمامها ووراءها .

وكان الرأى قد استقر مبكرا على اختيار اسم الدولة : إسرائيل .

وكان الرأى قد استقر مبكرا ـ أيضا ـ على رسم علمها : خطان من اللون الأزرق أعلى وأسفل رقعة بيضاء تتوسطها نجمة داوود .

ولم يدقق كثير من العرب فى معنى رسم العلم الإسرائيلى ورمزه ، لكن يهود فلسطين فهموا الإشارة وتلقوا الرسالة . فالخطان باللون الأزرق أعلى العلم وأسفله يشيران إلى "النهرين الكبيرين" اللذين تقع الأرض الموعودة بينهما : نهر الشرق الكبير وهو "الفرات" ، ونهر الغرب الكبير وهو "النيل" . وذلك نص القول فى "التوراة" التى كتبها حاخامات إسرائيل أثناء المنفى والسبى فى بابل بعد ستمائة سنة من سقوط هيكل سليمان .

["فى ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهيم ميثاقا : "لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات" ." (سفر التكوين ١٥ : ١٨)]

وكان الرأى مستقرا كذلك ـ ومبكرا ـ على ألا تكون لهذه الدولة حدود معينة على خريطة . ولعلها كانت أول دولة فى العالم الحديث يجرى إعلان قيامها دون أن يصاحب هذا الإعلان بيان يعين الخطوط على الأرض ويوقعها على الطبيعة ، ذلك أنه حين يكون الوعد "أسطوريا" ، فإن الخرائط السياسية تصبح قابلة للتعديل مع كل تفسير أو تأويل !

٢

موشـــى شرتـــــوك

" لا داعى للخـوف من العـرب فهـم ضعفـاء بطريقـة بائسـة "

("حـاييم وايزمـان" للسـفير الأمريكـى الدائم فـى الأمـم المتحدة)

إن الوثائـق البريطانية والأمريكيـة والإسرائيلية وكلها الآن متاحـة تكفى لمعرفـة ما كـان يجـرى فى الخفاء طوال سنـة ١٩٤٧ . لكن هناك ثلاث حقـائق يمكـن رصدهـا مـن خـلال قـراءة دقيقـة لهذه الوثائـق :

١ ـ الحقيقة الأولى أن الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، رئيسـها وحكومتهـا أيضا ، أصبحـت بالكامل من أنصـار قيـام دولـة يهودية فى فلسطين ، مع إدراكها لكـل المصاعب التـى تنتظرها على الطريق .

إن الرئيس الأمريكى "هارى ترومان" مضـى فى طريقه نحو فتـح أبـواب هجرة اليهـود وإقامة دولة يهودية فى فلسطين لا يلـوى على شـىء . ويمكـن أن يقـال إن مصالحـه الانتخابية وارتباطاته الشخصية والسياسية كانت محركـه ، ولكن الذى لا يقبـل الشـك فى نفس الوقت أن بقيـة أجهـزة الدولة الأمريكية اقتفت خطا الرئيـس . ولم يكن ذلـك بمجرد ضغـط منه ، وإنما إلى جانب ذلك كان نتيجة تقديراتها لأوضـاع متغـيرة أفـرزت رؤى استراتيجية مختلفـة . وكانت الحرب الباردة ومطالبها هى أظهـر الاعتبارات التـى أفسحت المجال لهذه الـرؤى . وربما أن السياسة الأمريكية ـ وقد آل إليهـا إرث الشرق الأوسـط بكامله عن بريطانيـا ـ لم تلبـث أن اكتشـفت أهميـة منطـق "نـابليون" وبعده "بالمرستون" فى أفضلية عـزل مصـر عن سوريـا ، وبعده عـزل عـرب أفريقيـا عن عـرب المشـرق إذا أمكـن .

٢ ـ والحقيقة الثانية أن تقسيم فلسطين أصبح قرارا نافذا من الجمعية العامة للأمم المتحدة صدر يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ برقم ١٨١ . وفى أجواء أشبه ما تكون بعاصفة اجتاحت "ليك ساكسس" حيث المقر المؤقت للأمم المتحدة فى نيويورك . لقد تعرض مندوبو الدول فى الجمعية العامة إلى صنوف من الضغط بدت لا تقاوم ، واستهدفت توفير أغلبية كافية للموافقة على قرار التقسيم . (وهناك تفاصيل كثيرة معروفة وشائعة عن تهديدات وجهت لرؤساء دول ، وعن رشاوى دفعت لمندوبين ، وعن شركات أمريكية كبرى تدخلت لإرغام أصوات على تغيير اتجاهها ، وأشهر مثال لذلك ما حدث من شركة "فايرستون" للمطاط مع رئيس جمهورية ليبيريا حتى يفرض تغيير صوت بلاده من "لا" إلى "نعم" للتقسيم . والنتيجة أن قرار التقسيم بدا عملية فرض بالقوة أكثر منه عملية اختيار لحل مناسب .

٣ ـ والحقيقة الثالثة أن العرب فى هذه الفترة كانوا بالفعل شبه عراة من كل الوسائل اللازمة لتغطية مواقفهم فى مواجهة من هذا النوع . وبعد أسابيع قليلة من صدور قرار التقسيم بدا العالم العربى أشبه ما يكون بجسد كبير عاجز عن الحركة ، وإذا تحرك فقد كان أول إيحاء تعطيه حركته أنها صادرة عن مركز عصبى فقد تماسكه .

وبدأت سنة ١٩٤٨ ، وهى السنة التى قامت فيها الدولة اليهودية فى فلسطين، والأجواء مختلطة ، والضباب يغطى الساحة ، والخطا متعثرة .

□

فى أواخر سنة ١٩٤٧ أعلنت الحكومة البريطانية أنه وقد صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية فإنه لم يعد أمامها (الحكومة البريطانية) إلا أن تسحب قواتها من فلسطين فاتحة المجال بذلك لتنفيذ قرار المجتمع الدولى . وهكذا وجد الكل أنفسهم أمام أمر واقع عليهم أن يواجهوه كل بطريقته ووفق رؤاه . وكانت الرؤى فوضى واسعة ترسم الوثائق صورة حية لها .

- **وثيقة رقم ٤٧/ ـ / ٢ ج**

مذكرة من السفارة البريطانية فى واشنطن إلى وزارة الخارجية الأمريكية .

التاريخ : ٥ يناير ١٩٤٨

(سـرى جـدا)

١ ـ أثناء مناقشة بين المستر بيفـن (وزير خارجية بريطانيا) والمستر مارشـال (رئيس أركان حرب الجيش الأمريكى السابق ، والذى اختاره الرئيس ترومـان لكـى يكون وزيرا لخارجيته) وذلك حينما اجتمع الاثنان فى لنـدن يوم ١٧ ديسمبر ١٩٤٧ عـبر المستر بيفـن عن رأيه بأن ردود فعـل الحكومات العربيـة تجاه قـرارات الأمـم المتحدة بشأن فلسطـين كانت أسوأ مما توقـع رغم كـل الجهـود التـى بذلهـا المثلـون البريطانيون فى العالم العربـى "لتعقيل" الحكومات العربية . وقال المستر بيفـن إنـه سوف يقابل كل المثلين العـرب فى لنـدن واحدا بعد الآخر لكـى يتـولى "تركيزهـم" . (to steady them)

إن الحكومة البريطانيـة تخشـى أن الموقـف فى الشـرق الأوسـط سوف يفلـت زمامـه ، وقد يعـرض المصالح البريطانيـة والأمريكيـة للخطـر هنـاك ، وهـو أمـر لا يستفيد منه إلا الاتحاد السوفيـتى .

٢ ـ ولتوضيح وجهة نظره أكثر ، فإن المستر بيفن أشار للاتصالات التى أجراهـا المثلون البريطانيون فى عدد من العواصم العربيـة المعتمديـن لديهـا . ومنهـا أمكـن استخلاص ردود الفعـل العربيـة تجاه ما أعلنته الحكومة البريطانية من أنها تنـوى سحـب قواتها من فلسطـين .

(أ) إن كل المسئولين العـرب أعطوا تأكيـدات بـأنهم سـوف يتجنبـون القيـام بـأى عمـل يـؤدى إلى احتـكاك مع القوات البريطانيـة فى الفـترة السابقة للانسحاب. لكنهم مع ذلـك لا يعرفـون كيـف يمكـن تجنـب المخاطـر التـى ستنشأ إذا مـا افـترض الآخـرون أن معارضـة العـرب لتقسـيم فلسطـين سـوف تقتصـر علـى مجـرد الكـلام حتى إذا كان عنيفـا .

(ب) إن كل الحكومات العربيـة لا تعتقـد أنهـا تستطيع كبـح جمـاح مواطنيهـا عـن التطـوع للقتال فى فلسطـين . وقد ورد ذلـك بالنـص علـى لسان وزيـر خارجيـة مصـر (أحمد خشـبة باشـا) ، ونـائب رئيـس وزراء العـراق ، ورياض الصلـح رئيس وزراء لبنان ، وجميل مـردم رئيـس وزراء سوريـا ، وسمـير الرفاعـى باشا رئيس وزراء الأردن .

(جـ) إن هناك قلقـا واضحا بشأن مـا إذا كـان اليهـود سيضبطون تصرفـاتهم . أو إن أحدا ينصحهم بذلك على نحـو مؤثـر . وقد عـبر عن هذا الـرأى وزيـرخارجيـة مصـر والشيخ يوسف ياسين وكيل وزارة الخارجية السعودية . ومن الواضح أن

هذا القلق مبعثه تكرار اعتداء اليهود على العرب فى فلسطين ، وكثرة أعداد الضحايا بين العرب .

(د) لقد كانت هناك مرارة واضحة لدى كل المسئولين العرب ضد الحكومة البريطانية ، وأكثر ضد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وفى التعبير عن المرارة ضد الحكومة الأمريكية بالذات فقد تكررت الإشارات إلى دبلوماسية الدولار (Dollar diplomacy) . ومن الملحوظ أنه بدت من البعض تعبيرات عن الرغبة فى الصداقة مع بريطانيا ، وفى الغالب أن تلك كانت محاولة للعب ببريطانيا ضد الولايات المتحدة .

(هـ) من المؤكد أن هذه الأوضاع سوف تؤثر على كل محاولات إقامة نظام للدفاع عن الشرق الأوسط . وعلى سبيل المثال فإن رياض الصلح رئيس وزراء لبنان أهاب بالحكومة البريطانية أن تعزز صداقاتها مع العرب . وأشار إلى المفاوضات التى تجرى بين بريطانيا وبين كل من العراق ومصر . كما أنه قلل من قيمة الاتفاق مع شرق الأردن قائلا "أية فائدة لهذا الاتفاق إذا ضاعت فلسطين ؟"

٣ - إن هناك علامات ظاهرة على رغبة عامة فى التفاهم مع بريطانيا ، وبدون هذا التعاون يخشى الزعماء العرب أن الأمور سوف تفلت من أيديهم . إن أحدا من هؤلاء الزعماء لم يشرح بوضوح ماذا يريد منا ، ولكن مؤدى كلامهم جميعا يمكن ترجمته فى عبارة "أليس فى مقدوركم أن تفعلوا شيئا لمساعدتنا ؟"

٤ - إن هذه المشاعر جرى التعبير عنها فى أحاديث مع نورى السعيد وصالح جبر (رئيسا وزارات فى العراق) . وكان رئيس الديوان الملكى تحسين قدرى هو الأكثر صراحة فى شرح ما يريد . وقال للسفير البريطانى فى بغداد "لمدة ثلاثين عاما كانت الحكومة البريطانية هى التى تقول لنا كيف نتصرف . وكنا بالفعل نتصرف لما فيه صالح البلدين . والآن لأول مرة فأنتم لا تقولون لنا شيئا سوى النصح بالتزام الهدوء . والوصى على العرش والحكومة يريدان ما هو أكثر وإلا فإن "الأعداء" سوف يجدونها فرصة لتكثيف الضغوط علينا .

٥ - هناك تفاصيل لها تأثير على الموقف العام ويستحسن وضعها فى الاعتبار ، ومنها أن الحكومة الأردنية تركز اهتمامها على أن تحصل لنفسها على القسم العربى من فلسطين ، وتعتقد أن فى إمكانها أن تتوصل إلى اتفاق فى هذا الشأن مع اليهود . لكنها تحت الضغط مضطرة إلى مسايرة الرأى العام العربى .

. . . .

. . . .

□

كان الرئيس الأمريكى "هارى ترومان" يعرف "ما يريد" ، كما أنه كان يعرف ما يريده الآخرون عارفا حدود كل منهم وهكذا تتحدث الوثائق :

- **وثيقة رقم ٤٤٨ ـ ٢/ ج ٠٩٠ ٧١١**

مذكرة كتبها السفير الأمريكى فى العراق (وادسوورث) إلى مدير قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية (لوى هندرسون) عن مقابلة له مع الرئيس ترومان .

التاريخ : ٤ فبراير ١٩٤٨

(سرى جدا)

الموضوع : حوار مع الرئيس .

كما تعلم فإننى قابلت الرئيس ، وقد قدمت له مذكرة بواسطة مساعده لشئون الأمن القومى الأميرال سويرز ، وتم ذلك قبل الاجتماع لكى يكون على علم مسبق بما أنوى أن أتحدث فيه ، وكان بناء على طلب الأميرال سويرز . وقد استقبلنى الرئيس عند الظهر تماما وتحدثنا لمدة خمس عشرة دقيقة . قال لى الرئيس إنه قرأ الورقة التى أرسلتها إليه ، وعقب بقوله "إن الأوضاع فى الشرق الأوسط هى التى تشغله الآن" . وقد قلت له إننى أريد أن أعرف منه مباشرة ما إذا كانت حكومة الولايات المتحدة تفكر فى إرسال قوات إلى الشرق الأوسط لكى تفرض قرار تقسيم فلسطين ؟ وقد رد على الفور بقوله إنه يفضل أن يعمل بواسطة الأمم المتحدة .

وأضاف الرئيس إن ذلك هو ما قاله بالضبط للأمير فيصل ، ولأمير اليمن ، وللوصى على عرش العراق الذى اجتمع به لمدة ساعتين كاملتين .

وقال الرئيس إنه لفت نظر الوصى إلى ضرورة الاهتمام بالمشروعات الكبرى فى العراق نفسها بدلا من الانشغال بمشاكل بلاد أخرى مثل فلسطين . وقال الرئيس فى هذا الصدد إن لديهم مشروعا مثل مشروع تنمية وادى دجلة والفرات بأموال البترول العربية التى يحصلون عليها ، فالعراق بلد يحتاج إلى التنمية . وفى كل مرة دخل الغزاة إليه ، من أول تيمور لنك وحتى الآخرين ، فإنهم حطموا فى طريقهم كل شىء . إن الغزاة يفعلون ذلك باستمرار . وأما نحن ـ قال الرئيس " ـ لأول مرة فى التاريخ تكون سياسة الغزاة هى التوجيه إلى البناء" .

وقلت للرئيس إنه يصعب تحويل نظر العراق عما يجرى فى فلسطين ، والعرب اليوم يريدون منا إجابة واضحة عن سؤال واحد ، وهو ما إذا كنا سوف

نقبل بالضغوط الصهيونية ونبعث بقوات أمريكية أو قوات تابعة للأمم المتحدة لفرض قرار التقسيم . ورد الرئيس : "إننا لن نفعل شيئا من ذلك ، ولكنى لا أستطيع أن أعطيهم ضمانات بألا أفعل قبل أن يؤكدوا لى هم أنهم لن يستعملوا السلاح لعرقلة التقسيم" . وقلت للرئيس إننى أفهم وجهة نظره ، واقترحت عليه إبلاغها لكل رؤساء البعثات الأمريكية فى الشرق الأوسط . وعقب الرئيس بقوله : "إن العرب ليس لديهم أى شىء أكثر من حجج قانونية" .

....

.... إمضاء

وادسورث

- وثيقة رقم ٣/ فلسطين ب ب ٥٠١

برقية من الوزير المفوض فى السعودية (تشايلدز) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : جدة ١٣ مارس ١٩٤٨

أخطرنى عزام باشا الذى جاء إلى جدة اليوم بعد مقابلة الملك عبد الله فى عمان أنه تم الاتفاق على أن يرسل عزام باشا بوصفه أمينا عاما للجامعة العربية رسالة تحذير عام من إصدار أية تصريحات يمكن أن يعتبرها مجلس الأمن تهديدا للسلام الدولى . وقد شرح لى أن النزاع فى فلسطين هو نزاع مدنى ، ويجب من وجهة نظر عربية عدم إعطاء الفرصة لأحد كى يتدخل بالقوة فى فلسطين . وقد أخطرته بمضمون برقيتكم رقم ٧٦ بتاريخ ١ مارس ، وعلى الفور راح عزام باشا يكتب برقية إلى وزير الخارجية السورى يؤكد عليه فيها الامتناع عن إصدار أى تصريحات تحمل نبرة التهديد .

إمضاء

تشايلدز

□

كانت ساعة الحسم تقترب ، و"موشى شرتوك" مسئول الوكالة اليهودية عن العلاقات الدولية (وفيما بعد وزير خارجية إسرائيل ، ثم رئيس وزرائها) هو الذى يمسك بزمام

التوجيه فى الساحة الأمريكية وكان يتحرك بوضوح وحـزم ، وبشهادة الوثائـق :

- وثيقـة رقـم ٢٦٤٨ -٠١/٣ ن ٨٦٧

مذكرة عن مناقشة بين وزير الخارجيـة وبـين كـل مـن المستر موشـى شرتــوك والمستر إلياهو إيبشتـين من الوكالة اليهودية فى فلسطـين .

التاريخ : ٢٦ مـارس ١٩٤٨

جاء المستر شرتوك إلى مقابلة الوزير الذى دعاه إلى الاجتماع بـه . شـــرح الوزيـر للاثنين هدفه الذى من أجله طلبهما لمقابلته . وقال الوزير إنه يريـد أن يستطلع رأى الوكالة اليهودية فى أمـر اجتمـاع يمكـن ترتيبـه بـين الهيئـة العربيـة العليـا وبـين الوكالة بقصـد ترتيب وقــف للعمليـات العدائيـة فـى فلسطـين ، أو هدنــة . وسـأله المستر شرتـوك أن يكون محـددا فى وصـف الفارق بين التعبيرين اللذين استعملهما ، وهما : "وقـف الأعمال العدائيــة" أو "الهدنــــة" . وقـال الوزيـر إنــه يقصـد ترتيـب وقـف إطـلاق نـار أولا ، ثم اتفاق على هدنـة بعـده . ورد المستر شرتـوك بـأن موقـف الوكالة اليهودية واضـح ، وإن الشعـب اليهودى فى فلسطـين لـن يوافـق علـى هدنــة بينما توجـد قـوات أجنبية فى فلسـطين ، وإمـدادات تتسلـل عـبر الحــدود . وقـال شرتـوك إنه لا يعنى بـالقوات الأجنبيـة قـوات الانتـداب البريطـانى ، وإنمـا يعنـى أعـدادا من المتطوعين العـرب دخلوا إلى فلسطـــين مـن سوريــا ولبنـان وشـرق الأردن والعـراق . وأشار بالتحديد إلى مجموعة متطوعين عراقيـين أقاموا معسكرا لهـم قـرب محطـة الميـاه عند القـدس .

وقـال لـه الوزيـر "إن الولايات المتحدة تريد حقـن الدمـاء ، وتريـد الوصـول إلى نـوع من التوفيق بين الأطــراف . وهـو يريـد أن يسـأل المستر شرتــوك كيـف أمكـن التعرف على هويـة هؤلاء المتطوعين العـرب الذين أشار إليهم ؟" ورد شرتــوك "إنــه لا يعـرف كيف يمكن تحديدهم لأنه مـن الصعــب تمييـزهم مـن السكان العــرب" . وتوجه الوزير بسؤال مباشر إلى المســتر شرتــوك : "هـل الوكالـة اليهوديـة مسـتعدة لقبول هدنــة إذا كان بين شروطها سحـب أى متطوعين عـرب مسلحين من فلسطين ؟" ورد المستر شرتـوك بأن "ذلك لا يكفى لأن العـــرب سـوف يستغلون فرصــة الهـدنـــة لبناء قـوة تتسلـل فى أى وقت ومعها أسلحة إضافيــة تعـزز نشاطها ، وهــم سـوف ينتهزون فرصـة التزام قـوات الهاجاناه بالهدنـة ويعززون قوتهـم مطمئنين إلى أنهـم لن يهاجمـوا" .

وقال المســتر شرتــوك إنـه مستعد لأن يوصـى الوكالـة اليهوديـة بقبـول هدنــة بالشروط التالية :

١ ـ الوقف الكامل لكل العمليات العسكرية بما فى ذلك تحريم كل أنواع الإرهاب .

٢ ـ سحب جميع العناصر المسلحة التى تسللت إلى فلسطين من أراض مجاورة.

٣ ـ قيام نظام للرقابة على الحدود تكون له القدرة على منع أى تسلل .

٤ ـ أن تحتفظ الوكالة اليهودية لنفسها بالحق فى مقاومة أى عمل ترى من شأنه الإضرار بهذه الهدنة .

وأبدى المستر شرتوك "إن الوكالة اليهودية أعدت برنامجا عالى الكفاءة لتحمل مسئولية الإدارة فور انتهاء الانتداب البريطانى يوم ١٥ مايو ، وذلك فى الأراضى المخصصة لها بمقتضى قرار التقسيم" .

إن الوزير سأل المستر شرتوك عن "استعداد المستعمرات اليهودية فى فلسطين للدفاع عن نفسها ؟" ورد المستر شرتوك بأن "هذه المستعمرات جاهزة للدفاع عن نفسها إلى الأبد" . وسأله الوزير "عما يكون عليه الحال إذا أحس اليهود أن الميزان سوف ينتقل إلى صالح العرب ونشبت معارك على نطاق واسع وتدخل متطوعون عرب ؟" وقال المستر شرتوك "إن هناك عددا كبيرا من المتطوعين اليهود سوف يجىء من كل أنحاء العالم ، وإنهم يعرفون أن ذلك سوف يحدث مضاعفات دولية خطيرة ، وعلى القوى المهتمة بالمنطقة أن تتدبر ذلك" .

ثم راح المستر شرتوك يشكو من الحكومة البريطانية التى أصبحت تعتمد على مجموعة من الشيوخ العرب والباشوات المصريين .

. . . .

. . . .

• وثيقة رقم ١٥٤٨ ـ ٤/ فلسطين ب ب ٥٠١

برقية من المندوب الدائم للولايات المتحدة (أوستن) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ١٥ أبريل ١٩٤٨

(سرى وعاجل)

دعانى الدكتور حاييم وايزمان ومعى السفير جيسوب إلى لقائه بعد ظهر أمس، وقد وجدنا أبا إيبان عنده . وقال لنا (الدكتور وايزمان) إنه لا يفهم تردد الولايات المتحدة إزاء ما يجرى فى فلسطين . وهو يتساءل "ما هو مبعث التردد ؟

هل هو الخوف من العرب ؟ هل هو البترول ؟ هل هو الخوف من روسيا ؟" وقد راح الدكتور وايزمان يجيب بنفسه على أسئلته قائلا : "أما عن العرب فليس هناك داع من أى نوع للخوف منهم ، فهم ضعفاء بطريقة بائسة . وأما عن بترول العرب فإنهم لا يستطيعون أن يبيعوه إلا للولايات المتحدة . وعلى سبيل المثال فهل نخشى أنهم يمكن أن يبيعوا بترولهم للروس ؟ وإذا باعوه للروس فماذا يفعلون بالروبلات التى سيحصلون عليها ؟

واستطرد الدكتور وايزمان قائلا "هل تخشون من أن الدولة اليهودية سوف تكون متأثرة بالروس ؟" ثم أجاب بنفسه مرة أخرى : "إنه ليس هناك داع للخوف من هذا التأثير ، فالعملاء البلاشفة حاولوا منذ سنة ١٩٢٠ أن يجدوا لأنفسهم موطئ قدم بين المستوطنين اليهود ، وقد فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا" .

إن الدكتور وايزمان انتقل بعد ذلك إلى المساعدات التى يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة للدولة اليهودية . وقد تحدثنا فى هذا الموضوع بصفة عامة ، وبدون التزامات محددة .

إمضاء

أوستن

- وثيقة رقم ٢٢٤٨ ـ ٤/ ٠١ ن ٨٦٧

برقية من القنصل العام الأمريكى فى القدس (واسون) إلى وزير الخارجية .

القدس : ٢٢ ابريل ١٩٤٨

فيما يلى نص التصريح الذى صدر عن المؤتمر الصهيونى العام :

"لقد قررنا اعتمادا على السلطة المخولة للحركة الصهيونية وبتأييد الشعب اليهودى بأسره ، أنه فور انتهاء نظام الانتداب والحكم الأجنبى فى فلسطين فإن الجهاز الحاكم لدولة يهودية سوف يقوم بتولى المسئولية . إن الدولة التى يقيمها الشعب اليهودى فى بلده سوف تضمن العدل والحرية والمساواة لكل السكان بصرف النظر عن الديانة والعنصر والجنس وبلد المهجر . إن هدفنا أن نجعلها دولة لكل اللاجئين من شعبنا الذين تجمعوا هنا . دولة تسودها السعادة والعلم ، وتضيئها رؤى أنبياء إسرائيل .

وفى هذه الساعة التى فرض علينا فيها القتال ، فإننا نهيب بالعرب داخل الدولة اليهودية والدول العربية فى الأراضى المجاورة لنا ، أن يقبلوا أخوّتنا وتعاونا من أجل السلام .

. . . .

. . . .

إمضاء

واســـــون

□

ورغم ذلك فقد كان العرب على استعداد للتفاهم حتى هذه اللحظة ، وذلك من عدة أسباب أولها أنهم لم يكونوا قد حزموا أمرهم على شىء محدد هكذا تقول الوثائق :

- وثيقة رقم ٢٥٤٨ ـ ٤/ فلسطين ب ب ٥٠١

برقية من المندوب الدائم للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة السفير أوستن إلى وزير الخارجية .

نيويورك ٢٥ ابريل ١٩٤٨

عقد بروسكاور (رئيس اللجنة اليهودية الأمريكية) اجتماعين مع فوزى بك المندوب المصرى (يقصد الدكتور محمود فوزى مندوب مصر فى مجلس الأمن وقتها ، وقد أصبح فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية ورئيسا للوزراء) . وكان فوزى بك خلال الاجتماعين متقبلا بما فيه الكفاية فكرة تشجيع اتصالات بين العرب واليهود فى فلسطين بهدف ترتيب هدنة تيسر ترتيب الأحوال فور انتهاء الانتداب البريطانى . وقال فوزى بك إنه مخوّل من القاهرة وفى الغالب من الجامعة العربية أيضا حسب إشارته بأن يجلس مع وسطاء وممثلين يهود لبحث الموقف كله بدون تعهد نهائى من جانبه .

إمضاء

أوســــتن

• وثيقة رقم ٢٦٤٨ - ٤/ ٠١ ن ٨٦٧

برقية من السفير الأمريكى فى القاهرة (بنكنى تاك) إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٢٦ ابريل ١٩٤٨

(سـرى)

تناقش الآن فى القاهرة خطط لدخول قوات عربية إلى فلسطين عندما ينتهى الانتداب البريطانى . وتبدو العراق متحمسة ، كما تبدو الحكومة المصرية معارضة طبقا لما علمته من مصادر مصرية حسب الاطلاع . إن النقراشى باشا (محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت) أبدى معارضة فى النقاط التالية :

١ - خوفه من أن يؤثر اشتراك مصر فى مثل هذه العمليات على قضيتها المطروحة على الأمم المتحدة ، وقد عرضها بنفسه على مجلس الأمن طالبا جلاء القوات البريطانية عن بلاده .

٢ - إن القوات المصرية مشغولة الآن فى مهام داخلية . فهناك مخاوف من أن يقوم الوفد بإثارة متاعب ، كما أن هناك قلقا من احتمال انقلاب عسكرى يقوم به الجيش . وأخيرا فهناك احتمال أن يتجدد إضراب البوليس المصرى .[٢]

٣ - إن القوات المصرية ليست مسلحة أو مجهزة بطريقة كافية ، وبالتالى فاشتراكها فى أى عمليات فى فلسطين سوف يكون بلا أثر ، ومن المعروف على نطاق واسع أن مخاوف النقراشى باشا من هزيمة تلحق بالجيش المصرى على أيدى اليهود سوف توجه ضربة قاضية إلى ادعاءاته (فى مجلس الأمن حين عرض قضية مصر وطالب بجلاء الإنجليز) بأن مصر قادرة على الدفاع عن نفسها وعن قناة السويس بدون مساعدة أجنبية .

٤ - إن النقراشى باشا خائف من أن يظهر عجز الجيوش العربية عن حماية الفلسطينيين ، مما يؤدى إلى الإضرار بإيمان الشعب الفلسطينى بانتمائه العربى .

---

(٢) كان البوليس المصرى لمطالب تتعلق بالمرتبات قد قام بالفعل بإضراب عام امتد أسبوعين ابتداء من ٥ أبريل ١٩٤٨ ، وخلال هذا الحادث غير المسبوق فى تاريخ مصر فإن قوات الجيش كانت تقوم بمهام المحافظة على الأمن .

إن الأمير عبد الله الوصى على عرش العراق كان هنا وفى صحبته عدد من ضباط الجيش العراقى . ومن الواضح أن هدفه كان التأثير على الملك فاروق لكى يؤيد قرارا بشأن اشتراك الجيوش العربية فى الدفاع عن فلسطين ، وهو قرار أعد مشروعه خلال اجتماعات عقدتها اللجنة العسكرية للجامعة العربية أخيرا فى عمان . وقد فهمت أن الوصى على عرش العراق يحث الملك "فاروق" بمنطق أن مصر لا يمكن أن تقوم بدور أقل مما تقوم به بقية الدول العربية الأخرى وإلا فقدت مكانتها وهيبتها فى العالم العربى .

. . . .

. . . .

إمضاء

بنكنى تاك

- وثيقة رقم ٢٨٤٨ - ٠١/٤ ن ٨٦٧

برقية من السفير الأمريكى فى مصر بنكنى تاك إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٢٨ أبريل ١٩٤٨

يبدو أن الدول العربية توصلت إلى قرار بدخول قواتها إلى فلسطين . وطبقا لمعلومات حصلت عليها من عزام باشا وعدد آخر من المصادر المطلعة ، فإن الأمر لم يحسم بعد بطريقة قاطعة . ولن يتم ذلك قبل :

١ ـ موافقة ابن سعود وحكومتى سوريا ولبنان .

٢ ـ إعطاء الفرصة للمتطوعين إذا ظهر أنهم قادرون على حماية السكان الفلسطينيين .

٣ ـ إذا أمكن تعبئة الجيوش العربية وتنسيق جهودها .

إن عزام باشا سافر اليوم إلى بيروت ودمشق وعمان والرياض لاستطلاع المواقف وتنسيق الجهود . كذلك توجه حلمى حسين بك[٣] مبعوثا من الملك فاروق إلى الرياض برسالة إلى الملك ابن سعود .

---

(٣) كان الأميرالاى "حلمى حسين" بك هو مسئول التنقلات فى العصر الملكى ، ومن الغريب أن يعهد إليه بمهام سياسية على هذا المستوى العالى والدقيق .

إن طبيعة الاتفاقات التى جرت بين الدول العربية لم تتضح بعد ، ولكن يبدو طبقا لمصادر مطلعة أن الأردن والعراق والقوات السورية معززة بوحدات من لبنان سوف تقوم بالمجهود الرئيسى . وأما مساهمة مصر فسوف تقتصر على المساعدات المالية حتى يتضح الموقف بعد انتهاء الانتداب يوم ١٥ مايو .

إن وفود العراق والأردن وكذلك الوفد المصرى أيدت اتخاذ إجراءات كافية لتنفيس ضغط الرأى العام . ولا تزال الحكومة المصرية تعارض فى دخول قوات رسمية قبل ١٥ مايو . وليس هناك دليل يدعونا إلى الاعتقاد بأن الملك "فاروق" غيّر تأكيداته لى بأن القوات المصرية لن تدخل إلى فلسطين قبل أن تتضح الأحوال فى ١٥ مايو . وقد تم إخطار السفارة البريطانية هنا بألا تسىء فهم تحرك قوات مصرية إلى العريش ، فهذا إجراء يهدف إلى طمأنة الرأى العام المصرى وإرضائه بأن بلده لن يتخلف عن العمل العربى العام . وقد أكدت مصادر مطلعة فى الجيش المصرى لنا أن قطارين محملين بقوات عسكرية مصرية غادرا القاهرة إلى العريش يوم ٢٧ ابريل وعليهما مجموعة قيادة وقوة كتيبة واحدة مزودة بمدافع رشاشة، وكذلك مجموعة مشاة وتعداد القوات كلها ألف ومائة جندى .

إن عزام باشا قال لفيليب أيرلاند (السكرتير الأول للسفارة الأمريكية فى القاهرة) "إن تطور الأحداث فى فلسطين يشير إلى تصميم اليهود فيها على مواجهة العالم بأمر واقع يوم ١٤ مايو حين يعلنون قيام دولة يهودية ثم تتوغل قواتهم فى الأراضى المخصصة للدولة العربية قدر ما تستطيع أن تصل ، وإن هذا هو الذى جعله يغير رأيه بشأن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، وهو يشعر أن الأمور قد تصل إلى حد انسحاب كل الدول العربية من الأمم المتحدة .

. . . .

. . . .

إمضاء

بنكنى تاك

• وثيقة رقم ٣٠٤٨ ـ ٠١/٤ ن ٨٦٧

برقية من السفير الأمريكى فى مصر بنكنى تاك إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٣٠ ابريل ١٩٤٨

تلقينا مذكرة من الجامعة العربيـة بشأن الأماكن المقدسـة فـى القـدس وضرورة حمايتها من العمليات العسكرية التى تقـوم بها القوات الصهيونية فى فلسطين .

وتقترح المذكرة حفاظا على هذه المقدسات من أى عـدوان ، التزام جميع الأطراف بوقف أى اشتباكات مسلحـة داخل القـدس . وقد أبـدت الجامعة اسـتعدادها لتمويـل قـوة دولية خاصـة تقوم بحماية هذه الأماكـن المقدسـة .

. . . .

. . . .

إمضاء

بنكـنى تـاك

كانت الحكومات في حالـة حـيرة شديـدة ، ثم إنها كانت تمارس قـدرا كبيرا جـدا مـن ضبـط النفـس أمـام تجربـة لـم يتهيـأ لهـا أحـد .



النقراشي باشا

" كيف نستطيع إعلان الاعتراف بدولة لم يعلن قيامها بعد "

(مساعد وزير الخارجية الأمريكى فى حوار مع مستشار الرئيس الأمريكى)

كان ضغط الشعوب العربية على حكوماتها هائلا . وقد بدا ما توقعه الأمين العام لجامعة الدول العربية "عبد الرحمن عزام" باشا على وشك أن يتحقق ، ومؤداه أن "اليهود" سوف يضعون العرب والعالم أمام أمر واقع فيقيمون دولتهم فى الأراضى المخصصة لهم بقرار التقسيم ، ثم لا يتوقفون هناك .

كانت الوكالة اليهودية قد تحولت بالفعل إلى حكومة . وكان لهذه الوكالة جيش متمثل فى قوات "الهاجاناه" (قوات الدفاع) ، وكان جيشها أكبر من كل توقعات العرب وحتى خيالاتهم . ثم إن هذا الجيش قادر على الإمساك فورا بالمناطق المخصصة للدولة اليهودية ، وهو بعدها جاهز للوثوب على أرض الدولة العربية فى فلسطين .

وفى مقابل ذلك فإن شعب فلسطين مكشوف ينتظر المدد العربى . وقد وصلت إلى أرضه بالفعل مجموعات من قوات المتطوعين العرب : من سوريا والعراق فى الشمال ، ومن مصر فى الجنوب على الخط ما بين العوجة إلى بئر سبع و إلى بيت لحم . لكن قوات المتطوعين على بسالتها ـ وخصوصا القوات المصرية بقيادة الأميرالاى "أحمد عبد العزيز" ـ لم تكن فى وضع يسمح لها بالوقوف أمام قوات الهاجاناه التى كانت على وشك أن تتحول إلى "جيش الدفاع الإسرائيلى" .

ولم يكن أمام الدول العربية خيار سوى أن تتقدم نحو ساحات فلسطين بخطا متثاقلة . وكان الواضح أن الدول العربية كلها تقصر عملياتها على الأجزاء العربية من فلسطين ، ولكى تؤمنها وتحميها من إغارة القوات اليهودية عليها . وكان معنى ذلك واقعيا - وإن لم يكن قانونيا - أن الدول العربية اعترفت بقرار التقسيم وقررت العمل فى حدوده.

كانت الدول العربية قد أنشأت قيادة عليا لجيوشها تنسق استراتيجية عملها فى فلسطين . وقد رئى أن يتولى الملك "عبد الله" ملك الأردن هذه القيادة العليا بنفسه . وكانت لذلك أسباب عملية أهمها ما يلى :

١ - إن الأردن هو أقرب البلدان العربية إلى قلب فلسطين . وبالتالى فإن قواته قادرة على الوصول بسهولة إلى المناطق الحيوية فى العمق الفلسطينى .

٢ - إن الملك "عبد الله" كان لديه واحد من أقوى الجيوش العربية المجهزة لنوع ما من القتال . فالفيلق العربى الذى أنشأه الإنجليز وتولوا كل المراكز الحساسة فى قياداته ، ووضعوا على رأسه قائده الشهير "جلوب" باشا كان على مستوى عسكرى يفضل حال بقية الجيوش العربية .

٣ - وساعد على هذا الوضع حقيقة أن مصر لم تكن حتى وقت متأخر قد حسمت رأيها على دخول الحرب . وبالتالى فإن جيشها ، على فرض أنه كان مستعدا .. كانت بينه وبين ميادين القتال مسافات واسعة .

٤ - وربما أضيف إلى كل هذه الأسباب أن معظم الدول العربية كانت تشك فى نوايا الملك "عبد الله" وتتصور أن هدفه هو ضم فلسطين العربية إلى مملكته . وكان الظن أن تولى الملك لقيادة الجيوش العربية سوف يكبح جماح طموحه الشخصى بثقة عربية ظاهرة وصلت إلى حد اختياره قائدا أعلى لكل الجيوش العربية .

□

وكانت تحت القيادة العليا التى يتولاها الملك قيادة عامة للجيوش العربية أسندت إلى اللواء العراقى "إسماعيل صفوت" باشا . وقد وضعت هذه القيادة خططا طموحة على الورق، لكن الذين وضعوها أنفسهم كانوا يعرفون مسبقا أنها مستحيلة التحقيق ، فالقائد العام "صفوت" باشا لن تكون له فى حقيقة الأمر أى سلطة على بقية الجيوش العربية لأن هذه الجيوش سوف تكون باستمرار فى يد حكوماتها التى كانت لكل منها حسابات خاصة

تختلف أكثر مما تتفق . وكان "إسماعيل صفوت" باشا ضابطا لم يعش تجربة ميادين القتال ، وقد ترقى إلى رتبته الرفيعة ـ كما هو الحال فى معظم الجيوش العربية وقتها ـ بحكم الأقدمية ، وبتقدير أنه ضابط مأمون لا يتجاوز تفكيره حدود خرائطه .

والواقع أن "إسماعيل صفوت" باشا خسر قيادته قبل أن يمارسها . فقد حدث قبل أسبوع من بدء القتال أنه خرج من الفندق الذى يقيم فيه فى القاهرة وهو فندق "شبرد" القديم ليتريض قبل أن يحضر اجتماعا للجنة العسكرية لجامعة الدول العربية . وبجوار سور الأزبكية شاهد اللواء "صفوت" باشا مجموعة صغيرة من المارة يلتفون حول رجل يلعب معهم لعبة "الثلاث ورقات" ، ووقف القائد العام للجيوش العربية يشاهد ما يجرى ، ويبدو أن اللعبة أثارته فشارك فيها . وفى عشر دقائق كان اللواء "صفوت" باشا قد خسر كل ما معه من نقود وكان مبلغ ٢٨٦ جنيها . ولم يكتف "صفوت" باشا بخسارة أمواله ، وإنما دخل فى مشادة مع لاعب "الثلاث ورقات" وصلت إلى قسم بوليس الأزبكية . وتعطل القائد العام للجيوش العربية عن حضور اجتماع اللجنة العسكرية ، وحين وصل إليها متأخرا كانت تفاصيل حادثة النصب التى وقع ضحيتها قد سبقته إلى هناك ، وكانت دليل شؤم مبكر .

ومن مجمل الأوضاع وحقائقها أن الملك "عبد الله" مارس دور القائد الأعلى دون أن يكون بجانبه قائد عام ميدانى ينسق العمليات بين الجبهات العربية المشتركة . وفى واقع الأمر فإن هذه المهمة انتهت بطريقة عملية إلى يد الجنرال "جلوب" باشا و إلى رئيس أركان حربه البريجادير "برودهيرست" . وكان مزعجا أن تكون مقاليد العمل العربى العسكرى فى هذه اللحظات الحاسمة فى يد مجموعة من الضباط الإنجليز .

. . . .

. . . .

ويوم الأربعاء ١٢ مايو ١٩٤٨ كان "النقراشى" باشا يقف أمام جلسة سرية لمجلس النواب المصرى مكاشفا أعضاء المجلس بقرار من الحكومة بالاشتراك فى معارك فلسطين . كان رئيس الوزراء المصرى قد غير موقفه فى دورة كاملة عن موقفه الأصلى . ففى البداية كان مترددا لأسباب لديه معقولة (سبقت الاشارة إليها فى سياق برقية من السفير الأمريكى فى القاهرة إلى وزير خارجيته) . وبعدها بأيام ـ يوم ١٢ مايو ـ كان "النقراشى" باشا قد انقلب من معارض لاشتراك الجيش المصرى فى معارك فلسطين إلى مؤيد له . ومن الانصاف للرجل أنه فعل ذلك دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن القوة العسكرية للدولة اليهودية ، و إلى جانب ذلك فإن الملك "فاروق" كان يمارس عليه ضغطا شديدا

كى لا تتخلف مصر عن بقية الدول العربية ، وتفقد مكانتها فى العالم العربى وخصوصا مشرقه .

□

فى نفس اليوم - ١٢ مايو ١٩٤٨ - كان هناك اجتماع فى البيت الأبيض برئاسة "هارى ترومان" رئيس الولايات المتحدة نفسه . وقد حضره مع الرئيس كل من وزير الخارجية (آتشيسون) ومساعد الوزير (لوفيت)، و"كلارك كليفورد" و"ديفيد نايلز" و"ماثيو كونيللى" من مستشارى الرئيس فى البيت الأبيض ، واثنان من خبراء وزارة الخارجية هما "فريزر ويلكنز" و"روبرت ماكلينتوك" .

وطبقا للوثيقة رقم ١٢٤٨ - ٥/ ب ب فلسطين ٥٠١ ، فإن وقائع هذه الجلسة جرت على النحو التالى :

" بدأ الرئيس فقال إنه دعا إلى هذا الاجتماع لأنه أصبح شديد القلق على ما يمكن أن يحدث فى فلسطين يوم ١٥ مايو . وبدأ المستر لوفيت يقدم عرضا وافيا للحوادث ، ثم ركز كلامه على وقائع يوم السبت ٨ مايو حين جاء المستر موشى شرتوك مندوب الوكالة اليهودية . ففى ذلك اليوم (٨ مايو) جاء شرتوك ومعه الدكتور إيبشتين بمعلومات هامة عرضها على الوزير . قال المستر شرتوك "إن وزير المستعمرات البريطانى السير آرثر كريتش جونز أخبره رسميا بأن الملك عبد الله ملك الأردن سوف يدخل بجيشه يوم ١٥ مايو إلى الأجزاء العربية المخصصة للعرب فى فلسطين . وفى رأى وزير المواصلات البريطانى أن هذا التعهد من الملك عبد الله يمكن الاطمئنان إليه بواقع أن الجيش الأردنى يقوده ضباط بريطانيون وتموله الحكومة البريطانية . أضاف شرتوك إلى ذلك أن رسالة وصلته من الوكالة اليهودية فى فلسطين أخطرته أن الكولونيل جولدى من هيئة أركان حرب الفيلق العربى الأردنى اتصل بالوكالة اليهودية ناقلا رسالة مؤداها أن صفقة يمكن ترتيبها بين عبد الله والوكالة ، وإن الملك سوف يدخل الأجزاء العربية من فلسطين تاركا لليهود ملكية الباقى من هذا البلد.

. . . .

. . . .

تدخـل المستر كـلارك كليفـورد [٤] فى المناقشـة فأوضـح ثـلاث نقـاط :

النقطة الأولـى : إن تقسيم فلسطـين قد وقـع فعـلا بدون تدخـل قـوات خارجية.

النقطة الثانيـة : إن المستر كليفـورد توجـــه إلى الرئيس طالبـا منه أن يعـطى اعترافـــه الرسمى للدولة اليهودية فى فلسطـين فور انتهاء الانتداب البريطانى يـوم ١٥ مايـو ، وفى رأيه أن الولايـات المتحـدة يجـب أن تسبـق الاتحـاد السـوفيتى فـى الاعتراف بالدولة اليهودية .

والنقطة الثالثــة : إن الرئيس يجـب أن يعلــن فـى مؤتمـره الصحفـى فـى اليـوم التالى - ١٣ مايـو - عـزم الولايات المتحـدة على الاعـتراف بالدولـة اليهوديــة .

وقـدم المستر كليفـورد مشروع صياغـة لما يمكن أن يقولـه الرئيس فى تصريحـه، وكان نصــه : "إننى طلبت من وزيـر الخارجية أن يطلـب من ممثـل الولايات المتحـدة فـى الأمـــم المتحـدة أن يحصـل علـى اعـتراف مبكـر مـن أعضـاء المنظمـــة الدوليـة بالاعتراف بالدولة اليهودية فى فلسطـين" . واعترض مساعد الوزيـر المسـتر لوفيـت قائـلا "إن ذلك سوف يكون استباقا للأمـور لا داعى له ، فكيف يمكن أن تعلـن الأمـم المتحدة اعترافها بدولـة لم يعلـن قيامها بعـد" .

. . . .

. . . .

وافـق الرئيس على مشروع إعلان يقول "إننــى أنظـر بـروح العطــف إلى إنشـاء دولة يهودية فى فلسطين طبقا لقـرار الأمـــم المتحـدة بتـاريخ ٢٩ نوفمـبر . وعندمـا يجرى إعــلان دولـــة يهوديـــة فـى فلسطـين فـإنى أرى أن تقـدم الولايـات المتحـــدة اعترافهـا بهذه الدولـــة" ."

ثم تجــىء وثيقـة أمريكية تالية برقم ١٤٤٨ - ٥/١٠ ن ٨٦٧ ، وقد جاء فيها ما يلــى :

" تلقت وزارة الخارجية فى الساعة ٤٥ر٥ بعد ظهر يوم ١٤ مايـو ١٩٤٨ رسـالة من المستر كلارك كليفورد المستشار الخاص للرئيس ترومـان جـاء فيهـا :

"إن الرئيس عرف أن دولة يهوديـــة باسـم "إسـرائيل" سـوف يعلـن قيامهـا فـى فلسطـين فى الساعة السادسة بعد ظهر اليوم (أى بعد ربـع ساعة من رسالة كليفورد).

---

(٤) كان "كلارك كليفورد" بعد ذلك أحـــد أطراف واحـدة مـن أكـبر فضـائح البنـوك العربيـــة فـى الولايـات المتحدة، فبعض العـرب لم يجدوا غيره ليكون رجلهـم فى مشروعاتهم المالية فى أمريكا !

إن الرئيس طلب منى إخطار الوفد فى الأمم المتحدة بإعلان اعتراف الولايات المتحدة بهذه الدولة فور إعلان قيامها ."

وقد أضاف كليفورد فى رسالة الرئيس إلى وزارة الخارجية ، وقد تلقاها الوزير المفوض دين راسك (أصبح بعد ذلك وزيرا للخارجية مع الرئيس كنيدى) :

"هذا ما يرغب الرئيس فى عمله ، وقد أخطرتكم به" ."

□

فى نفس الساعات تقريبا ، وبالتوازى مع ما كان يحدث فى مجلس النواب المصرى وفى البيت الأبيض الأمريكى ، كان هناك مشهد أكثر غرابة يجرى فى عمان . فقد وصلت إلى العاصمة الأردنية السيدة "جولدا مائير" (وزيرة الخارجية ورئيسة وزراء إسرائيل) مندوبة عن الوكالة اليهودية ، وكانت متخفية فى زى رجل بدوى لموعد مرتب مع الملك "عبد الله" ملك الأردن . وكان ذلك اجتماع الساعة الأخيرة قبل أن تقترب الجيوش العربية من حدود فلسطين .

كانت الوكالة اليهودية مبكرا تحسب حسابا لبلدين : الأردن ، بحكم أن الفيلق العربى قريب بأكثر من اللازم من فلسطين ، بل إن أحد ألويته كان يعمل بالفعل فيها على مواقع من جسر اللنبى إلى القدس ، بما فى ذلك منطقة أريحا . وكان البلد الثانى هو مصر باعتبار ما تمثله من وزن سياسى وتأثير أدبى ومعنوى على بقية العالم العربى . ولم تكن لإسرائيل دعاوى دينية أو أسطورية فى الأراضى المصرية . كما أن حجم مصر كان قوة من نوع تختلف عن كل ما يحيط بفلسطين فى المشرق . وكان ذلك الحجم فى حد ذاته "طاقة" لا تريد إسرائيل أن تشتبك معها .

وفيما يتعلق بالأردن والملك "عبد الله" فقد كانت الوكالة اليهودية باستمرار على علاقة به ، كما أنه كان على علاقة بها . وفى الواقع فإن سفرة "جولدا مائير" السرية إلى عمان يوم ١٢ مايو كانت تكملة لاجتماع غير حاسم بين الملك "عبد الله" وبين "موشى شرتوك" .

وكان الاجتماع بين الملك و"شرتوك" قد جرى يوم ١٢ ابريل ، أى قبل شهر من سفرة "جولدا مائير" . وفى ذلك اليوم (١٢ ابريل) قال الملك لخاصته إنه يريد أن يزور مقام الصحابى الجليل "أبى عبيدة بن الجراح" . ويروى اللواء "عبد الله التل" القائد الأردنى

لمنطقة القدس والذى جرى اللقاء فى منطقة قيادته ، إن الملك وصل إلى مزرعة أحد أصدقائه فى منطقة الغور ثم مشى من بين الأشجار إلى مستعمرة مشروع "روتنبرج" (للكهرباء) ، وهناك كان فى انتظاره "موشى شرتوك" الذى دعى للغداء معه على مائدة مضيفه . ويظهر أن الاجتماع لم يصل إلى نتيجة مرضية ، وبقيت الاتصالات معلقة بعده مرتبطة باجتماع يعقد سرا فيما بعد فى عمان . لكن "شرتوك" كان قد أوفد إلى نيويورك ، وقررت الوكالة اليهودية أن تقبل تطوع "جولدا مائير" لأداء المهمة بدلا منه .

وليلة ١٢ مايو وصلت سيارة يقودها أحد رجال الملك إلى منطقة الغور و إلى نفس المزرعة التى تم فيها لقاء الملك مع "شرتوك" قبل شهر . وفى الساعة التاسعة كانت "جولدا مائير" ترتدى الكوفية والعقال وعباءة فوقها وتدخل إلى خلفية السيارة ، ثم تتوجه مباشرة من هناك إلى بيت للملك على أطراف عمان . كانت الساعة الحادية عشرة مساء ، وطبقا لوصف اللواء "عبد الله التل" فإن "جولدا مائير" كانت مضطربة ولم تتناول عشاء أمر الملك بإعداده . ولاحظ الملك اضطرابها فراح يلاطفها لتهدئة مشاعرها ، وقد راحت بعد ذلك تعرض عليه آخر مقترحات الوكالة اليهودية ، وكانت على النحو التالى :

١ - أن يعلن جلالة الملك الصلح مع اليهود ، ولا يبعث بجيشه إلى فلسطين بالمرة .

٢ - أن يرسل جلالته واليا ليحكم القسم العربى من فلسطين بحسب قرار التقسيم.

٣ - فى مقابل ذلك تقبل الوكالة اليهودية ضم القسم العربى من فلسطين إلى التاج الهاشمى .

وروى اللواء "عبد الله التل" أن "جلالته رفض تنفيذ الشرط الأول لأنه يظهره بمظهر الخارج على الاجماع العربى . وتعهد الملك فى مقابل ذلك " ألا يحدث صدام بين جيشه وبين الجيش اليهودى" ، وأن يقف الجيشان فى الحدود التى رسمها التقسيم . "وقبلت "جولدا مائير" رأى "جلالة الملك" وأخذت عليه العهد بذلك" .

والغريب أن الإنسان العربى العادى ، وبغير معلومات ، كان بشعوره الباطن يحس بأن موقف الملك "عبد الله" فى الباطن غيره فى الظاهر . وجرى فى سهل أريحا فى اليوم التالى مشهد بالغ الغرابة حين وقف الملك ، غداة اجتماعه مع "جولدا مائير ، يستعرض فرقة من جيشه كانت تعسكر بالفعل فى المنطقة ، وقيل إنها ذاهبة إلى القدس لحمايتها .

بدا المشهد مهيبا . فسهل أريحا منبسط ، وتلال "الخان الأحمر" تبدو من بعيد غامضة مثقلة بعبء الأساطير ، وفرقة الجيش الأردنى مصطفة وموسيقاها تدق ، والملك "عبد الله" واقف على منصة مرتفعة ووراءه يقف الجنرال "جلوب" باشا وأركانات

حربه من الضباط الإنجليز . ونادى الملك على إمام مسجد عجوز وضرير دعى إلى حضور الاحتفال ، وقال له : "أيها الشيخ .. عظ الجيش" .

ووقف الشيخ العجوز الضرير على المنصة بجوار الملك وهو لا يرى شيئا ولكنه يحس بكل شىء . صمت لحظات وأنظار الكل وآذانهم معلقة به ، ثم صاح مناديا : "أيها الجيش ، ليتك لنا" .

فوجئ الملك بما قاله الشيخ ، وهمس قائلا : "قبّحك الله ، ضرير أعمى بعينيك وأعمى بقلبك" . واقتيد الشيخ من المنصة ، لكن آفاق أريحا كانت تتجاوب بأصداء الحقيقة . فالجيش الأردنى بالفعل كان جيشا عربيا ، لكنه فى تلك اللحظة من تاريخه لم يكن ملكا للعرب .

٤

بــن جـوريــــــــون (٢)

" الجامعــة ليسـت جامعــة وقراراتهـا ليســت قــرارات "

(الملك "عبـد اللـه" لـ"إليـاهو ساسـون" عـن اجتماعـات الجامعة العربيـة)

كان موقف الحركة الصهيونية تجاه مصـــر شحنــة تناقضات مكهربــة ، وذلـك لـدواع قديمة وجديـدة :

● بالديـن وبالتاريـخ وبالأساطـير فإن مصـر هى العـدو الذى أخــرج اليهـود مـن وادى النيـل إلى تيـه الصحراء ، ومع أن هناك كـلاما كثـيرا يمكن أن يقـال فى هـذا الشـأن ، فـإن العـبرة ليست بتحقيق الوقـائع أو تدقيقهـا ، وإنمـا مخـاطر الأمـر فـى النهايـة هـى موقــف أصحاب الشـأن أنفسهـم ومن منظورهـم . فإذا كانت مصـر هى العـدو فى كل ما ترسـب من الـتراث اليهودى ، فمعنى ذلك أنها العـدو بالفعل ، لأنـه ليـس فـى مقـدور الحاضـر مهمـا فعـل أن يمحـو الموروث أو يحوّله إلى سحابات دخان . ولو أن ذلـك حـدث بمعجـزة خـارج الخيال ، فإن الدعاوى الصهيونية كلها يمكن أن تتحوّل إلى وهـم لا علاقـة لـه بالحاضـر أو بالمستقبـل .

● يضاف إلى ذلك أن المشروع الصهيونى المتكئ أساسا على استراتيجية عـزل مصـــر عن الشـام ، يواجه فى المحصلة الأخيرة طاقـة مصـر التاريخية بثوابتها ، وإمكانيات مصـــر المعاصرة بكل ما يعتريهـا مـن عوامـل النهـوض أو عقبات التعـثر أو عـوارض الانكمـاش والتراجـع .

وإذا صح ـ وهو صحيح ـ أن فلسطين هى الجسر الذى يربـط مصـر وسوريـا ..

وإذا كان لازما وقد رآه "نابليون" و"بالمرستون" ومن بعدهما لازما ـ أن يتحول الجسر إلى حاجز ـ إذن فإن مكمن الخطر الوحيد على هذا الحاجز هو فى مصر ، فهى فى الشرق كتلة إنسانية متماسكة وراسخة وقادرة بالكم الموجود ، وبالكيف المحتمل ، على عرقلة المشروع اليهودى فى فلسطين بمقاومته ، أو التصدى له ومحاربته .

وعلى العكس من الكتلة الإنسانية المصرية فى الجنوب ، فإن الشمال والشرق من حول فلسطين كانا أقل تماسكا من ناحية الكم ومن ناحية التباين الطائفى والمذهبى ـ وأحيانا العرقى ـ بما يسمح بوجود حالة من الخلخلة يسهل على المشروع الصهيونى استغلالها والنفاذ من ثغراتها المفتوحة .

هكذا فإن حسابات المشروع الصهيونى فى فلسطين كانت تولى اهتمامها الأول لسياسات القوى العظمى الحاكمة فى المنطقة ، ثم يلى ذلك مباشرة على أرض الصراع نفسها الاهتمام بمصر .

ولم تكن المؤسسات الصهيونية التى برزت لمسئوليات المشروع الصهيونى فى فلسطين على استعداد للتطوع مبكرا بجرّ مصر إلى الصراع العربى ـ الإسرائيلى . ولا كانت راغبة فى استفزازها بغير داع . وكانت هناك اعتبارات تساعد على هذا الموقف الحذر تجاه مصر :

- ليست لليهود مطالبات دينية أو أسطورية فى مصر .
- وبحجم مصر وإمكانياتها فإنه من الأفضل تفاديها .
- ثم إن هناك جالية يهودية قوية فى مصر .
- وهذه الجالية اليهودية فى مصر نشيطة فى موقع هو الأشد قربا من أرض المشروع الصهيونى .
- ثم إن هناك تيارات فكرية لها قيمتها فى مصر تنظر شمالا عبر البحر الأبيض ولا تنظر شرقا عبر سيناء .

وهذا كله يتيح فرصة بدت نادرة ، ومؤداها أنه يمكن استغلال العدو القديم فى تحقيق المشروع المستجد ، شريطة التعامل معه بذكاء وبعد نظر .

وفى الساعات الحاسمة فى مشروع إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، كانت الوكالة اليهودية منهمكة فى ثلاث عمليات فى نفس الوقت :

- عملية خارج المنطقة تتمثل فى تحقيق الاستخدام الأمثل للموارد اليهودية فى العالم ، خصوصا فى الولايات المتحدة الأمريكية .

- عملية داخل أرض مشروع الدولة ذاته ، وهى تتمثل فى الإسراع بكل وسائل القوة إلى خلق حقائق جديدة على الأرض ، بما فى ذلك مشاغلة الملك "عبد الله" واستغلال طموحه إلى ضم الأراضى المخصصة للدولة العربية فى فلسطين إلى مملكته الصغيرة التى لم يعتبرها قط لائقة به .

ثم كانت العملية الثالثة :

- متابعة تطور موقف مصر السياسى ، ثم العسكرى .

لم يكن كثيرون يعرفون أن "دافيد بن جوريون" ـ وهو المؤسس الفعلى لمشروع الدولة اليهودية فى فلسطين ـ يكتب يومياته بانتظام ، ولا يأوى إلى فراشه فى الليل مهما تأخر به السهر ، حتى يخط بقلمه وقائع ما عاشه طوال النهار .[٥]

وفيما بعد ذاع أمر يوميات "بن جوريون" . وحاول "بن جوريون" أن ينكر أنه كتب يومياته . ولكن الكاتب المجرى اليهودى الذائع الصيت "آرثر كوستلر" صاحب كتاب "الظلام فى عز الظهر" روى أنه بنفسه شاهد "بن جوريون" يكتب بعض النقط فى كراس أثناء حديثه معه . وحين سأله ، حاول "بن جوريون" أن ينفى كتابة يوميات . ثم تحقق الأمر بعد ذلك ، واعترف "بن جوريون" ، ولم يمانع فى نشر يومياته بعد وفاته . وهكذا فإن كتابات "بن جوريون" عن الحوادث فى وقت جريانها تعطى الآن صورة مدهشة للطريقة التى كانت القيادة اليهودية فيها تدير عملياتها على الجبهات الثلاث : أمريكا ـ وفلسطين ذاتها ـ ومصر .

□□ الاثنين ١ ديسمبر ١٩٤٧ ـ القدس

. . . .

. . . .

فى الثالثة من بعد الظهر اجتمعت إلى المندوب السامى (الجنرال ألن كاننجهام) . سألنى هل سعدت بالقرار (قرار التقسيم) ؟ قلت له إننى بعد صدور القرار أجدد الدعوة

---

(٥) نشرت مذكرات "بن جوريون" باللغة العبرية بعنوان "يومان هملحماه" سنة ١٩٨١ ، وقد صدرت عن دار النشر التابعة مباشرة لقيادة الجيش الإسرائيلى ، وأشرف على إصدارها اثنان من المؤرخين الإسرائيليين هما "جيرشون ريفلين" و"إلحانان أورن" . وقامت مؤسسة الدراسات الفلسطينية سنة ١٩٩٣ بنشرها باللغة العربية بعد أن ترجمها الأستاذ "سمير جبور" وراجعها الأستاذ "صبرى جريس" .

له ولحكومة جلالته إلى الافتراق بطريقة ودية . لن أطلب شيئا ضد العرب أو على حساب العرب. إننا لن نفعل شيئا كهذا ، ولدينا حسن نية ، وتستطيعون الرحيل عن البلد بلا مبالاة وجفاء إذا أردتم ، أو بتعاون ودى معنا وهذا ما نطلبه . قلت له عندى مجموعة من القضايا :

"إنكم تقومون بتصوير وثائق ملكية الأراضى خشية إتلافها فى حال وقوع اضطرابات . نريد نسخة واحدة لنا ." أجاب على الفور : "ستبقى الوثائق كلها فى مكانها لمصلحة السكان . إنهم يصورون فقط فيلما سلبيا (negative) وهو يكلف أموالا كثيرة ـ خمسة آلاف جنيه ـ ." سألته : "هل يمكن استخراج نسخة لنا ؟ قال "سيسأل" .

انتقلت إلى القضية الثانية ، وهى مخزون المواد الغذائية . قلت له : "من المؤكد أنكم ستتركون مخزونا محدودا لا يكفى إلا لفترة قصيرة ، ونظرا لأننا لا نعرف ما يمكن أن يحدث فإننا نريد إعداد مخزون كبير ، ونريد استيراد كميات من المواد الغذائية خصوصا الدقيق والسكر ." أجاب أنه "سيجرى مشاورات" .

بالنسبة للوقود لاحظت أن شركات الوقود لجأت الآن إلى البيع بالبطاقات . قال إنه لا يعرف السبب فهذا شأن الشركات . قلت له إننا سندبر أمرنا مع الشركات إذا لم تعرقل الحكومة جهودنا .

أثرت مرة أخرى معه مسألة بيع كل أملاك الجيش البريطانى فى فلسطين ، بما فى ذلك الخيام والأسرّة ، وقلت إننا نريد أن نشترى كل شىء بالجملة ، ونريده أن يوصى بذلك .

قلت له أيضا فى ضوء الوضع الجديد إننا نريد إقامة إذاعة مستقلة فى تل أبيب . قال : سنعطيكم إمكانيات الإذاعة الحكومية . قلت : ولكن ذلك يجعل إذاعاتنا خاضعة للرقابة . قال : طبعا ، ما دمنا هنا فنحن الحكام . قلت : نريد إذاعة يهودية من تل أبيب . قال : إن العرب لم يتقدموا بمثل هذا الطلب ، وإذا حصلتم على تصريح فقد يطلبون نفس الشىء . قلت : لا ينبغى أن نعاقب لأن العرب لم يطلبوا . وعلى أى حال لا يهمنى إذا أقيمت فى نابلس إذاعة عربية . قال إنه سينظر فى الأمر .

انتقلت إلى قضية أكثر خطورة . قتل سبعة من اليهود أمس ، ونحن نريد حراسة مسلحة تواكب كل حافلة ركاب . ونحن لا نريد سفك الدماء ولا الانتقام ، بل إمكانية الدفاع. قال إنه يفهم ، وسيعرض الأمر على المجلس التنفيذى . طلبت تصريحا لشراء مسدسات ورشاشات لرجال الشرطة اليهود ، وسيارات مصفحة أيضا .

. . . .

. . . .

ـ قبل المساء نزلت إلى تل أبيب . كلمنى موشى شرتوك هاتفيا من نيويورك . كان ببساطة يريد أن يكلمنى . فى نيويورك هرج ومرج . لمح لى أنهم فى لندن يريدون التحدث إلينا ، وقال إنه سيحضر إلى هنا عن طريق لندن . سألته عن العتاد العسكرى ، وسوف يسافر إلى واشنطن لهذا السبب .

. . . .

. . . .

□□ ٢ ديسمبر ١٩٤٧

. . . .

. . . .

ـ حضر أعضاء الحزب . بنحاس نافون عليه إعداد خطة لمعالجة المشكلة العربية.

ـ موشى هاليفى يطالب بإعداد نشيد وطنى جديد . يعقوب دورى يقترح عمليات ضد شركات النقل والمواصلات العربية . يقترح أيضا ضرب مرافق المياه . إسرائيل جاليلى يوافق .

. . . .

. . . .

ـ طلبت من موشى أفربوخ الذى يسافر اليوم إلى الولايات المتحدة أن يبعثوا إلينا بنصف مليون جنيه اضافية . شلومو جور يطلب ٤٤٫٨٨٤ جنيها لبدء الإنتاج فى إدارته (إدارة الأسلحة الكيميائية) بمساعدة الدكتور أشر شفايجر (عالم كيميائى) .

ـ حضر إلى يوسف بيرتس من صفد . هناك ذعر والعرب يخرجون من الأحياء اليهودية .

ـ اجتماع لدراسة الضباط وضباط الصف المؤهلين بين المهاجرين الموجودين فى أوروبا :

فى ألمانيا والنمسا : ضباط هيئة قيادة ٢٦٤ ضابطا ـ جنود بعدد ٢٠٥٤ .

فى فرنسا بما فيها شمال أفريقيا : ضباط قيادة ٢٨٨ ـ جنود ١٠٨٠ + ٢٠٠ + ٢٣٨ أنفار من الرتبة "أ" .

فى هنجاريا : ضباط ٢٤٣ ـ جنود رتبة "أ" ١٥٠ + رتبة "ب" ٩٠٠ .

فى تشيكوسلوفاكيا : ضباط ٤٥ ـ جنود رتبة "أ" ١٩٨ .

فى رومانيا : ضباط ٥٠ ـ جنود ٧٠ ، رتبة "ب" + ٧٠٠ .

فى رومانيا مدرسة دائمة تدرب ٨٠ ـ ١٢٠ قائد جماعة كل ٦ أسابيع .

. . . .

. . . .

ـ إسرائيل جاليلى يقول إن كورتيس تحدث مع قادة قوات الإيتسل ، يريدون أن يبقوا كتنظيم مستقل بعيدا عنا حتى يتمكنوا من زحزحة الحدود ومحاربة العرب حتى إذا التزمنا نحن بشيء .

❑❑ ١١ ديسمبر ١٩٤٧

. . . .

. . . .

ـ سالفين (المهندس حاييم سالفين ، وهو أحد مؤسسي الصناعات العسكرية فى إسرائيل) أبلغنى : سينتهى هذا الأسبوع تصنيع ٢٠٠٠ رشاش يدوى ـ وفى هذا الشهر يتم إنتاج ٢٥٠ ألف طلقة ـ استأنفوا إنتاج مدفع هاون ٣ بوصة ـ ينتجون ٥٠٠٠ سْتِنْ (رشاش يدوى) ـ على وشك الانتهاء من إنتاج ٦٠ ألف قنبلة ميلز ـ سنحصل من أمريكا على ٥ أطنان بلستيد ، ومن إيطاليا على ثلاثة ونصف . يتطلب صنع مليون طلقة بندقية ٢ طن من البلستيد . سيصل من إيطاليا ثلاثة أطنان وربع T.N.T. (ديناميت) ، وسيصل من أمريكا ٢٥٠ طنا . اللجنة المالية حولت مليونا وربع مليون دولار للصناعات الحربية.

ـ شلومو جور أبلغنى أن مصنع الكوريت سيبدأ العمل فى أواخر ديسمبر، وخلال يناير ينتجون ٣ أطنان ، وبعد ذلك ٤ أطنان كل شهر . من الجائز أن يتمكنوا من إنتاج الديناميت بدون حامض النيتروجين ، وهذا لا يزال سرا . مصنع القنابل المسيلة للدموع أعطى إنتاجه لهذا الشهر لرجال القدس . يفرغون الشهر القادم من صنع ٦ آلاف قنبلة . رتبوا طاقة إنتاج ثلاثة آلاف لغم يوميا .

ـ عزرا دانين لا يقبل فرضية إلياهو ساسون بأن المعارضة للقيادة العربية قد اختفت . إنها قائمة تنتظر زوال ثورة الغضب . إن قواتها كطابور خامس فى المعسكر العربى لا تزال قائمة كما هى . الملك عبد الله لن يخضع لضغط الجامعة العربية . القاوقجى قائد جيش الإنقاذ يريد الاجتماع إلى ممثلين عنا .

ـ تناولت الغداء مع مينا ميريدور وإسرائيل جاليلى والياهو ساسون . وصل من ايطاليا ٥٠٠ رشاش ، و١٧٠ بندقية ألمانية ، وربع مليون طلقة ٣٠٣ ، و٣٠٠ ألف طلقة ٩ مللم ، و ٣٠٠ ألف طلقة من عيارات صغيرة للمسدسات ، إضافة إلى كمية من أمشاط الذخيرة لرشاشات البرن ، وأجهزة بصرية . واشتروا إضافة إلى ذلك نصف مليون طلقة صغيرة (٣٧ ألف دولار) ، وثلاثة ونصف طن T.N.T (٢٦ ألف دولار) ، وثلاثة ونصف طن بلستيد (١٥ ألف دولار) ، وأجهزة اتصال (٦٠ ألف دولار) . صرحت بطلبية جديدة للذخيرة (١٠٠ ألف دولار) .

ـ الحاخام حاييم ناحوم (حاخام مصر) تكلم هاتفيا مع ماجنس (رئيس الجامعة العبرية) يطلب منه الذهاب إلى مصر . كان قد بعث له برسالة يوم ٩ ديسمبر أشار فيها إلى مسائل تتعلق بالسلام . سألت ماجنس : هل يعنى هذا الأمر مفاوضات ؟ قلت له إننا مستعدون للتباحث مع مصر بصورة رسمية أو غير رسمية ، ولكن كطرف متساو .

ـ يهودا أرزى منسق شراء السلاح فى الولايات المتحدة اشترى ثلاث طائرات كونستيليشن وعشر طائرات سى ٤٦ .

. . . .

. . . .

□□ الاثنين ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧ ـ القدس

. . . .

. . . .

ـ نحن نتنصت على المكالمات الهاتفية للهيئة العربية العليا ، والمسجد (الأقصى) ، والدكتور الخالدى وعدد آخر . يبدو أن عالم الاجرام يتجمع هناك . يتضح من المكالمات أنه لا يوجد تنسيق بينهم .

ـ الجامعة العربية اتخذت بمقدار ما نعرف من الصحافة ومن عرب ومن مكالمات تليفونية سبعة عشر قرارا . ساسون يعرف تسعة منها . ربما سنعرف من أحد الأشخاص فى شرق الأردن ما إذا كانت القرارات نهائية ، وما إذا كان شرق الأردن موافقا عليها . لا بد من هزيمة الهيئة العربية العليا بطريقة ساحقة .

ـ تايجر يبلغ من جنوب أفريقيا اتفاقا على تدريب عشرين طيارا وملاحا فى جنوب أفريقيا ، وخمسة عشر ميكانيكيا مهمين بالنسبة لنا لأنهم خدموا فى الطيران خلال الحرب (العالمية) .

ـ الساعة الثانية عشرة والربع عاد ساسون بعد أن قابل مندوبا عن الملك عبد الله. المندوب كان مع الملك قبل قليل وسأله عما يقوله لنا . الملك قال له : قل لهم الجامعة ليست جامعة والقرارات ليست قرارات . ونقلا عن الملك فقد طرحوا فى الجامعة مشروع قطع العلاقات مع الغرب كلام فارغ هل ابن سعود سيقطع علاقاته مع الأمريكيين ؟ كل واحد فى العالم العربى يزايد على الآخر . حتى العراق وشرق الأردن طالبا بقطع العلاقات . شرق الأردن طالب بالخروج من الأمم المتحدة . البيان الذى صدر بعد انتهاء اجتماعات الجامعة كان موجها لتغطية الفشل العربى . شرق الأردن لم يوافق على أى قرارات . مندوب الملك أعطى لساسون صورة للموقف . مصر أعلنت صراحة أنها لن تقدم سوى المال والدعاية والعمل السياسى ، لكن لا سلاح ولا جيش . ربما تسمح لمتطوعين . لبنان قال إنه لا يستطيع تقديم أكثر من ٥٠٠ بندقية . سوريا لها حسابات أخرى . السعودية ستعطى دولارات .

ساسون سأل مندوب الملك عن الفيلق العربى . أجاب : الملك يطلب أن تثير صحافتكم ضجة فى شأن الفيلق العربى وتطالب بنقله من مواقعه . وفى هذا الوقت تجنبوا الاشتباك معه . واطمئنوا ، فالسيطرة على الفيلق هى فى يد الإنجليز .

ـ عقدت اجتماعا لبحث فرص ضرب العملتين المصرية والسورية . المسألة المهمة : كيف ؟ بالنسبة للعملة السورية شمعونى يظن أن هذا ممكن لأن فرنسا تغطى العملة السورية .

. . . .

. . . .

☐☐ الخميس ١ يناير ١٩٤٨

. . . .

. . . .

— هذا الصباح زارني في منزلي وفد من جمعية الجنود المسرحين يريدون أن يخدموا معنا ويتساءلون لماذا لم يتم استدعاؤهم . العدد ١٢٫٢٥٠ .

— يجب أن نعتمد في عملنا على أسلوب الضربة الكبيرة . ليست المسألة إطلاق نار متواصلا ، وإنما ضربة قوية كبيرة وناجحة . إذا سمع المتطوعون في البلاد المجاورة عن ضرباتنا الكبيرة هنا فسوف يترددون قبل المجيء .

— يحيرني موقف الملك عبد الله . في كل علاقاتنا به تبرز دائما مسألة الفيلق العربي . ميزانية الأردن كلها ٧٥٠ ألف جنيه ، لكن ميزانية الفيلق العربي مليونان ونصف المليون جنيه ، والإنجليز هم الذين يمولونه . والآن عندما ينسحب الإنجليز فمن الذي سيموّل الفيلق العربي ؟ وصل نبأ أن الفيلق سيواصل العمل باسم الجامعة . الملك سيعيره إلى الجامعة كما أعاره للإنجليز في مقابل ستة ملايين دولار .

قضية الفيلق غير واضحة .

. . . .

. . . .

☐☐ ١٧ يناير ١٩٤٨

. . . .

. . . .

— قواتنا في النقب الآن ١٢٠٠ مضافا إليها ٥٠٠ فرد في وحدات متنقلة . لا بد من تحصين النقب وإنشاء مستوطنات مؤقتة فيه حتى على أرض ليست لنا (النقب ملاصق لمصر) . إذا لم نحتفظ بصحراء النقب فإن تل أبيب لن تصمد . النقب مهم لإيلات .

. . . .

. . . .

□□ ١٩ ينايــر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ مندوبنا عـاد من مقابلة مع الملك عبـد اللـه . الملـك مندهـش لأننا لا نفهمــه ولأننـا نتهمـه كما لو أنه يؤيـد الجامعـة . موقفـه بـاق كما هـو :

١ ـ لـن يسمـح للفيلـق الأردنـى بمهاجمـة يهـود .

٢ ـ ما دام البريطانيون فى البلـد فإنه لا يستطيع التدخـل .

٣ ـ الإنجليز لـم يتكلموا معه حتى الآن لكن فـى ٢٤ مـن هـذا الشهــر سيسـافر رجالـه وأصدقاؤنا إلى لنـدن لإجراء مفاوضات وسنطرح مسألة مستقبل أرض إسرائيل .

٤ ـ سيتخذ مبعوثوه فى لندن موقفا بأنه موافق على التقسيم ، ولكن تقسيم لا يخزيه .

٥ ـ وهو يقـول إننا قد نضطـر إلى تعديـل الحـدود .

ـ الملـك طلـب أن نحصـل له علـى دعــم مـن أمريكـا . وفوضنـا أن نقـول للأمريكـان باسمه إنه موافق على التقسـيم ، ومستعد للموافقة علـى تهدئــة البلــد ، ولا يريـد أن يكـون مرتبطا بالإنجليز وحدهم . أبلغنا الملــك أننـا سـنؤيده وسنسـاعده فـى الحصـول علـى قــرض لتطوير دولته كلها ، وسنعطيه بأنفسنا من أمـوال الدولة اليهودية .

. . . .

. . . .

□□ الخميـس ٢٢ ينايــر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ جورج حكـيم مطـران الـروم الكاثوليــك صديــق للملـك فــاروق . دافيـد هاكوهــين تحدث إلى حكـيم قبل سفـره واقـترح عليه أن يشـرح موقفنـا للملك فـاروق .

. . . .

. . . .

□□ ٢ فبرايـر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ طلبت إعـداد خطـة كاملة لإيـلات لا بد أن نأخذها . فى إيـلات صعوبتان :

(أ) يجب المرور فى ميـاه مصـر الإقليمية قبل عبور قناة السويس وبعد عبورها .

(ب) عـرض مدخل إيـلات ميلان ، ولا بد من المـرور فى الميـاه الإقليميـة المصريـة أو السعوديـة قبل الوصـول إليها .

. . . .

. . . .

□□ ٩ فبرايـر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ ساسـون لـم يتمكن من حضـور اجتماعنـا اليـوم لأن صديقـه القبطـى[٦] وصـل مـن القاهـرة موفـدا من قبـل المسئولين فى بـلاط الملـك ، وهو يريد الإبـلاغ عن ثلاثـة أمـور :

(أ) إنجلترا تضغـط على الـدول العربيـة بالخطـر الشيوعـى اليهودى .

(ب) إنجلترا تطلب بدعـم من أمريكا أن تعلـن الدول العربيـة أنه فى حالة نشـوب حـرب بين الدول العظمـى فإنها ستلتحق بالجانب الأنجلـو ـ ساكسونـى .

(جـ) إنجلترا وأمريكـا تريدان عقـد تحالفات اقتصادية مع العالم العربـى بـدلا مـن تحالفات سياسيـة .

. . . .

. . . .

---

(٦) على الأرجح "إليـاس أنـدراوس" باشا مستشار الملك "فـاروق" للشئون الماليـة .

□□ الجمعة ١٣ فبراير ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ــ يظهر أن النقب سوف يكون الموضوع الأساسى الآن حتى فى نظر الأمريكيين . لا يريدون أن يتسلم اليهود النقب .

. . . .

. . . .

□□ الأحد ٧ مارس ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ــ يقول ساسون إنه لا يوجد حتى الآن اتصال مع الملك عبد الله مع أنه كان من المفروض أن يأخذوه مساء اليوم إلى مقابلة معه . يقول ساسون ، ورءوف شلواح يؤيده ، إن النزاع مع العرب لن يحسم بالقوة حتى النهاية . ويجب المحافظة على نقاط ثلاثة يمكن بواسطتها التكلم عن تفاهم . يجب محاورة مصر ولبنان وسوريا فى بلاد الغرب : فى فرنسا ، فى سويسرا ، فى إيطاليا مثلا .

ستكون فرنسا وتركيا والهند معنية فى إحلال السلام فى البلد . يقترح ساسون سفر إلياهو إيبشتين إلى الهند ، إلى نهرو وليس إلى جناح زعيم المسلمين . شلواح يقترح أن يسافر ساسون إلى روما أو إلى باريس للاتصال بالعرب . سألت ساسون : هل يئست من ملكك ؟ قال : كلا ، لكنه عاجز . وقال شلواح : إن الإنجليز يحاصرونه .

. . . .

. . . .

□□ الاثنين ٣١ مارس ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ الدكتور أ. ن. فولك ـ (خبير أمريكي بالشئون العربية) ـ في رأيه أنه يجب التخطيط للتخريب في الدول العربية : العراق ومصر وسوريا . سدود الري في مصر يجب تدميرها . مخازن القطن المصري يجب حرقها ، وكذلك مخازن التمور العراقية . وإذا وصلنا إلى صدام مع هذه الدول فيجب ضرب أنابيب النفط خارج أرض إسرائيل . ولا بد أن نحدث فوضى مالية في المنطقة العربية ويجب أن نسبب تضخما . ويمكن الافتراض أن العرب سيزيفون العملات ، ويجب أن نسبقهم .

. . . .

. . . .

□□ ٢٠ ابريل ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ استدعيت ساسون . الملك عبد الله يزداد شأنا كل يوم . توصل الجميع إلى اقتناع بوجوب استخدام قوته (الفيلق العربي) . الجامعة العربية وجدت أن العصابات العربية تتلقى ضربات ، وتوصلت إلى اقتناع بضرورة وجود جيش نظامي والفيلق العربي هو هذا الجيش . الجامعة العربية اتخذت قرارا باستخدام جيش نظامي ، وبموجب هذا القرار من المفروض حضور جيش من لبنان وسوريا والعراق وشرق الأردن ، وربما حضور قوة رمزية من مصر أيضا .

ـ يعتقد عبد الله أن هذه الجيوش جميعها لن تصمد وقتا طويلا . وهو وحده القادر على وراثتها لأنه وحده يملك جيشا غير ضروري لبلده . إن الضربات التي وجهتها الهاجاناه إلى المتطوعين العرب حملت المفتي وعرب أرض إسرائيل على الاقتناع بأنهم لا يستطيعون بقوتهم وحدها مواجهتنا . أصبح المفتي الآن معتمدا على الجامعة العربية كليا . والجامعة تدرك أن المسألة لم تعد مسألة متطوعين بل قوة نظامية ترافقها أسلحة ثقيلة : دبابات وطائرات .

. . . .

. . . .

□□ ٢ مايــو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ــ عـدت هذا الصباح إلى تل أبيب . عـاد شلومو رابينوفيتش (غيّر اسمه بعـد ذلك إلى شامير وأصبح رئيسا للـوزراء فـى الثمانينـات) . فـى جيشـر قـابل شلومـو كـلا من العقيـد جولدى والرائد كوكـر من الفيلق العربـى . ضابط الفيلـق العربـى طلـب أن يتحـادث معـه . تكلموا باسم جلـوب باشـا قـائد الفيلـق ، يريـدون إقامـة اتصـالات مـن أجـل الحيلولـة دون نشـوب حـرب . سألوا إذا كنا نريد احتلال البلـد كله . كان الجواب عليهم أن الحدود مسألة تخـص رجال السياسـة ، لكن قواتنا قادرة على احتلال البلـد كله . سـألوا : هــل سـنهاجم القـدس بعد حيفـا ؟ كان الـرد بأن القـدس مدينة عبرية . قالوا إن الفيلـق لا يريد مصادمتنا ، لكن ماذا سيفعلون حتى لا يظهروا خونـة . سئلوا : ما هى التوجيهات السياسيــة عندهــم ؟ كان ردهـم غير واضـح .

. . . .

. . . .

□□ ٧ مايــو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ــ جلسة مع القيادة . ييجال يادين ـ ييجال آللون . مناقشة الوضع العسكرى فى كل البلد . قـرار بإرسال وحـدة استطلاع إلى مصـر . لا بد مـن مراقبـة حركـة السـير علـى كـل الطرق المصرية الواصلة إلى سينـاء .

. . . .

. . . .

□□ ١٣ مايــو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ــ جلسة قيادة . أبرقت إلى جرانوفسكى لكى يفتح اعتمادا بمليون و٧٠٠ ألف دولار من أجل الطائرات . أثناء الجلسة حضرت جولدا (مائير) من اجتماعها مع الملك عبد الله . نظرت إليها كى تعطينى فكرة سريعة . أعطتنى بطاقة كتبت عليها : "اجتماعى معه كان بروح ودية . هو قلق جدا ووجهه مكفهر . يعترف بكل ما دار بيننا . وهذا يعنى أنه سيأخذ القسم العربى فقط . لكنه ليس الآن سوى واحد من خمسة ."

ــ النقب مهم . بحثنا هل يجب الاستيلاء الآن على بئر سبع ، وهى خارج حدود الدولة بمقتضى خريطة التقسيم ؟ اتجاه المعارك هو الذى سيقرر ذلك .

. . . .

. . . .

□□ ١٥ مايــو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ــ أيقظونى مرتين فى هذه الليلة . فى الواحدة كى يبلغونى أن ترومان يعترف بالدولة اليهودية ، وفى الرابعة والنصف كى يبلغونى أن رجالنا فى أمريكا يطلبون منى أن أتحدث فى الإذاعة فورا . بينما كنت أتحدث فى الإذاعة وقعت غارة جوية . قلت على الهواء : إنهم يقصفون تل أبيب . هناك سفينة مصرية تحمل قوات راسية قرب المجدل . ويبدو أن الإنجليز طلبوا من المصريين عدم التقدم شمالا . خبر من إذاعة الجيش هذا الصباح بأن جيشا مصريا سيدخل حدودنا صباح اليوم .

. . . .

. . . .

□□ ٢٤ مايــو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ــ الضغـط قـوى فى النقـب . هناك كتيبة مصريـة مع مدافع يســاعدها متطوعـون مـن رجال الإخوان المسلمين موجودون فى النقـب منـذ وقـت طويـل . فـى بـئر سبـع مصريـون أيضا. القتال حول عـراق سويدان والفالوجا والمنشية شديـد . ركزنا عليهم هجوما ، وقد ثبتـوا فى مواقعهـم .

ــ اتخذنا قرارا بتعيين ماكليـف قائــدا للـواء الكرمـل مهمتـه احتـلال جنـوب لبنـان بواسطة قصـف صـور وصيـدا وبـيروت من الجـو . سنقصـف بـيروت من البحـر أيضا .

تكليف ييجال آللـون ضـرب جيـش سوريـا من الشـرق والشمـال .

ينبغـى أن يقوم سلاحنا الجـوى بقصـف عمـان .

إن الحلقة الضعيفة فى التحالف العربـى هى لبنـان إذ إن سلطـة المسلمين فيها مصطنعـة ومن السهـل تقويضها . يجب إقامة دولـة مسيحية فـى لبنـان يكـون نهـر الليطـانى حدهـا الجنوبـى . سنعقـد حلفـا مع هذه الدولـة .

سنقضـى أيضا على قـوة الفيلـق العربـى وعندها تسقـط سوريـا .

إذا تجـرأت مصـر على مواصلـة القتال سنقصـف بورسعيـد والإسكندريـة والقاهـرة .

وهكذا سننهى الحـرب وسوف نصفى حساب أجدادنا مع مصـر ومع آشـور ومع آرام .

٥

بـرنـــــــــادوت

" الدولة اليهودية تريـد أن تأخـذ موقـع مصـــر
في الشـرق الأوسـط "

(دراسة لوزارة الخارجية المصرية سنـة ١٩٤٨)

لقد سـال حـبر كثير على الـورق عن حـرب فلسطـين ، بأكثر مما سـال دم فى معاركهـا على مختلف الميادين . وهناك مراجع كثيرة عن هـذه الحـرب أبرزهـا "مذكـرات اللـواء عبـد اللـه التـل" قائد قـوات الفيلق الأردنـى فى القـدس . ثم دراسـة اللواء "حسـن البـدرى" عـن الجولة العربيـة الإسرائيلية الأولـى من الصراع المسلـح ، وتلك وغيرهـا مراجـع معتمـدة لمـن يريـد العـودة إليها لكن بعض لمحـات الصـورة العامـة فى ميادين القتـال ومـا وراءهـا ، هـى الأقـدر على إضـاءة هذه اللحظـة من سيـاق الحـوادث :

• إن مصـر بالتحديـد ، وهـى أهـم طـرف عربـى فـى الحــرب ، خاضـت غمارهـا واقعـة تحت ظـن أنها تدافـع عن الشعـب الفلسطيـنى فقـط وتقـف معـه فيمـا تعـرض لـه . وكانت دوافعها هى روابط الأخـوة والجـوار . لكنه لـم يخطـر ببـال كثـيرين أن يعـودوا إلى التاريـخ البعيـد والقريـب ويكتشفوا الحقيقـة الاستراتيجية الكـبرى ، وهى أن الحـرب كـانت فى الواقع من أجـل مصـر ولكى لا يتحقق عزلهـا عـن محيطهـا طبقـا لمخططـات ترمـى إلى حجـز دورها وفعلهـا وحياتها وراء الصحـراء فى سينـاء .

وغـاب عن معظم صنـاع القـرار وقتهـا أن تضحيـات النـاس من أجـل أوطـان الجـيران لهـا حـدود ، ولكن تضحياتهـم من أجـل أوطانهـم ذاتهـا ليسـت لها حـدود .

• ويمكن القول ابتداء ـ وباطمئنان ـ أن الدول العربية التى وجدت نفسها فجأة تحمل مسئولية قرار سياسى إستراتيجى لا تعرف كيف تتصرف إزاءه ، وتطلب فيه ـ كما اتضح من بعض ما سبق ـ نصيحة ومشورة بريطانيا والولايات المتحدة عادت إلى الأطراف نفسها ـ بريطانيا والولايات المتحدة ـ تسألهما المشورة بالنسبة لقرار الحرب .

والشاهد أنه لم تكن لدى العرب قيادة سياسية أو عسكرية تعرف ما فيه الكفاية عن فكرة الحرب وعناصرها ومطالبها ، وتحديد أهدافها ، وإدارة مجهودها . بل إن معظم القيادات لم يكن لديها الأساس العلمى أو الفنى أو الظنى الذى يمكن أن تمارس منه التجربة بما تحتمله من فرص الصواب والخطأ ، وبما تعطيه من خبرات مكتسبة نتيجة للممارسة بحيث تكون دروس هذه الممارسة تعويضا مقبولا عن تكاليفها .

• يتصل بذلك أن العرب اعتراهم وهم العدد فتصوروا أنهم أقوى من اليهود فى فلسطين ، فهم وقتها أكثر من أربعين مليون عربى فى مواجهة أقل من نصف مليون يهودى . وبالتالى سرى اتكال على أن حشد الناس إذا كانت فيه الزيادة تحققت له الغلبة .

ولم يكن ذلك صحيحا ، بل إنه لم يكن صحيحا بحساب الأعداد ، إذا كان لا بد أن تستقيم قواعد الحساب .

ففى حين وضع العرب على كل جبهاتهم ما يصل إلى ٣٧ ألف جندى ، فإن الوكالة اليهودية فى فلسطين تمكنت من حشد ٨١ ألف مقاتل .

وكان معظم ضباط الجيش الإسرائيلى ممن سبقت لهم الخدمة فى جيوش الحلفاء أثناء الحرب ، وكذلك كان حال كثيرين من جنودهم .

وكان الحال نفس الشىء فيما يتعلق بالسلاح والعتاد . وفى الطيران مثلا كان لدى العرب مجتمعين ما لا يزيد عن ٣٠ طائرة ، فى حين تمكنت الوكالة اليهودية فى بداية شهر يونيو ١٩٤٨ من أن تصل بعدد ما لديها من الطائرات إلى ٧٨ طائرة .

• إن الجيوش العربية كلها لم تتلق توجيها سياسيا محددا بشأن الأهداف التى كان عليها أن تحققها فى فلسطين ـ على فرض أنه كان فى كفاءة وسلطة أى قيادة سياسية وقتها أن تحدد لجيوشها هدفا ـ ولقد كان ما لدى هذه الجيوش أوامر بـ"التحرك إلى أماكن داخل فلسطين" تقع كلها فى إطار خطوط التقسيم داخل ما كان يفترض أن يكون "دولة فلسطينية عربية" . وقد تحركت هذه الجيوش إلى حيث كان مطلوبا منها أن تتحرك ، واشتبكت فى طريقها بمصادر نيران أطلقت عليها . ومن ذلك مثلا أن الجيش المصرى فى طريقه إلى غزة اشتبك مع مستعمرة "كفار ضروم" ومع مستعمرة "دير سنيد"

لكنه وصـل إلى الأطـــراف الشماليــة لغــزة وتوقـفَ هناك ، ولم يكن فى أوامـــره مـا يدفعــه إلى أبعـد !

● إن إمـداد الجيوش العربيـة ـ والجيـش المصرى بـالذات ـ بمـا يلزمـــه مـن أسلحــة وذخائر ، بعد أن تحولـت قضيتـه من مجـــرد انتقـال إلى أماكـن فـى فلسطــين إلى احتمـال قتـال فى هذه الأماكـن ، كان يجـرى بطريقـة لا تدعـو إلى الاطمئنـان .

فالملك "فـاروق" ـ عن طريق صـلات غامضـة بالإنجليز ـ كان يبـدو واثقـا من قدرتـه على تحصيل بعض الأسلحة والذخائر من القواعد البريطانية فى القناة بوسائل من نـوع مـا . ولعـل بعض أصدقائه من العسكريين الإنجليز أقنعـوه أنـه فـى استطاعتهم أن يغمضـوا عيونهـم وأن يتركوا كميات من الأسلحة والذخائر تخرج من القواعد فى منطقة قنـاة السويـس سـرا ، بينمـا الأمـر فى حقيقته قـرار يعطيـه بعض ما يحتاجه للجيـش ، حتى يقـدر علـى عرقلـة توسـع الدولة اليهودية خارج حدود التقسيم ، ومن ثـم يتحقـق لبريطانيـا هدفـان فى نفـس الوقـت :

◊ إبقـاء الاتصال ما بين القواعـد البريطانية فى المنطقة ـ : قاعـــدة قنـاة السويـــس فـى مصـــر ، وقاعدة الزرقاء فى الأردن ، وقاعدة الحبانية فى العـراق ـ مفتوحـا .

◊ ومن ناحية أخرى الأمـل فى تحويل أنظار الشعـب والجيش فى مصـــر مـن هـــدف طلـب جـلاء بريطانيا عن الأراضـى المصريـة ، إلى هـدف آخـر فى فلسطـين . وهكذا تنشغـل مصـــر ويستريح بـال بريطانيـا .

وكانت الوسيلة الثانية التى اتبعها الملك "فـاروق" ووزير حربيتـه اللـواء "محمـد حيـــدر" باشا هى إرسال بعثـات شراء ســـلاح إلى أوروبـا ، وإيطاليـا علـى وجـــه التحديـد ، لشــراء مخلفات عسكرية مما تبقى هناك من معارك الحرب العالمية الثانية ، ومما لم تكن لـه قيمـة ، تغـرى الجيوش المحاربة أن تحملـه مـرة أخرى حين تعـود إلى أوطانهـا . فقـد كـانت معظـم هذه الأسلحة والذخائر متروكة فى العـراء لسنوات ، أو مكدسـة فـى مخـازن مهجـورة ، ممـا أثـر على صلاحيتها كثيرا .

وقد أدى ذلـك إلى ما عـرف بقضيـة الأسلحـة الفاسـدة .

☐

إن القتال فى فلسطين اتخذ شكل نيران متقطعة على مواقع متبـاعدة ، ثـم توقـف بفعـل هدنة اقترحها وسيـط دولى عينـه مجلس الأمـن لمتابعـة قـرار التقسـيم والتوفيـق بـين العـــرب واليهود . ثم تجـدد إطـلاق النـار مـرة أخرى ، ثم عـاد وتوقـف .

وكان الوسيط الدولى ـ وهو الكونت "برنادوت" ابن عم ملك السويد ـ قد توصل إلى ضرورة أن تكون منطقة النقب فى جنوب فلسطين داخلة ضمن الدولة العربية . وكان ذلك مرفوضا من إسرائيل ، وتقرر ضرب الكونت "برنادوت" بالرصاص فى القدس ، وبين القتلة "إسحاق شامير" رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد ، وهو وقتها واحد من المقاتلين فى "حركة الليحى" التابعة لمجموعة "الأرجون" الإرهابية ، وهى نفس المجموعة التى قتلت وزير الدولة البريطانى اللورد "موين" فى القاهرة قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات !

ثم تطورت الأمور بعد مقتل الوسيط الدولى إلى حد دعا إلى عقد دورة عاجلة لمجلس الأمن فى قصر "شايو" فى باريس .

وعلى هامش هذه الدورة الاستثنائية لمجلس الأمن فى خريف سنة ١٩٤٨ دارت اتصالات مباشرة بين العرب واليهود . وعقد رئيس الوفد المصرى هناك ، وهو وزير الخارجية المصرى "محمد أحمد خشبة" باشا ، اجتماعين مع "إلياهو ساسون" .

وفى القاهرة حاول الحاخام "حاييم ناحوم" أفندى مع الملك "فاروق" . وقام الملك بإرسال وكيل الديوان "حسن يوسف" باشا إلى باريس ، ومعه مستشار الملك العسكرى (وزوج شقيقته) الأميرالاى "إسماعيل شيرين" بك ، وانضم إليهما الوزير المفوض "عبد المنعم مصطفى" . والتقى الوفد الملكى المصرى مع "إلياهو ساسون" الذى جاء معه بضابط إسرائيلى ـ (يحتمل أن يكون "ديان" أو "آللون") ـ وعقد الطرفان ثلاثة اجتماعات لم تصل إلى نتيجة .

كانت مصر قد بدأت تتنبه إلى موضوع النقب وأهميته ، وربما لفت نظرها تقرير الوسيط الدولى الذى رأى وجوب بقاء النقب ضمن حدود الدولة الفلسطينية .

وكانت خشية مصر من ضم النقب إلى الدولة اليهودية تنبع من أسباب مختلفة :

١ ـ إن امتداد الدولة اليهودية إلى النقب يجعلها واصلة إلى البحر الأحمر ، ومعنى أن تصبح الدولة اليهودية ممتدة من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر ، أن موقع إسرائيل سوف يوازى موقع مصر على منطقة ما بين البحرين ، وهى المنطقة "المفتاح" فى استراتيجية الشرق الأوسط .

٢ ـ إن ذلك الوضع سوف يعزل مصر بريا عن بقية الدول العربية .

٣ ـ إن احتمال تعمير النقب سوف يأتى بكثافة سكانية يهودية لتعيش على جوار وتماس مع الحدود المصرية ، وهذا يعطى الفرصة لتجدد الاشتباكات .

٤ - ثم إن الكثافة السكانية اليهودية سوف تتمركز فى مستعمرات على النمط الذى عرف فى فلسطين - وكانت الصورة عنه فى مصر أنه نمط من الحياة الشيوعية - وفى رأى مصر فإن ذلك خطر يهددها بعدوى انتقال المبادئ الشيوعية إليها !

وكان أن فشلت الاتصالات المصرية - الإسرائيلية بسبب اصرار الدولة اليهودية على ضم النقب إليها ، خلافا لما يقتضيه تقرير الوسيط الدولى المقتول الكونت "برنادوت" .

وهكذا فإن ما تعذر الاتفاق عليه فى قصر "شايو" فى باريس ، ارتد مرة أخرى إلى المنطقة وطرح نفسه على ميادين إطلاق النار فى فلسطين .

وكانت تلك طبيعة الأشياء بين طرف يعرف ما يريد ويصمم على بلوغه ، وطرف ثان تنبه متأخرا إلى ضروراته وهرع يحافظ على الحد الأدنى منها .

وكانت عجلة الحوادث تدور لم تتوقف بهدنة أو جلسات حوار تعقد فى السر فى عاصمة النور : باريس !

٦

آللـــــــــــون

" إعطونـا النقــب ولا تجعلوا إسرائيل دولة صغــيرة محشـورة "

(هيئـة الـوزارة الإســرائيلية فــى رســالة إلى الرئيـــس الأمريكـى)

كانت الأطراف الدولية المهتمة بالشرق الأوسط وما فيه من موارد استراتيجية واقتصاديـة ، تتابع ما يجرى على أرض فلسطين عارفة أنها أمام لحظـة فاصلة فى تاريخ المنطقـة ، وأن مـا يجرى على الأرض فى ميادين القتال سوف يصنع شــكل المسـتقبل فـى المنطقـة ويرســم لهـا خريطة جديدة لا تقـل أهميـة عن خريطة "سايكس بيكـو" . فخريطة "سايكس بيكـو" كـانت ترسم علامات حـدود ، وأما الخريطة التى ستظهر بعد الحــرب فسوف ترســم مواقـع قـوة وتأثير .

وكان الفـارق بين الأداء العسكـرى للعـــرب ولليهـود موضـوع متابعـة دقيقـة فـى عواصـم مختلفة ، وكانت واشنطـن أولها . وكانت وكالة المخـابرات المركزيـة الأمريكيـة التـى أنشـأها "ترومـان" حديثا هى أنشـط الأجهزة الأمريكية التى ركـزت على الشـرق الأوســط ، خصوصـا وأن التأمـين المبكـر لموارد البـترول العربـى وضـع تحت اختصاصها المباشـر .

ويوم ٢٧ يوليـو كتبـت وكالـة المخابـرات المركزية الأمريكيـة تقريرا عـن مسـار الحــرب (وثيقـة رقـم ٤٨ ـ ٣٨ ORE ـــ سـرى) وجهتــه إلى مكتـب الرئيـس "ترومـان" و إلى وزيــر الدفاع ، جـاء فيـه :

"إن المعارك التى تجرى الآن أصبحت فى جزء كبير منها معارك شكلية تتمثل فى اشتباكات عشوائية وإن كانت متلاحقة . وبالتأكيد فإن إسرائيل نجحت فى هذه المعارك ، كما أنها استفادت بشدة من فترات الهدنة . وطبقا لكل المصادر المتاحة لنا فإن اليهود أثبتوا قوتهم ، مما يسمح لهم الآن بتوجيه ضربة واسعة النطاق لإخراج القوات العربية من فلسطين . إن القوة اليهودية فاقت كل التوقعات السابقة. ومن الملاحظ أن هذا البلد الناشئ الصغير استطاع من الناحية التنظيمية أن يتفوق على دول أكبر منه وذات أوضاع مؤسسية أقدم . ويكفى لبيان ذلك دراسة التقديرات التالية لحجم القوات التى استطاعت الدول العربية حشدها من جانب ، واستطاعت دولة إسرائيل حشدها من جانب آخر :

قوات :	لها فى فلسطين	لها بالقرب من فلسطين	المجموع
الأردن	٦٠٠٠	٤٠٠٠	١٠٫٠٠٠
العراق	٩٠٠٠	١٠٠٠	١٠٫٠٠٠
مصر	٥٠٠٠	٨٠٠٠	١٣٫٠٠٠
سوريا	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٫٥٠٠
لبنان	—	١٨٠٠	١٫٨٠٠ (يدخل فى الحساب قوات الداخل اللبنانى)
المملكة العربية السعودية	٣٠٠٠	—	٣٫٠٠٠
قوات متطوعين من جنسيات عربية مختلفة	٣٠٠٠	٣٥٠٠	٦٫٥٠٠

وبهذا يكون مجموع القوات العربية فى فلسطين ٢٧٫٠٠٠ ، وبالقرب منها ١٩٫٨٠٠ ، والمجموع كله ٤٦٫٨٠٠ .

وأما فيما يتعلق بحجم القوات الإسرائيلية ، وكلها داخل فلسطين ، فهى على النحو التالى :

قوات ضاربة متحركة	١٧٫٠٠٠
قوات نصف متحركة (للعمليات المحلية)	١٨٫٠٠٠
قوات جيش الدفاع	٥٠٫٠٠٠
قوة الأرجون	١٢٫٠٠٠
قوة جماعات شتيرن	من ٤٠٠ إلى ٨٠٠

وأما إسرائيل فقد استطاعت أن تصل حجم قواتها إلى ٩٧٫٨٠٠ مقاتل .

وهكذا فإن الولايات المتحدة ، إلى جانب أى ارتباط عاطفى أو سياسى اكتشفت باختبار علمى أن القوة الحقيقية يمكن أن يكون لها حساب يختلف عن حسابات الأعداد والأحجام ! فى منطقة مزدحمة بالمصالح الأمريكية .

□

إن النتائج التى أسفرت عنها تجربة الحرب كما شرحها تقرير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، جاءت مقدمة طبيعية لأمر رئاسى صادر عن الرئيس "ترومان" وموجه إلى وزير الخارجية "مارشال" بتاريخ ١١ سبتمبر ١٩٤٨ ، نصه كما يلى :

"مذكرة إلى وزير الخارجية مارشال

من الرئيس

١ - كما تعلم فإننى منذ أصبحت رئيسا أعطيت تأييدى باستمرار لإنشاء دولة مستقلة لليهود فى الشرق الأوسط . إن الولايات المتحدة أخذت مركز القيادة فى إنشاء هذه الدولة المستقلة ، وأنا أعتقد أن ذلك لا بد أن يستمر .

٢ ـ إننى أعتقد أن تأييدا أمريكيا قويا للدولة الجديدة فى فلسطين سوف يؤدى إلى تثبيت الأوضاع فى الشرق الأوسط ، وسوف يساهم فى تدعيم السلام العالمى .

٣ ـ إننا الآن مهتمون بتقديم معوناتنا الاقتصادية والمعنوية إلى أمم أوروبا الغربية لكى نستطيع أن نمنع انتشار الشيوعية . وأنا اعتبر أنه من الضرورى فى نفس الوقت أن نقدم نفس المساعدات الاقتصادية لإسرائيل ولنفس الأسباب .

. . . .

. . . .

٤ ـ إننى ألاحظ أن ١٤ دولة قد حذت حذونا فى تقديم اعترافها العملى بإسرائيل ، وكان ذلك تحت تأثير الولايات المتحدة . وكان له بالتأكيد أثره فى المساعدة على استقرار الأوضاع فى الشرق الأوسط .

٥ ـ وبالنظر إلى ما سبق فإننى أرغب فى متابعة ذلك بالإجراءات التالية :

(أ) جهز وأعلن اعترافنا القانونى بإسرائيل على الفور .

(ب) رتب لتقديم قرض لإسرائيل فور إتمام الاتفاق على تفاصيله .

(جـ) اتخذ الإجراءات العملية لمساعدة إسرائيل فى الحصول على عضوية الأمم المتحدة .

إننى عاكف الآن على صياغة إعلان من جانبنا يعترف بإسرائيل قانونيا ، وسوف أبعث به إليك إذا كانت لديك مقترحات . وعليك أن تبلغنى بالخطوات العملية التى ستتخذها بالنسبة لمسألة القرض ، وبالنسبة لقبول إسرائيل عضوا فى الأمم المتحدة .

هارى ترومان "

☐

كان موضوع النقب هو الموضوع المعلق لسببين :

أولهما : أن تقرير "برنادوت" الذى كان حتى هذا الوقت الخريطة المطروحة على الساحة الدولية ، يعطى النقب للعرب ، ويقترح ضمه إلى الأردن .

وثانيهما : أن النقب حتى هذه اللحظة كان لا يزال تحت سيطرة القوات المصرية التى تعمل على الخط من "بيت جبرين" (على اتصال مع الخطوط الأردنية) إلى "المجدل" على شاطئ البحر الأبيض .

وكانت إسرائيل على استعداد أن تفعل كل ما من شأنه أن ينتزع النقب من العرب ، سواء فى ذلك ولاية الملك "عبد الله" المقترحة عليه أو وجود الجيش المصرى فعليا فيه . وقد أصبح النقب بالفعل هو الموقع الأساسى بالنسبة للجيش المصرى فى فلسطين .

وفى ٤ أكتوبر ١٩٤٨ كتب السفير الأمريكى فى إسرائيل "ماكدونالد" ــ وهو واحد من أشد الموالين للدولة اليهودية ، وهو من اختيار الرئيس "ترومان" شخصيا ـ تقريرا من تل أبيب موجها إلى وزير الخارجية ، ومنه إلى البيت الأبيض نصه كما يلى :

"برقية رقم ٤٤٨ ـ ١ ب ب ٥٠١

(سرى وعاجل)

شخصى للرئيس ولوزير الخارجية

عندما كان نوكس (نائب وزير الدفاع الأمريكى الذى أرسل على عجل إلى تل أبيب لتقدير الموقف) هنا إلتقينا بالقيادة الإسرائيلية مجتمعة ، وكان شاغلهم هو مستقبل النقب واحتمال ضمه إلى الأردن . وكان رأيهم كما يلى :

١ ـ إن الولايات المتحدة لها من إسرائيل صديق ثابت وقوى ، وهو صديق ينتمى إلى الغرب سياسيا وثقافيا ، وقد ساعدته الولايات المتحدة، وبالتالى فإن هذا الصديق الذى يشعر بالعرفان للتأييد الأمريكى سوف يكون فى المستقبل استثمارا ناجحا .

٢ ـ إن الدول العربية ضعيفة كلها ثم هى متأرجحة فى سياساتها . وصداقتها للغرب وللولايات المتحدة يصعب ايجاد دليل عليها . وإذا كان هناك دليل فهذا الدليل هو موقف العرب أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهو موقف لم يكن مواليا للغرب .

٣ ـ إن الولايات المتحدة لا ينبغى لها أن تؤيد أى سياسة من شأنها أن تعطى النقب إلى الأردن . وإذا تورطت الولايات المتحدة فى مثل هذه السياسة فإنها لن تكسب رضاء العرب عنها ، لكنها سوف تؤثر على قوة إسرائيل وتجعل منها دولة صغيرة محشورة تشعر بالمرارة تجاه الولايات المتحدة ."

□

إن القيادة الإسرائيلية فى إصرارها على ضم النقب كانت ترى أن ضمه للأردن بقرار دولى يستند على تقرير "برنادوت" أمر محتمل . ولكن وجود الجيش المصرى فى النقب أمر واقع تتعين مواجهته وتغييره . وهكذا أعطى "بن جوريون" أوامره بتركيز المجهود العسكرى الإسرائيلى على النقب بقصد احتلاله وإخراج الجيش المصرى منه .

كانت منطقة النقب من الناحية الجغرافية أشبه ما تكون بمثلث مقلوب ، رأسه إلى أسفل تستند على إيلات فى الجنوب ، وقاعدته إلى أعلى تمتد بضلعين نحو الشمال بين "بيت جبرين" و"المجدل" . وكان الطريق من "بيت جبرين" إلى "المجدل" يرتكز على المحور الإستراتيجى الذى تمثله "الفالوجا" و"عراق المنشية" و"عراق سويدان" . وكانت هذه المنطقة فى مسئولية الكتيبة السادسة مشاة التى يقودها الأميرالاى "السيد طه" وضابط أركان حربه المسئول عن التخطيط والعمليات وهو الصاغ (الرائد) "جمال عبد الناصر" .

كانت الهجمات ضد هذا المحور (محور "عراق سويدان" و"عراق المنشية" و"الفالوجا") قد بدأت مبكرا . وقد احتلت الهجمات عليها حيزا واضحا فى يوميات "دافيد بن جوريون". وتكررت الإشارات إليها فى هذه اليوميات فى كل صفحة من سجلات تلك الفترة وبغير استثناء :

□□ ١١ يونيو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

– أخبار من الجبهات . فشل هجومنا على مركز شرطة عراق سويدان .

. . . . (صفحة ٣٩٦)

. . . .

□□ ٢٥ يونيو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ منعت القوات المصرية سفر قافلة كان من المفروض أن تذهب إلى النقب بموجب قرار الأمم المتحدة الخاص بإمداد مستعمراتنا جنوب الخط المصرى فى النقب .

ـ عادت القافلة إلى قاعدتها . أبلغنا أن المصريين خرقوا الهدنة بمنعهم للقافلة .

. . . .   (صفحة ٤٣٤)

. . . .

❑❑ ٤ يوليو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ تداولت مع ييجال يادين بشأن خطط الحرب فى المرحلة القادمة . القلاع الطائرة ستقوم بقصف القاهرة ليلا من ارتفاع عشرين ألف قدم ، وبعد ذلك تعود لقصف القنيطرة ودمشق ثم تهبط فى هرتزيليا .

ـ هذه العمليات تساعد فى النقب .

. . . .   (صفحة ٤٤٣)

. . . .

❑❑ ٢٨ يوليو ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ تمت هذه الليلة العملية "جيس" فى الجنوب ـ هجوم على الفالوجا وعراق المنشية ـ العملية لم تحقق هدفها . قواتنا صدت ومنيت بخسائر : ٨ قتلى وبعض الجرحى . يقترح شمعون أفيدان شن هجوم آخر هذه الليلة على الفالوجا ولكن باتجاه أكثر انحرافا نحو الشرق . لا أستسيغ هذا الأمر . ليس هذا طريق النقب . سيحاولون مهاجمة الفالوجا مرة أخرى .

. . . .   (صفحة ٤٨٤)

. . . .

□□ ٢ أغسطس ١٩٤٨

. . . .

. . . .

- ناحوم ساريج (قائد قوات النقب) حضر إلى . حاول المصريون خلال الأيام العشرة من ٩ - ١٨ يوليو إغلاق النقب بصورة نهائية ، لكنهم لم ينجحوا . لم يقصد المصريون منذ البداية النقب بل البلد كله .

- المصريون هم بلا شك أهم قوة تواجهنا . قوتهم زادت فى النقب . يعملون تحت قيادة موحدة لديها خطوط اتصال جيدة . مستوطناتنا فى النقب تواجه تعبا وتوترا كبيرا .

. . . . (صفحة ٤٨٧)

. . . .

□□ ٦ أكتوبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

- جلسة الأركان مع قادة الجبهات . عرضت الموقف فى الجنوب . يادين يعترض على إمكان التحرش بالمصريين من دون إثارة الأردن والعراق والسوريين للقتال . إذا فعلنا ذلك نحتاج إلى قوة كبيرة جدا .

- مساء . اتخذنا اليوم فى الحكومة أخطر قرار منذ إعلان إقامة الدولة . بعد تداول مستفيض وافقت الحكومة على اقتراحى باختراق النقب بالقوة لتقويض الجبهة المصرية . سوف نقوم بإبلاغ الملك عبد الله أننا سنمتنع عن الاشتباك مع الفيلق العربى ونأمل أن يمتنع هو عن التدخل .

. . . . (صفحة ٥٦٥)

. . . .

□□ ٧ أكتوبـــر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ تداولـت وجيكوب دورى وييجال يادين فى تفصيـلات المعركـة فى الجنـوب :

يجـب الضـرب فى الجنـوب بأقصى مقدار من القـوة الممكنـة كـى ننفـذ خـلال الأيـام القليلة شيئـا مهمـا . الإجهـاز على الجيـش المصـرى كلـه .

. . . .   (صفحـة ٥٦٦)

. . . .

□□ ٨ أكتوبـــر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ وصلـت من موشـى شرتـوك (الموجود فى باريـس فى الدورة الاستثنائية لمجلس الأمـن) أربع وثائـق بينها مشـروع من إلياهو ساسـون عرضـه علـى المصريــين بشـأن حلـف صداقـة معهم . يريـد المصريـون ضـم القسم الغربـى من أرض إسرائيل إلى مصـر لهدفين :

١ ـ فى حالة نشوب نـزاع مسلح مع إسرائيل فإنهم يســتطيعون الخــوض فـى المعارك على تـراب أرض إسرائيل لا على ترابهـم هـم .

٢ ـ للحيلولـة دون ضـم النقـب إلى شـرق الأردن وتحويلــه إلى قاعــدة عســكريــة بريطانيـــة ـ بحسب كـلام "المساعـــد المصــرى" (الوزيــر المفـوض عبد المنعـــم مصطفـى) الذى يقـوم بالاتصال مع ساسـون ـ فإنه تلقـى برقيـة من نائـب رئيـــس البـلاط حسن يوسـف طلـب فيها منـه أن يعـرض مشـروع إلياهو ساســون علـى مستشارين عسكريين وسياسيـين تابعين للوفـد المصرى فى الأمـم المتحـدة .يستعـين المساعـــد بثلاثـــة مستشاريـــن : اثنـان عسكريـان وواحـد سياســى . مصــر تريـــد النقـــب مع غـــزة . تتخـوف مصـر من قيام دولـــة يهوديـة بسبـب : توســـع إقليمى ـ سيطـرة اقتصاديـة ـ تغلغـل الشيوعيـة .

ـ أبرقت إلى موشى طالبا وجوب معارضة أى ضم لأى جزء من البلد إلى مصر . مصر أقوى مملكة فى جوارنا ، ودخولها فى البلد يعرض وجودنا كله للخطر . وافق مسئولو وزارة الخارجية على رأيى .

. . . .   (صفحة ٥٦٨)

. . . .

□□ ١٧ أكتوبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ يبلغوننا من بعد ظهر أمس أن العدو يستقدم تعزيزات من المدافع إلى الفالوجا . وقد دخلت بضع سيارات شحن إلى عراق المنشية .

ـ نزل لواء عوديد من الجليل إلى الجنوب هذه الليلة . وسيتم تخصيص كتيبتين لعمل هجومى . ربما ستكون هذه الليلة حاسمة .

ـ فى الرابعة ذهبت مع يعقوب دورى إلى الجبهة . زرنا فى البداية قيادة ييجال آللون. وذهبنا معا إلى قيادة شمعون أفيدان . ثم توجهنا جميعا إلى قيادة يسحاق ساديه قائد اللواء الثامن ، وهى فى مزرعة عربية شمال النقب .

ـ عند بداية الهجوم خسرنا أمام عراق المنشية أربع دبابات هوتشكيس . لم تنخفض معنويات الكتيبة على الرغم من ذلك . وجه إلى فى كل مكان ذهبت إليه سؤال واحد : كم من الوقت لدينا ؟ ييجال آللون يعتقد أننا بحاجة إلى أسبوعين لتنفيذ مهمتنا فى الجنوب . ووفقا لروايات الرفاق فإن المعنويات المصرية قد ارتفعت قياسا بالمعارك السابقة . تخندق المصريون وتحصنوا فى كل مكان فى أفضل صورة . عندهم مدفعية وفيرة .

. . . .   (صفحة ٥٧٦)

. . . .

☐☐ ٦ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ جاء الدكتور رالف بانش (الوسيط الدولى بعد مقتل برنادوت) تكلم ساعات طويلة مع النقراشى رئيس حكومة مصر .

ـ ركزت على النقب . شرحت له قيمة النقب كمخرج إلى البحر الأحمر بالنسبة لنا . العرب لديهم من الصحارى ما يكفيهم وهم ليسوا فى حاجة إلى النقب .

ـ بانش قال بطريقة غير رسمية إنه يتفهم موقفى ويبرره . لكن وضعه كوسيط صعب .

. . . . (صفحة ٦٥٣)

. . . .

☐☐ ٩ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ إلياهو ساسون وصل من باريس . بحسب قوله ثمة فرص سانحة للسلام . إن رياض الصلح (رئيس حكومة لبنان ـ سنى مسلم) مستعد للعمل من أجلنا . ليس للبنان مطالب وتطلعات إقليمية إذ إن عبء الحرب ثقيل عليهم . لكنهم لا يريدون الخروج منها وحدهم، ولذا كان يريد أن يخرج الجميع . ليس لرياض الصلح أية فرصة للترقى . وصل إلى أعلى منصب يمكن أن يصل إليه مسلم فى لبنان ، وليس له أى أمل خارج لبنان .

ـ هناك غليان فى سوريا ، وقامت هناك حكومة متشددة . الوضع فى مصر يغلى . الإخوان المسلمون فرض عليهم حل تنظيمهم واعتقل قادتهم ، وكان بعض أفرادهم يقاتلون فى أرض إسرائيل . إذا سقط النقراشى سيقوم الوفد بزعامة النحاس باشا ويعلن أن النقراشى أخفق وعليهم تصحيح الخطأ والتأهب لمواصلة الحرب كما يليق .

ـ لدى عودتى من يافا استأنفت المداولات مع ساسون . تحدثنا عن مصير غزة . طبقا للمنطق الجغرافى يجب أن تكون غزة داخل إسرائيل ، ويمكن منح الملك عبد الله ميناء

حرا هنا . يعتقد ساسون أن مصر تخاف الآن من قوة شرق الأردن العسكرية ، وهى لا تريد أن تكون جارة لها .

- سألته : ألا تخاف مصر من إسرائيل ؟ قال ساسون إن إنجلترا لن تتخلى عن غزة ، وستعطيها لعبد الله - أى لنفسها - لأن السويس ستنتقل إلى مصر بعد بضع سنوات . أبلغه رياض الصلح أن البريطانيين وعدوا الدول العربية بإعطائها كميات من الأسلحة .

- اقترحت على ييجال يادين الاستعداد لطرد المصريين من النقب . ليس هناك بديل لذلك . خولت ساسون معاودة الاتصال بالملك عبد الله .

. . . .

. . . .

٧

ســاســـــــــون !

" يسرنــا أن تكــون مذاكــرة معكــم "

(الملك "عبد الله" فى رسالة إلى "دافيد بن جوريون")

كان تداعـى الخطا فى فكــر "بـن جوريـون" مترابطـا :

- يريد أن يوجـه ضربـة قاصمـة للمصريين ويطردهم من النقب ومن فلسطـين كليـة .
- ويريد فى سبيل تحقيق ذلك أن يتثبـت من موقف الملـك "عبـد اللـه" قبـل الإقـدام على خطوته الكبرى التى توقع أن تنهـى الحـرب ليس فقط بقيام الدولـة فى الجـزء المخصص لها وفـق قرار التقسيم ، وإنما فيما هو أوسـع من ذلـك بكثـير ممـا وصـل إليه الجيـش الإسرائيلى أو يمكن أن يصـل إليه .

□

وبالنسبة لدواعيه إلى توجيـه ضربة قاصمـة للمصريـين ، فقد بـدا ذلك من وجهـة نظـره مطلوبا بالحاح لعـدة أسبـاب :

١ ـ مصـر كما كانت باستمرار بالنسبة له منذ بداية الحرب ، هـى القـوة الرئيسـية فـى الميدان . وصحيح أن جيشها فى فلسطين لم يكن بـالحجم المتفـق مـع قوتهـا ، لكـن اسـتمرار مصـر فى ميدان القتال سوف يفـرض عليها بالضرورة اسـتعدادا أوسـع ، تملـك ــ ولـو مـن الناحية النظرية ـ أسبابه .

٢ ـ إن جهـود وفـده فى باريـس ، وعلى رأسه "ساسـون" ، فى الاتصال بالملك "فاروق" وبالحكومة المصريـة ، لم تصـل إلى النتيجة التى كان يرضاها . فقـوات الجيـش المصـرى من "المجـدل" وحتى "بيت جبريـن" لا تزال واقفة فـى مواقعهـا ، والمعـارك ضدهـا فـى محـور "عراق المنشية" و"عراق سويدان" و"الفالوجا" فشلـت كلها ، وبالتالى فإن النقـب وهـو واحـدة من أهـم جوائز الحرب فى رأيه ما تزال باقيـة فى يـد مصـر . وحينمـا حـاولوا بالدبلوماسـية فى باريـس أن يعوضوا شجاعة الرجال فى "عراق المنشية" و"عراق سويدان" و"الفالوجـا" فـإن الموقف المصرى ظـل ينظر بارتياب إلى قيام الدولـة ، ويشعر بالمرارة من تـردى الأوضـاع فـى فلسطـين ، ويتصور ـ إن خطأ أو صوابا ـ أن تصحيـح ذلـك علـى الجبهـة المصريـة ممكـن ، خصوصا وأن النقـب لا يزال تحت السيطرة المصريـة .

٣ ـ وكان تقدير "بن جوريون" أنه إذا نجحت ضربته القاصمة فى هزيمـة مصـر ، فـإن مصـر لن يكون أمامها إلا أن تعقد معاهدة صلـح مـع إسـرائيل . وإذا احـدث ذلـك فـإن بقيـة الدول العربيـة سوف تلحـق ، بل إن بعضها قد يسبـق إذا ما ظهـرت إشـارة مبكـرة .

٤ ـ وكان الضـوء الأحمـر الذى أثـار قلـق "بـن جوريـون" فى تلـك الظروف هو أن مصـر أعلنت ـ عقب اجتماع لمجلس الجامعـة العربيـة ـ عـن إقامـة حكومـة عربيـة "لكـل عمـوم فلسطـين" . واختارت لها رئيسا هو "أحمـد حلمـى" باشا . وقـام هذا الرئيـس بتشـكيل وزارة فلسطينيـة اتخذت من غـزة مقـرا مؤقتا لها . ومع أن "بن جوريون" كان يدرك هشاشـة وضـع هذه الحكومة ، إلا أن استمرارها فى غـزة مع بقاء الجيش المصـرى فى النقـب قد يؤديـان إلى تحويل الخطوط المتهاوية إلى خطوط متماسكة ، وربما صلبـة فى يـوم من الأيام .

٥ ـ وكان "بن جوريون" يدرك أن الوضعين السياسـى والعسـكرى للدولـة اليهوديـة همـا الآن فى ذروتهما بسبب التأييد الأمريكى . وقد جـرب بنفسه مـدى تـأييد الرئيـس "ترومـان" فى الكبير من الأمور وفى صغيرها . فحـين اشـتكى لـه الإسـرائيليون مـن أن الوفـد الأمريكـى المشارك فى دورة مجلس الأمـن الاستثنائية فى باريـس يتحـدث مع الوفـود العربيـة ، وبينها الوفـد المصـرى ـ بلغـة لا تظهر فيها حقائق الموقف الجديد ـ سارع الرئيس "ترومـان" فـأصدر لوزير خـارجيته أمـرا رئـاسيا نصـه :

"من الرئيـس إلى وزيـر الخارجيـة

إننى أطلب ألا يدلـى أعضـاء وفدنـا فـى بـاريس بأيـة تصريحـات علنيـة ، وألا يجروا اتصالات مكتومـة مع الوفود الأخرى بغير تصريـح مـنى . كما أنـى أريـد أن تعرض علىّ للموافقة فحـوى ما يقولونه علنـا أو مباشرة فى اتصالاتهم .

إمضـاء

هارى س. ترومـان "

٦ - ولم يكن "بن جوريون" أيضا راضيا عن اتصالات تجريها وزارة الخارجية الأمريكية فى نفس الوقت مع الملك "فاروق" . وبصرف النظر عما يمكن أن تنتهى إليه هذه الاتصالات ، فإن "بن جوريون" فى هذه اللحظة لم يكن يريد لقاء مصريا - أمريكيا يفتح الباب لمنافسة إسرائيلية - عربية على النفوذ الأمريكى . فهو يريد احتكاره لإسرائيل وحدها .

□

وفى واقع الأمر فإن الاتصالات الأمريكية مع الملك "فاروق" كانت تدور فى حلقة مفرغة - كما تظهر تقارير السفير الأمريكى فى مصر - وبينها التقرير الوارد فى البرقية رقم ٩٤٨ - ١١/ ب ب ٥٠١ ، وهى بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٤٨ ، ونصها كما يلى :

"على خلفية اعتقادى :

١ - إن الملك فاروق هو العنصر الفاعل الوحيد فى صنع السياسة المصرية الآن.

٢ - وإن مصر إذا تحركت فى اتجاه سلام فإنها سوف تسحب الدول العربية كلها وراءها .

٣ - وإنه إذا تعذر ايجاد حل لموضوع النقب فإن الحكومة المصرية سوف تسقط بما لذلك من عواقب مأساوية .

على هذه الخلفية فإننى أتشرف بأن أعرض مجمل تصورى لخطواتنا القادمة كما يلى :

- يظهر لى أن الملك "فاروق" واع بالتعقيدات التى يمكن أن تنشأ بسبب موضوع النقب . وهو يريد مخرجا ، واعتقادى أنه مستعد لمفاوضات مباشرة مع الحكومة الإسرائيلية . وأجدنى مستعدا لأن أقترح عليكم تخويلى بإبلاغ جلالته أن الولايات المتحدة التى ترغب فى السلام مستعدة لتشجيعه فى أى خطوة يخطوها من أجل الوصول إلى تسوية . وسأكون ممتنا إذا تلقيت منكم تعليمات تسمح لى أن أقوم بذلك .

- ولتشجيع الملك أكثر فإننى أقترح بالتوازى مع ما أسلفت أن ندخل فورا مع الحكومة المصرية فى اتفاقيات من أجل التعاون ، وبالذات فى مجال التعليم طبقا لبرنامج فولبرايت . وإذا ذهب شباب مصريون لدراسة الزراعة والهندسة والإدارة فى الولايات المتحدة ، فهؤلاء لن يخدموا وطنهم فيما بعد فقط ، وإنما سيكونون ركيزة للصداقة بين بلدهم وبين الولايات المتحدة .

- ويمكن بعد ذلك أن نبحث فى وقت من الأوقات احتمال تقديم بعض خدمات التدريب فى مدارس الجيش الأمريكى للضباط المصريين . وهذا أمر يهتم به الملك فاروق جدا .

- إننى ذهبت إلى مقابلة الأمير محمد على ـ ابن عم الملك فاروق وولى عهده ـ وفى حديث بيننا يوم السبت الماضى ألح على ثلاثة شروط ضرورية هى :

١ - تدويل القدس .

٢ - إخراج بعض اليهود الروس الشيوعيين من دولة إسرائيل لأنهم خطرون عليها وعلى العرب .

٣ - ضمان للحدود فى المنطقة تقترحه الولايات المتحدة وبريطانيا .

وقلت للأمير إنه ليس فى مقدورنا تقديم ضمانات ، وإن الأمم المتحدة هى وحدها التى تملك هذا الحق ، وإذا فشلت فيه فشلنا جميعا . لكنه يبدو لى أن كل الناس هنا يريدون ختما أمريكيا على أية تسوية ."

□

كانت تلك هى العناصر التى أخذها "بن جوريون" فى حسابه وهو يفكر ويخطط لضربة قاصمة توجه إلى مصر .

وأما رغبته فى التثبت من موقف الملك "عبد الله" فقد كان داعيه ظاهرا . ذلك أن "بن جوريون" يخشى أنه عندما تبدأ اشتباكات كبيرة مع مصر فإن الرأى العام العربى قد تسهل استثارته . وربما كان فى مقدوره أن يوجه ضغوطا لا يستطيع الملك "عبد الله" أن يقاومها ، وبالتالى يضطر إلى استعمال جيشه لتخفيف الضغط عن مصر . وحتى إذا لم يكن الملك يرغب فى ذلك فإن إسرائيل كانت مطالبة بأن تتحوط لاحتمال أن يدخل الملك بجيشه ، وبهذا يواجه الجيش الإسرائيلى حربا على جبهتين .

وإسرائيل تعرف أن الملك لا يريد أن يصل إلى هذا الوضع ، ويتعين عليها أن تساعده ليتمكن من الانتظار ، وإذا استطاع "عبد الله" فإن أبسط واجبات الحذر تفرض على القيادة الإسرائيلية أن تحتفظ بقوات احتياطية لمواجهة كل الاحتمالات : سواء نجح الملك أو لم ينجح فى اختبار الانتظار . ومعنى ذلك أن إسرائيل لن تكون مطلقة اليدين فى استخدام كامل قوتها لتوجيه الضربة القاصمة التى تريدها إلا إذا تأكدت بطريقة قاطعة . وهكذا كان تكليف "بن جوريون" لـ"إلياهو ساسون" بأن يستأنف اتصالاته مع الملك "عبد الله" .

وكان الملك "عبد اللـــه" بدوره مستعدا . فقد ضايقه هو الآخر إنشاء حكومة وطنية فلسطينية مقرها غـزة . ورد على ذلك بالدعوة إلى مؤتمر فى أريحا حضره عدد من الموالين له من مدن فلسطين . وهناك جرت مبايعته ملكا على ضفتى الأردن : الشرق الذى كان إمارته الأصلية ، زائدا عليه ما تبقى من فلسطين على الضفة الغربية .

وقد تضايق الملك أن مصر شنت حملة إعلامية واسعة على فكرة مبايعته ملكا عبر الضفتين ، ورأيها أن ضمه للضفة الغربية يعطى لإسرائيل ما تريده من تمزيق فلسطين، بل والدولة العربية المرسومة بقرار التقسيم للعرب فيها .

□

وقام "ساسون" بخطوته الأولى . وكتب اللواء "عبد الله التل" القائد الأردنى لمنطقة القدس :

"فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة الموافق ١٩٤٨/١٢/١٠ كلمنى رئيس مراقبى الهدنة الدولى هاتفيا ، وقال : إن الكولونيل ديان يريد مقابلتى فى المنطقة الحرام لأمر هام . فتوجهت لمنطقة باب الخليل حيث اتفقنا على الاجتماع . ولما وصلت وجدت ديان ينتظر ومعه أحد المراقبين المعينين لتلك المنطقة . وتقدم ديان وقال إنه يحمل رسالة هامة جدا من شخصية يهودية كبيرة إلى صاحب الجلالة الملك عبد الله . فأخذت الرسالة ووعدته بتأمين إيصالها إلى الملك . ثم افترقنا بعد أن أكد لى أهميتها وألا يفتحها إلا جلالة الملك نفسه . ولكنى ما كدت أصل لأقرب نقطة فيها ضوء حتى أحسست بعوامل قوية تدفعنى إلى فض الرسالة والاطلاع على ما فيها ، فقد كنت أشك فى سير الأمور وفى نوايا الملك عبد الله . وفضضت الرسالة غير مبال بعاقبة الأمر ، وأزلت عنها الشمع الأحمر أمام (مرافقى) الرئيس قسيّم محمد وقرأتها ."

كانت الرسالة بخط "ساسون" باللغة العربية التى يجيدها . وكان نصها كما يلى .

"مولاى المعظم

إجلالا واحتراما وبعد ،

أرجو أن تكون جلالتكم بغاية الصحة أدامها المولى عز وجل عليكم .

سيدى

لقد وصلت اليوم إلى القدس عائدا من باريس لمدة قصيرة جدا للاتصال بجلالتكم إذا تفضلتم وأمرتم بذلك ، والتعاون على حل الأمور المعقدة ، والوصول إلى

ما نتمناه جميعا من إحلال السلام فى ربوع هذه البلاد العزيزة على جلالتكم وعلينا. فأرجو جلالتكم والحالة هذه أن تتكرموا وترسلوا إلى القدس لمقابلتى والبحث معى أحد الأشخاص الذين تثقون بهم، وأن يكون هذا الشخص مصحوبا بالصديق شوكت باشا (طبيب الملك عبد الله الخاص ورسوله إلى الإسرائيليين فى مرات عديدة) . وأن يكون كذلك من المخلصين للقضية المشتركة .

هذا وأرجو أن يأتى هذا الشخص فى أسرع ما يمكن . وإن أمكن غدا السبت حيث أوقاتى قصيرة جدا ومضطر أن أعود إلى باريس فى أسرع ما يمكن . هذا وإنى أتمنى أن تساعدنى الظروف على التشرف بمقابلة جلالتكم فى إحدى الفرص السعيدة إن شاء الله . وأرجو أن يكون الشخص الذى سيأتى لمقابلتى حاملا الكثير من ملاحظات جلالتكم بشأن كافة الأمور لنسترشد بها فى حديثنا . وأطال المولى بقاء جلالتكم . آمين .

المخلص

إلياس ساسون (٧)

القدس الجمعة ١٩٤٨/١٢/١٠"

ويستطرد اللواء "عبد الله التل" مستكملا روايته :

"سافرت إلى الشونة مبكرا صبيحة السبت الموافق ١٩٤٨/١٢/١١ . واجتمعت بجلالة الملك الساعة الثامنة تماما . وقدمت له الرسالة بعد أن وضعتها فى مغلف جديد ختمته بالشمع الأحمر . وما إن بدأ الملك قراءتها حتى انبسطت أساريره وتهلل وجهه فرحا ، وأعاد إلى الرسالة لأقرأها . ثم خرج برهة ، وعاد معه الدكتور شوكت الساطى طبيب جلالته ، وطوى الرسالة وقال بالحرف الواحد : "تذهب يا باشا للقدس وتقابل ساسون للتفاهم معه . . . . . وعبد الله بك (اللواء عبد الله التل نفسه) يساعدك فى الأمور الفنية" .

ثم أمر باحضار ورقة بيضاء وبدأ يملى على الدكتور ما يلى ليبلغه لساسون :

١ - يسرنا أن تكون مذاكرة معكم .

٢ - تعلمون أن أية مذاكرة منفردة إن لم تكن موفقة فهى ستجر متاعب من الناحية العربية ، وبالأخص من الخصوم السياسيين فوق ما تتصورون .

---

(٧) فى مراسلاته مع الملك "عبد الله" استعمل "إلياهو ساسون" الاسم العربى المرادف لـ "إلياهو" (أحد أنبياء اليهود) فى اللغة العربية وهو "إلياس" ، ربما بقصد الإيحاء بالقربى .

. . . .

. . . .

٣ - قرار مؤتمر أريحا (تتويجه ملكا على شرق الأردن والضفة الغربية) يجب أن يكون بالغ الاحترام . "

وتم اللقاء ، وتكرر مرة ثانية لأن "ساسون" بعد قراءة أولية لرسالة الملك رأى أن يبحثها مع "بن جوريون" فى تل أبيب .

وفى اللقاء الثانى كان "ساسون" هو الذى يملى ، والدكتور "شوكت الساطى" هو الذى يكتب رد "بن جوريون" على رسالة الملك . وكان الرد كما يلى بلسان "ساسون" نقلا عن "بن جوريون" :

"تحيات لجلالة الملك من دافيد بن جوريون وموشى شرتوك" .

وتنتهى التحيات ، وتبدا نقاط الرد :

"١ - إذا كان جلالة سيدنا يرغب فى تنفيذ مقررات أريحا فلا اعتراض لنا على ذلك . ونظن أن من المستحسن أن ينفذها فى أسرع وقت ممكن حتى يضع خصومه وأصدقاءه أمام الأمر الواقع . وللأمر الواقع أهمية كبرى عند دول أوروبا وأمريكا ، وقد جربنا ذلك بأنفسنا.

٢ - فى حالة إقدامه على تنفيذ هذه المقررات نرجوه ألا يتعرض للناحية اليهودية لا بخير ولا بشر ، ويكتفى بالقول بأنه يقدم على ذلك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ولإعادة الهدوء والسعادة إلى الشعب العربى الفلسطينى .

٣ - نرجوه فى حالة إقدامه على تنفيذ المقررات ألا يحدد موقفه النهائى من ناحية مصير القدس لا القديمة ولا الجديدة لأننا نعتقد أنه يجب ترك مصيرها إلى مباحثات واتفاقات بيننا وبين جلالته مباشرة فى القريب العاجل . ونعتقد أن هناك حلا يرضيه ويرضينا .

٤ - ننصح لسيدنا بإعلان الهدنة الرسمية الطويلة هدنة دائمة . وهذا يساعد على سحب جيوشه من جميع الجبهات ، واستخدامها فى جهات أخرى إذا ما اقتضت الحاجة ذلك . وإذا كانت الظروف الحاضرة تحول دون إعلان هذه الهدنة ، فبالإمكان الاتفاق على ذلك سرا بيننا . وفى مثل هذه الحالة نؤكد له بأننا لن نتعرض بسوء إلى مراكزه فى جميع الجبهات ونحترمها كل الاحترام حتى نهاية المباحثات ، حتى ولو طال الأمر شهورا .

٥ - نحن ننصح لسيدنا أن يعمل بسرعة على سحب القوات العراقية من الحدود ، وإحلال قوات أردنية محلها للمحافظة على الأمن الداخلي فقط وإذا فعل ذلك فإننا نؤكد له بأننا لن نمس هذه الأماكن بسوء حتى نهاية المباحثات . أما إذا بقيت القوات العراقية فى مراكزها ، فنخشى أن نصطدم بها فى يوم من الأيام .

٦ - ننصح لسيدنا أن يسعى جهده لسحب القوات المصرية من جنوب القدس والخليل (منطقة النقب) ليخلص من المتاعب السياسية التى يخلقها وجود هذه القوات فى أى وقت.

٧ - ننصح لسيدنا أن يتجنب بقدر الإمكان وساطة الأجانب لتسوية الأمور بيننا وبينه ، وأن يفضل مثلنا المباحثات المباشرة . فإن هذا فى نظرنا أدعى للنجاح سواء كان من الناحية العسكرية أو السياسية .

٨ - إذا أعرب سيدنا عن موافقته على النقط السبعة السابقة ، فإن فى استطاعتنا أن نؤكد له بأننا سوف نقوم بالدعاية لمقررات أريحا فى جميع أرجاء العالم . "

ووافق الملك على المقترحات التى بعث بها "ساسون" ، وتم ترتيب لقاء بينه وبين "ساسون" فى الشونة ، وقد حضره "صديقنا الأعور" وهو الوصف الذى كان الملك "عبد الله" يطلقه على "موشى ديان" .

□

كان "بن جوريون" على ثقة من أن اللحظة المناسبة قد جاءت لتوجيه ضربته القاصمة إلى مصر . وفى حساباته للموقف فقد أضاف الجانب السياسى إلى الجانب العسكرى . وكان تقديره أن مصر فى حالة فوضى تشل قرارها وتجعلها مكشوفة أمام أى ضربة مفاجئة وعنيفة . وقد عند هذه الأسباب فى اجتماع للقيادة أشار فيه إلى التوتر الناشئ بسبب حل جماعة الإخوان المسلمين ، والشكوك المترسبة من إضراب البوليس قبل شهور ، وحالة الإحباط العام التى يعانى منها الجيش المصرى بسبب تعرضه للتفوق الإسرائيلى فى العمليات وفى قوة النيران . ثم الإحساس بالمرارة لدى جماهير الشعب المصرى العامة .

وتستكمل يوميات "بن جوريون" بقية القصة :

□□ ٢٢ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ فى الساعة ١٦٫٠٠ (الرابعة بعد الظهر) تبدأ العملية حوريف (التحرير) فى النقب . سلاح الجو يهاجم غزة وخان يونس والعريش . سلاح البحرية يقصف غزة وخان يونس . سلاح المشاة سيبدأ غدا صباحا مهاجمة استحكامات خط غزة من أجل التضليل. الهجوم الحقيقى فى الجنوب يبدأ يوم الجمعة ٢٤ ديسمبر .

ـ الجنرال رايلى (كبير مراقبى الهدنة) أبلغ شلواح أن المصريين لن يجروا مفاوضات لهدنة معنا ما دمنا لا ننفذ قرارات مجلس الأمن . أصدرت تعليمات للرد على رايلى بأن الحكومة فى هذه الحالة تحتفظ بحرية العمل من أجل الدفاع عن نفسها وتسريع السلام .

. . . . (صفحة ٦٧١)

. . . .

□□ الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ذهبت إلى شعبة العمليات لاستجلاء وضع الجبهة ، وقيل لى إن ييجال يادين توجه إلى بئر سبع . خابرت قيادة الجبهة الجنوبية هاتفيا لكى يستوقفوه فى الطريق ويقابلنى . قلت له إنه لا بد خلال تنفيذ عملية "حوريف" من إخضاع الجيب المصرى المحاصر فى الفالوجا . لا بد من قصف الفالوجا من دون شفقة إلى أن يستسلموا .

. . . .

. . . .

□□ ٢٦ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ بموجب التعليمات حشدت أمام الفالوجا ٨ مدافع هاون عيار ٦ بوصة . و٨ مدافع هاون عيار ١٢٠ مللم ، و٤ مدافع ٧٥ مللم ، ومدفع ١٠٥ مللم ، ومدفع ٥٠ مللم مضاد للدبابات ، و٤ مدافع ٦٥ مللم . إضافة إلى ١٦ مدفع هاون وصلت أمس . ("لماذا أمس فقط ؟")

ـ بدأ القصف . كل الأسلحة التى يملكها اللواء الثالث بقيادة ألكسندرونى تعمل . تم قصف الفالوجا من الجو ثلاث مرات .

ـ الأسطول يواصل العمل . قصفوا غزة ورفح من البحر . قاموا برحلات استطلاعية حتى بورسعيد .

. . . .

. . . .

□□ الاثنين ٢٧ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ فى الساعة ١٦ر٠٠ بعد الظهر بلغونى من شعبة العمليات أن العوجة فى أيدينا وأن طريق بئر عسلوج العوجة فى أيدينا تقريبا ، ويعتقدون أنه سيكون كله فى أيدينا عند حلول المساء .

. . . .

. . . .

□□ ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ يبلغوننا أن عراق المنشية فى أيدينا ، لكن المصريين فى الفالوجا يضغطون . فى العاشرة وعشرين دقيقة أبلغت أن طائراتنا هاجمت الفالوجا قبل ساعة تقريبا .

ـ حضر شلومو شامير قائد الجبهة الشرقية . هناك تحرشات على جبهته من بعض الوحدات العراقية . قلت له إنهم ملزمون بكبت الغرائز حتى انتهاء العملية فى الجنوب . لن ننجر إلى معارك أخرى خلافا لقرارنا .

ـ سقوط الفالوجا عندما يحدث سيحسم مصير غزة .

. . . .

. . . .

□□ ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

ـ ييجال آللون يبلغنى أن الموقف في الجنوب طيب . الجيش المصرى مشتت . هناك قوات فى القسيمة لكن تنظيمها يتطلب وقتا طويلا . وفى المنطقة الممتدة من شمال غزة حتى العريش توجد سبع كتائب نظامية منها كتيبة ١٢ ، وهى كتيبة جديدة أحضرت من مصر .

. . . .

. . . .

□

صباح يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجبهة المصرية تواجه موقفا بالغ الصعوبة . فقد واصلت قوة ضاربة من الجيش الإسرائيلى بقيادة "ييجال آللون" زحفها من القسيمة داخلة إلى الحدود المصرية ومتقدمة فى اتجاه مطار العريش . وبذلك أصبحت القوات الرئيسية للجيش المصرى فى قطاع غزة معزولة عن قيادتها وقواتها الاحتياطية فى العريش ورفح . ولم يكن الموقف خطيرا فقط ، لكنه كان مهينا أيضا لأن "بن جوريون" بدأ يتحدث عن غزو مصر . واستبد القلق بالملك "فاروق" ، فاستدعى السفير الأمريكى إلى لقائه وأبلغه بخطورة الموقف ، وطلب إليه نقل مناشدته إلى الرئيس "ترومان" لكى يتدخل بنفسه فى وضع حد لتقدم القوات الإسرائيلية داخل الأراضى المصرية .

ثم استدعى الملك فاروق بعد ذلك سفير بريطانيا "رونالد كامبل" وحمله رسالة إلى رئيس الوزراء "كليمنت آتلى" ووزير خارجيته "إرنست بيفن" . ولم يكد كل من السفير الأمريكى والسفير البريطانى يعود إلى سفارته حتى دعى كلاهما إلى مقابلة رئيس الوزراء، ثم دعى كلاهما إلى مقابلة الفريق "محمد حيدر" باشا وزير الحربية .

وربما كان أسوأ ما فى الموقف أن القيادة المصرية سواء فى القصر الملكى أو رئاسة الوزراء أو وزارة الحربية أصبحت شديدة العصبية .

وكانت النقطة الحرجة فى لقاء رئيس الوزراء المصرى بالسفير البريطانى هى الموقف الذى أفلتت فيه أعصاب رئيس الوزراء فقال للسفير البريطانى بعصبية : "لا بد أن تساعدونا" . وإذا بالسفير البريطانى يقول له : "هل أفهم من ذلك أنكم تريدون إحياء نصوص الدفاع المشترك بمقتضى معاهدة ١٩٣٦ ؟" وتنبه رئيس الوزراء إلى أنه كاد ينزلق إلى محظور ينقض كل منجزات الحركة الوطنية فى السنوات الثلاث السابقة .

ومع أن رئيس الوزراء لم يرد على هذا التساؤل فإن السفير البريطانى وجد فرصة متاحة ، فكتب إلى حكومته بما دار بينه وبين رئيس الوزراء لافتا النظر إلى أنه "بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأساسية فى المواجهة بين العرب والإسرائيليين ، فإن مصر تلقت درسا عبرته أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها" .

وكتب رئيس الوزراء البريطانى "آتلى" رسالة شخصية إلى "ترومان" يبلغه بتقرير سفيره فى القاهرة ، ويشير له إلى الفرصة المفتوحة التى يمكن استغلالها لتطويع الحركة الوطنية المصرية . وبعثت وزارة الخارجية الأمريكية إلى سفيرها فى إسرائيل برقية برقم ١٧٠٥ نصها كما يلى :

" سرى جدا وعاجل

من وزير الخارجية بالنيابة إلى السفير ماكدونالد فى إسرائيل

واشنطن فى ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨

يطلب الرئيس ترومان أن تقابل المستر بن جوريون والمستر شرتوك فورا وتبلغهما أنك تتحدث باسمى ، وأنت مخوّل فى إبلاغ هذه الرسالة أيضا إلى الرئيس وايزمان إذا وجدت ذلك مفيدا :

١ - لقد قلقت الحكومة الأمريكية لدى تسلم تقارير صحيحة تؤكد أن قوات إسرائيل العسكرية اجتاحت أرضا مصرية . وتؤكد التقارير أن القوات العسكرية الإسرائيلية لم تكن تقوم بتحركات عفوية ، وإنما كانت تقوم بعملية عسكرية مخطط لها بدقة .

٢ - إن الحكومة البريطانية أبلغتنا أنها تنظر للوضع بقلق شديد . وما لم تنسحب قوات إسرائيل من الأراضى المصرية فسيكون على الحكومة البريطانية اتخاذ تدابيرمن أجل تطبيق التزاماتها بموجب معاهدتها مع مصر سنة ١٩٣٦ . بيد أن الحكومة البريطانية تقول أنها لا تريد أن تخوض فى نزاع ضد إسرائيل شريطة ألا تبالغ هذه فى تأزيم الموقف .

٣ - تتذكرون أن الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الأولى فى العالم التى اعترفت بحكومة إسرائيل المؤقتة والتى تبنت طلبها للانضمام للأمم المتحدة كدولة محبة للسلام .

. . . .

. . . .

٤ - إن الانسحاب الفورى للقوات الإسرائيلية من الأراضى المصرية يبدو مطلوبا ودليلا على النوايا السلمية لحكومة إسرائيل المؤقتة . . . . "

وكان آخر شىء يريده "بن جوريون" هو أن يحدث بينه وبين الأمريكيين خلاف . وهكذا عاد من زيارة كان يقوم بها إلى ميادين القتال ليعقد اجتماعا عاجلا للحكومة يقابل بعده السفير الأمريكى .

ويكتب "دافيد بن جوريون" فى يومياته :

□□ الجمعة ٣١ ديسمبر ١٩٤٨

. . . .

. . . .

- اتصل بى موشى شرتوك . السفير الأمريكى ماكدونالد لديه تعليمات أن يقابلنى فورا فى أى مكان أكون فيه . دعوته إلى هنا . بدأت فلفت نظره إلى لهجة الرسالة المتزمتة ، وقلت له إنها تؤلمنى . وكان يمكن لبيفن نفسه أن يكتبها بهذه الصيغة . ثم أوضحت له النقاط التالية :

١ - إننا ندين بالشكر للولايات المتحدة على صداقتها وعلى مساعداتها لنا .

٢ - إننا آخر شعب فى العالم يرغب فى انتهاك السلام فى الشرق الأوسط أو فى أى مكان آخر. إننا شعب صغير جدا ولا نستطيع البقاء إلا بالسلام . إن ما نفعله هو دفاع عن النفس .

٣ - لقد أعطيت أوامر بانسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى المصرية .

- شرح السفير لى أن الولايات المتحدة تحركت بسرعة كى تحول دون أى عمل جدى فى مجلس الأمن ، أو أى عمل قد يفكر البريطانيون فى القيام به خصوصا أنهم كانوا على الأقل سيضطرون لتقديم أسلحة للمصريين إذا كانوا يرغبون بعد ذلك فى مواصلة المفاوضات لترتيبات تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

- أبلغت آللون (قائد العملية فى الجنوب) أن يدمر كل شىء فى العريش قبل أن يتركها ، وأن يواصل تشديد الضغط ضد غزة وضد الجيب فى الفالوجا .

- للمصريين فى رفح نحو مائة قتيل ومائتى جريح ، وهناك نحو ٦٠٠ أسير بينهم نحو ٢٥ ضابطا .

- آللون يطلب يومين للانسحاب ولتدمير كل ما يمكن تدميره فى العريش ولحرث الطرق .

- القوات المحاصرة فى الفالوجا قامت بهجوم مضاد وجرى ضربها بالطائرات .

- لا بد من استعمال أقصى درجات الحزم والقسوة مع الجيش المصرى حتى يتعلم درسا لا ينساه ، ولا يستخف بعده بقوة إسرائيل وقدرتها على سحق أعدائها .

. . . .

. . . .

□□ ٦ ينايـر ١٩٤٩

. . . .

. . . .

- تسلمنا أول أمـس بيانـا أرسـل من القاهــرة إلى نيويــورك بعـد ظهــر يـوم ٤ ينايـر ، ووجـه إلى مكتـب الأمـم المتحـدة فى حيفـا ، نصّـه :

"إذا تـم تنفيـذ وقـف القتال بفاعلية حتى ٥ ينايـر الساعة ١٤٫٠٠ بتوقيت جرينتش فإن الحكومة المصرية مستعدة لإصـدار تعليمـات إلى ممثليهـا لبـدء مفاوضات فوريــة مـع ممثلـى إسرائيل . ستجرى المفاوضات برئاسـة الأمـم المتحـدة .

. . . .

. . . .

□□ ٨ ينايـر ١٩٤٩

. . . .

. . . .

- تأملات أمنيـة فى العام الماضى قمنا بالثورة الكبرى فى تـاريخ شـعبنا . أسسـنا الدولـة العبريـة . أقمنا جيـش الدفـاع الإسرائيلى ، وحررنـا النقـب والجليـل وأعتقنـا أراضيهمـا مـن أجـل الاستيطان الواسع . أحضرنا أكـثر من ١٢٠٫٠٠٠ يهودى مهاجـر من المنفـى خلال عـام واحـد . كسبنا ود أكـبر دولتين فى العالـم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وأصبحنـا عنصرا سياسيا فى الشرق الأوسـط وفى العالـم بأسـره .

. . . .

. . . .

□□ ١٠ ينايـر ١٩٤٩

. . . .

. . . .

وصلنا إلى إيـلات ، وأطـل جيشنا على البحـر الأحمـر .

. . . .

. . . .

□□ ١٦ ينايـر ١٩٤٩

. . . .

. . . .

ـ فى العاشرة مساء خابرنى ييجال يادين . عاد ديـان بعد لقـاء مـع الملك عبـد اللـه . سيحضر إلى هنا غـدا . العجوز عبد اللـه يشكـو من الإنجليز ويطلب عـدم تـرك المصريـين لا سمح اللـه فى غـزة . من المفضـل أن نسلمها إلى الشيطـان ـ أن نأخذها نحـن .

. . . .

. . . .

□□ ٢٩ ينايـر ١٩٤٩

. . . .

. . . .

ـ الهزيمة العربيـة كاملة . لكنى أتخـوف طوال الوقت مـن نـداءات فـى العـالم العربـى تدعو إلى إنشاء حركـة شبيبـة وتدريبها ، وتوحـد قيـادة الجيـوش العربيـة وتقـيم مصـانع للسـلاح ، وتطبـق عقوبات اقتصادية علينا ، وتلغـى الامتيـازات التـى تمكـن الامبرياليـة مـن السيطرة على العـرب ، وإنشاء تنظيمات عمالية ، وتعزيز الصناعة والقـيم العصريـة ، وفتـح مؤسسات للتعليم العالى ، وإزالـة الحـدود الجمركيـة بـين البـلاد العربيـة ، وتنظيم دعايـة

فعالـة فى العالـم . هذا هو الطريق الذى يحلـم به العـرب ، وأنا أتخـوف طوال الوقت من أن يقـوم زعـيم عربـى بقيادتهم عليه . إنهـم يتجاهلون العقبـات الداخليـة والخارجية والوقـت الـلازم للوحـدة . والويـل لنـا إذا كنـا لا نعـرف كيـف نستغـل هـذا الوقـت لكـى ننمـو ونتحصـن، ونمتلك مكانة فى العالم ونثبت لقـوم من هذا النـوع أن طريـق العـرب إلى الوحـدة والحريـة والتقدم ليس طريـق شـن الحـرب علينـا .

. . . .

. . . .

□□ ١٤ يوليـــو ١٩٤٩

. . . .

. . . .

جـاء أبـا إيبـان . لا يـرى ضـرورة للركـض وراء السـلام . الهدنـة تكفينا . فإذا ركضنـا وراء السـلام فإن العـرب سيطلبون منـا ثمنـا : حـدودا ، أو عـودة لاجئـين ، أو كليهمـا . لننتظر بضعـة أعـوام .

. . . .

. . . .

□

كان المشروع الصهيونى يعيـش لحظـة انتصاره ، وكانت خطـة تنفيـذه سهلـة إلى حـد مـا ، فقـد جـرت علـى أرض لم تكـن واعيـة لهـا ، وإذا وعـت فهـى لم تكـن قـادرة علـى مواجهتها !

ثم إن الخطـة كانت مربحـة بغير حـد ، فالحركة الصهيونيـة أخـذت بلـدا بأرضـه ، بموارده الزراعية والصناعية ، العقارية والعمرانية ، وبمرافقـه مـن مـوان ومطـارات وطـرق لم

تتكلف شيئا غير التحسين والتطوير . علاوة على ذلك فقد أخــذت معه نظام إدارة وجهـاز حكومة خـدما فـى عصـر الخلافـة العثمانيـة ، وأعيـد تأهيلـهما فـى عصـر الإمبراطوريـة البريطانية.

أى أن المهاجرين من شـرق أوروبا جـاءوا إلى الشرق الأوسط فإذا دولـة مهيـأة بالنشـأة وبالنمـو وبالتراكـم فى انتظارهـم ، وكل ما كان عليهم هو تجهيزها وإعدادهـا لـدور جديـد ، وعصر مختلـف .

وبصرف النظر عن الأساطير والعقائد ، فقد كان السـلاح هو الذى أكـد وحسـم . ولم تكن قـوة الفكـرة وحدها قـادرة على دفـع موجات الهجـرة من شـرق أوروبا إلى الشـرق الأوسـط ، وإنما كانت قـوة النـار سابقـة للهجـرة وداعيـة لها وحاميـة .

ثم إن السـلاح كان هو الذى طـرد مـن الأرض سكانهـا ، وردع عـن الأرض جيرانهـا ، وأقنـع الذين آزروا وساندوا مهما كانت أسبابهـم بـأن الاسـتثمار فـى فكـرة إسـرائيل نافـع لأغراض كثيرة إستراتيجيـة واقتصاديـة وسياسيـة .

وكان الحاجز المطلوب بين مصـر وسوريـا فى مكانـه وبطريقـة مؤلمـة . وربمـا أن الملـك "عبد اللـه" عـبر عن ذلـك كله بصراحة محزنـة حين قـال أمـام "ساسـون" و"ديـان" : "إن أهـل الشمـال (سوريـا) تبعـثروا وأهـل الجنـوب (مصـر) تمرغـت جباههـم فى الـتراب" .

وكان حلـم "نابليـون" القديم قـد تحقـق . وحلـم "بالمرسـتون" ، و"لويـد جـورج" ، و"ونسـتون تشرشـل" . وقامـت الدولـة الحاجـزة العازلـة . وانقطـع العالـم العربـى إلى نصفين، وقـام بين النصفين جـدار يقـف مانعـا يتصـدى لفعـل التاريـخ ويصـد تياراتـه المتجـددة .



الكتاب الثانى

فى ثلاثية "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل"

"موازين القوة والضعف"

"يا أخوتنا فى الأندلس

لقد كان عليكم أن تصلوا جماعة

عندما عرفتم أن أعداءكم

يتوضأون بالدم قبل أن يجيئوا للقائكم"

[بيت شعر فارسى]

(من نظم سعدى على الأرجح)

" ليس هناك ما هو أخطر - فى السياسة الإقليمية والدولية ـ من حالة حرب توقفت دون نهاية حاسمة ودون توافق بالرضا يستغنى عن السلاح .

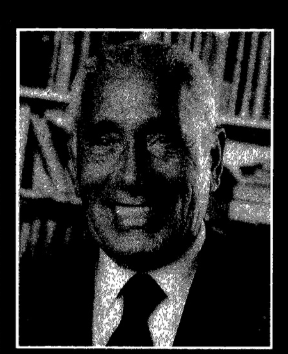
فى مثل هذه الحالة يصبح الانفجار واردا فى أى لحظة ، وحتى دون حاجة إلى أسباب مقنعة ، لأن الأسباب كامنة داخل الحالة نفسها وفى طبيعتها !"

محمد حسنين هيكل

فى الكتاب الثانى:

رقم الإيداع ٣٧٥٦ / ٩٦
I.S.B.N. 977 - 09 - 0330 - 2

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب٠ ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل

الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية

إن المعايير اختلفت إبتداء من سنة ١٩٧٤ . وعندما جاءت سنة ١٩٩٤ كانت العجلة قد دارت دورة كاملة .

سقطت موانع التحريم ، كما زالت دواعى القداسة . لكن وجه الغرابة أن مجموعات الحقائق والقيم لم تكن تغيرت ، ولا كان سبب الانقلاب نور عقل سطع فجأة ، أو حكمة تجلت ، أو تنزيلا علويا جاء إلى الناس بشرع جديد .

وكانت ذرائع الانقلاب - (إضافة إلى اتهام « الموقف » الأصلى بالجنون ، والوهم ، والمغامرة) هى الدفع بتغير الظروف ، وكانت الظروف بالفعل تتغير ، وهى باستمرار - على اتساع الدنيا وتواصل العصور - فى حالة تغيير لايتوقف ، وإنما كله فى إطار التاريخ الإنسانى وحركته من عتمة الكهف إلى سطح القمر .

ومن المفارقات أن « الآخر » كان أكثر وعيا وعلما ، فقد ظل فى مكانه على أرض التاريخ الإنسانى - بل والأسطورى غالبا - وبقى ثابتا على « مقدساته » وعلى « محرماته » . فهى - بعد ادعاء بغياب ألفى سنة - مازالت : « أرض إسرائيل » ، و« شعب الله المختار » ، و« مملكة داود » ، و« التلمود » ، و« اورشليم » ، و« يهودا » ، و« السامرة » ، و« هيكل سليمان » ، و« حائط المبكى » ، و« التيه » ، والـ« هولوكوست » ، وهاجس الأمن الذى لا سبيل إلى طمأنته والشىء الوحيد الذى جد بمتغيرات الزمن والظروف هو مائتا قنبلة نووية !

محمد حسنين هيكل

الغلاف للفنان حلمى التونى

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية
ص.ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف : ٢٦٢٣٣٩٨ - ٢٦٢٣٥٤٨
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)